نقولا زيادة

لمحات في تاريخ العرب

الأعمالُ الكاملة

نقولا زيادة
لمحات في تاريخ العرب

لمحات في تاريخ العرب

نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

لمحات في تاريخ العرب

الأهلية للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
© رائد وباسم زيادة
إصدار: **الأهلية للنشر والتوزيع**
بيروت ٢٠٠٢
بيروت، لبنان ـ الحمراء ـ بناية الدورادو
ص. ب.: ٥٤٣٣ ١١٣ ـ هاتف: ٣٥٤١٥٧

المحتويات

المقدمة ٩
- المجتمع العربي ١١
- العرب في جزر البحر المتوسط ٣٦
- ديار الشام كما عرفتها ٦٤
- أندلسيات ١٠٠
- صفحات من تاريخ العرب ١٢١
- المدينة في الإسلام ١٥٥
- الشرق العربي في صبح الأعشى ١٧٦
- مغربيات ٢٠٠

مقدمة

ما أكثر ما في التاريخ العربي من قاعات قلّ من دخلها، وسبل قلّ من طرقها، وزوايا قلّ من ولجها. وفيها كلها خير كثير لو أنصفها الناس.

هذه اللمحات التي أقدّمها إليك هي ثمرة جهد في سبيل التعرف إلى بعض تلك النواحي من تاريخ العرب.

ولقد لقيت في جمعها متعة ولذة، رأيت أن لا أحرمك إياها. وآمل أن أوفّق إلى إثارة رغبتك في الكشف عن نواح أخرى.

بيروت ١٩٦١

المجتمع العربي

١ . مع ابن بطلان

كنا نجوب أنحاء أنطاكية.

وشعرت وصديقي أن الحر قد اشتد، فأوينا إلى دير قريب من الطريق، فأضافنا رئيسه. وجلسنا في بهو واسع نستمتع ساعة، وجاء بعض الرهبان يتحدثون فقال قائلهم: «في هذا الدير أقام ابن بطلان في أواخر أيامه». وكنت أنا قد اعتمدت قاعدة أسطوانة في البهو الكبير، وأقبل الكرى على عيني يراودهما، فكانت كلمات الراهب آخر ما سمعت قبل أن أقصاني النوم عن الجماعة.

فما لبثت أن رأيت رجلاً واقفاً أمامي. حاولت أن أتعرف بهذا الأسود القبيح الخلقة الذي فاجأني، فلم أهتد. لكنه لم يسمح لي بأن يطول اغترابي فيه فقال: «أنا ابن بطلان الطبيب. ألم تكن تسأل عني فها قد جئتك بنفسي».

امتلأت نفسي سروراً. فها أنا بصحبة الطبيب البغدادي الكبير. ولكن أين نحن؟ وأدرك ابن بطلان ما بنفسي، فلفت نظري إلى ما حولي ودلني على معالم المكان، فإذا نحن بالكرخ حيث دار الطبيب وصحبه وتلامذته ومرضاه. وأردت ابن بطلان على أن يطوف بي في بغداد عاصمة العرب. لكن الرجل همس في أذني أن بغداد فيها فوضى واضطراب. فالبويهيون أصبحت أيامهم معدودة، وأولاد سلجوق يجمعون في الشرق جموعهم، ورجال الدولة كثيرو الشك والريبة في كل من يهبط البلد من الغرباء. فخير لي أن أستغني عن هذه الزيارة. ثم أضاف قائلاً: «وها أنا على أهبة السفر من بغداد، فهل لك في أن ترافقني. وثق أن سفرتنا ستكون ماتعة حقاً». فقبلت، وخرجنا معاً إلى أقرب خان فاكترينا دابتين وحزمنا أمتعة قليلة وخرجنا لنلحق بالقافلة التي كانت تعتزم السير إلى شمال سورية بطريق الجزيرة. وقبل أن نخرج دوَّن ابن بطلان في مفكرته أنه غادر بغداد في مستهل شهر رمضان سنة ٤٤٠ للهجرة.

كان رفيق سفيري هذا يعنى بكل شاردة وواردة تقع عليها عينه أو تطرق سمعه، سواء في ذلك أوصاف الحيوان وفوائد النبات وأخبار الناس وبارع النكتة ورائق الشعر. لذلك عرّجنا على مشايخ البلاد فكان يستمليهم ما عندهم. وقضينا تسع عشرة مرحلة حتى وصلنا الأنبار وقد صعدنا نهر عيسى. فبهرنا من الأنبار طيبها وتنوع فواكهها بحيث أننا عددنا تسعة عشرة نوعاً من الأعناب.

فما كان منا إلا أن تمتعنا فيها بعد سفرة، بعضها موحش، ثم تابعنا سيرنا أربعة أيام حتى حللنا الرصافة. فما قمنا بعض الوقت حول قصرها حيث ضرب رجال القافلة خيامهم واجتمع إليهم الناس يبادلونهم المتاجر. واغتنمنا نحن فرصة انشغال الناس عنا، ولم يكن لنا تجارة ولا بيع، وأخذنا نطوف بين ما تبقى من آثار قسطنطين في بيعته وهشام بن عبد الملك أيام جدَّد الرصافة وسكنها فكان يفزع إليها طلباً للراحة والاستجمام. وأعجبنا فيها صهريج كبير يختزن فيه القوم ماء المطر. وأهل هذا الحصن بالبادية يعيشون من تخفير القوافل وجلب المتاع.

وآن للقافلة أن تعود سيرتها الأولى فآن لنا أن نفارق الرصافة، ففعلنا ذلك ونحن نتحسر على ما آل إليه أمرها منذ أن هجرها الأمويون فأقفرت. وكان أمامنا رحلات أربع حتى نصل حلب. فقضيناها نتحدث عن شتى الشؤون، وابن بطلان المحدث وأنا السائل أو المصغي. وكان الرجل من رحابة الصدر بحيث أنه لم يمتنع عن رواية بيتين من الشعر قيلا في وصف خلقته الدميمة. بل إنه أضاف لي أنه ذكرهما في كتابه المسمّى بدعوة الأطباء. أما البيتان فهما:

فلما تبدّى للقوابل وجهه نكصن على أعقابهن من الندم

وقلن، وأخفين الكلام تستّرا، ألا ليتنا كنا تركناه في الرحم

هبطنا حلب وكان حاكمها ابن مرداس الذي شمل نفوذه الرقعة كلها. وانصرف الناس إلى تجارتهم واصطحبني ابن بطلان في أنحاء المدينة ينقب عن الفوائد والأنباء والأخبار ويدوِّنها. وكان تصرفه تصرف العالم الحريص. فلم يغفل حقيقة أو أسطورة. فقد سمع البعض يقول إنه لما هبط ابراهيم الخليل حَلَب كان يخبىء غنمه في مغارة فإذا حلبها أضاف الناس بلبنها فكان الناس يتساءلون حلب أم لا، فسميت المدينة «حلباً» لذلك، فقيّد هذا. لكنه سأل عن مساجد المدينة وبيعها وشرب أهلها والنهر المارّ بها المسمى قويق. وكتب ابن بطلان في مفكرته أن بالمدينة «في قيسارية البز عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون ألف دينار يعتبر ذلك منذ عشرين سنة وإلى الآن». ودوَّن في مناسبة أخرى أنه ليس في حلب موضع خراب أصلاً. واهتم بحلب على أنها ملتقى طرق تصلها بأمّهات المدن في الجزيرة والشام والساحل. فالرقة وقنسرين وحماة وأنطاكية وغيرها تنتهي طرقها إلى حلب.

وأعجب ابن بطلان في حلب بدار تتوسط البلدة، فلما سأل عنها قيل له إنها دار علوة صاحبة البحتري فرقص لذلك طرباً. ثم قادني إلى مجلس فيه أنس وطرب فتعرّفنا هناك إلى أبي الفتح بن أبي حصينة الشاعر، فاستنشده صاحبي شعراً فأنشده قوله:

ولما التقينا للوداع ودمعها ودمعي يفيضان الصبابة والوجدا

بكت لؤلؤا ففاضت مدامعي عقيقاً فصار الكل في نحرها عقدا

ووجدنا أن أهل القافلة سيقضون في حلب وقتاً طويلاً، فتركناهم وسرنا، وقد جمعنا ما استطعنا من الأخبار والأشعار والفوائد والفرائد، ونحن نقصد أنطاكية، وبُعد ما بين البلدين يوم وليلة، والمسافة متصلة القرى، مزهرة الرياض متفجرة المياه، كثيرة الشعير والحنطة والزيتون، يقطعها المسافر في رضى وأمن وسكون. فكان ذلك من دواعي سرورنا بعد أن كنا نتنقل فيما يكاد يكون صحراء قبل هبوطنا حلب.

وأعجبنا بأنطاكية واتساع رقعتها إذ إن سورها يرتفع إلى قمة الجبل المبنية على سطحه. ورأينا نهرها المقلوب. ولاحظنا أن الشمس تشرق في أنطاكية متأخرة لأن الجبل الشرقي كان يسترها عنا.

قضينا يومنا الأول نستريح ثم درنا في المدينة. وكان ابن بطلان لا يكل من التنقل ولا يمل من السؤال، فزرنا آثار دار قسيان وأرانا أحد الحراس مكان فنجان الساعات. وقادنا أحد أهل المدينة إلى كنائسها الجميلة المعمولة بالجص المذهب والزجاج الملون والبلاط المجزع. ثم أرشدنا إلى بيمارستان حيث يرعى البطريق المرضى فيه بنفسه. وأردنا أن ننعم بلذاذة من لذاذات الدنيا، فلما أظهرنا رغبتنا إلى صاحب الخان الذي كنا فيه، دلنا على حمام وقوده من الآس وماؤه سيح. وقد عرفنا بعد، أن جميع حمامات المدينة مثله. فحسدنا أهل أنطاكية على طيب مدينتهم وكثرة نعمها وخيراتها وتنوع متاجرها التي تحمل إليها من مينائها السويدية ومن حلب وغيرهما. لكن ساءنا أن هذه المدينة يحرسها أربعة آلاف رجل ينفذون إليها من القسطنطينية من حضرة الملك فيقضون في حراستها سنة، ثم يستبدل بهم في الثانية.

وقد أنسنا في أنطاكية بلقاء أبي نصر بن العطاء وهو قاضي قضاتها، فأفدنا من غزير علمه ومليح حديثه وبارع أخباره وما أكد لنا أملنا وقوى عقيدتنا بأن الرابطة بيننا وبين أهلها وثيقة لا تنفصم.

وانتقلنا من أنطاكية إلى اللاذقية، وهي راكبة البحر، تابعة للروم، ولكن فيها قاض للمسلمين وجامع يصلون فيه. وقد رأينا فيها أشياء غريبة. وبلغنا أن في البلد من الحبساء والزهاد في الصوامع والجبال كل فاضل لم يتسع وقتنا لزيارتهم والتعرف إليهم.

كان ابن بطلان يقصد مصر، لأنه يريد أن يقابل ابن رضوان الطبيب المصري الشهير، ولم تكن لي رغبة في مرافقته إليها. فسار هو إلى مصر وعدت أنا إلى أنطاكية.

رأيت هذا الرجل الأسود اللون ذا الخلقة الدميمة الذي وقف أمامي وقد أخذت صورته تختفي رويداً، فناديته أن قف فلم يمتنع، وسألته إن كان له شعر فقال إحفظ عني:

ولا أحد إن مت يبكي لميتتي سوى مجلسي في الطب والكتب باكيا

ولعل التعب الذي كان قد حملني إلى عالم الأحلام قد فارقني فرأيتني تتفتح عيناي شيئاً فشيئاً، ورأيتني أعود إلى تقري ما حولي ومن حولي. فإذا أنا مسند ظهري إلى قاعدة الأسطوانة الكبيرة في بهو الدير، وإذا بالراهب لا يزال يحدِّث الجماعة، وكان ما سمعته منه قوله:

وتوفي ابن بطلان ولم يتخذ امرأة ولا خلَّف ولداً. ولذلك يقول:

ولا أحد إن مت يبكي لميتتي سوى مجلس في الطب والكتب باكيا

وأصلحت جلستي فضحك القوم من نومي. ولم نلبث، أنا وصاحبي، أن غادرنا الدير وأتممنا سيرنا في أنحاء أنطاكية.

٢. ليلة في الرقة

لي صاحب كثير التجوال بعيد الأسفار. نزل الرقة في أواخر القرن الرابع للهجرة، وكان في طريقه من حمص إلى بغداد. وكانت الرقة بلدة صغيرة من بلدان الحدود، فأعجبته دورها الصغيرة المنتشرة على شاطىء الفرات، فرأى أن يتخلف عن القافلة ليقضي فيها يوماً وبعض اليوم يستجم من وعثاء السفر الطويل ويستمتع بصحبة أهل هذه المدينة. فودَّع رجال القافلة وقصد خاناً صغيراً أعدَّ لنزول المسافرين فأودع ما معه من متاجر قليلة ودابته القاعة الكبيرة في الطابق الأرضي المعدة لحفظ هذه الأشياء. واستأجر غرفة صغيرة تطل نافذتها على الفرات، ولما استراح قليلاً غيَّر لباسه، وخرج إلى شوارع البلدة يتقصى أخبارها ويتعرف بمعالمها ويستطلع ما فيها.

كانت البلدة صغيرة، ولكثرة ما يمرّ بها من الغرباء والمسافرين اعتاد أهلها أن يلمحوا النزيل بينهم. فما سار صاحبي إلا قليلاً حتى اقترب منه رجل عليه سيماء الاحترام والمهابة فحياه ودعاه إلى مرافقته في بلدته. فقبل صاحبي ذلك، وسار الإثنان، وقد آذنت الشمس بالمغيب قليلاً، حتى أفضى بهما السير إلى حصن الرقة. فأشار إليه الرقي وقال: «بلدتنا هذه، على صغرها، مركز هام من مراكز الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية في هذه الناحية. فنحن على طريق المسافرين. فأكثر من يقصد بغداد من شمال بلاد الشام يمر بنا. وفضلاً عن ذلك فنحن على سيف الصحراء، ومن ثم كان لبلدتنا هذا المركز الإداري الهام في نظر الخليفة ورجاله..».

وأعجب صاحبي بالحصن. فقد كان ضخماً متيناً قوياً يرتفع مائة ذراع أو يزيد ويشرف على البلدة وأرباضها وسواقيها. وقف يتأمله وقد رأى فيه منعة الدولة وعزها وإشرافها على شؤون الرعية وسهرها على أمورها. فلما رأى رفيقه هذه العناية دعاه إلى الصعود، فصعدا إلى سطح الحصن ومن هناك دله على ما يقع تحت نفوذ صاحب الحصن وأشار إليه أن يمتع نفسه برؤية نهر الفرات. وكان المنظر ساحراً. فقد

غطست الشمس خلف الأفق، وخلّفت اصفراراً مشرباً بحمرة، منتشراً في الجو فوق رمال الصحراء وماء الفرات إلى مسافات شاسعة. فطرب صاحبي للمنظر، وهتف: «إنها بلاد الشام، بلاد الجمال والجلال والبهاء».

وهمَّ صاحبي بالعودة. لكن رفيقه تلطف به ودعاه لتناول طعام العشاء معه. فما لا يجوز في عرف بلدته، أن يخرج غريب من الدار قبل أن يشارك أصحابها زادهم. وعندها أدرك صاحبي أن رفيقه إنما هو ماسك بالقلعة وصاحب جند الخليفة في الرقة. فقبل الدعوة شاكراً. فهو أراد أن يتعرف إلى البلدة أثناء إقامته، فإذا بالمصادفات توقعه بين يدي صاحب جندها.

انحدر الإثنان إلى داخل الحصن، ودخلا قاعة كبيرة أحاطت بها الطنافس، ووضعت في وسطها مائدة كبيرة صفت عليها صحون الفاكهة. وما كاد المقام يستقر بالرجلين حتى أعلن صاحب الدار أن بالباب جماعة قد استأذنوا عليه. فخرج لاستقبالهم بنفسه، ثم دخل الجميع فحيوا وجلسوا. وعندها ذكر صاحب الجند لصاحبي أن الداخلين كانوا: قاضي البلدة ومتولي الضياع السلطانية فيها والبندار وصاحب البريد. فبلغ السرور بصاحبي حداً لم يستطع معه أن يعبر عما خالجه وهو الكاتب البليغ والشاعر المبدع. فأي باعث كان يدفعه إلى قضاء هذه الليلة في الرقة؟

تنقل القوم وأخذوا شيئاً من الفاكهة، ثم أقبل الخدم يحملون صحاف الطعام وقصاع المأكل، فصفوها على المائدة، فأخذ كل منها بنصيبه. وكان صاحبي جائعاً فأكل منها شبعه.

ولكن الأمر الذي استمتع به صاحبي أكثر من الأكل هو هذا الحديث الذي دار بين الموجودين أثناء الأكل وبعده. فكأن هؤلاء الناس أحسوا بما رغب فيه ضيفهم، فما قصَّروا في ذكر أخبار بلدتهم وأعمالهم. وكان أول من تحدث صاحب البريد. فقد كان كثير الدل بمنزلته وعمله، أليس هو عين الخليفة في بقاع الأرض النائية وصاحب خبره في أنحاء ملكه البعيدة؟ هكذا أوصاه صاحب ديوان البريد في بغداد لما وكل إليه الأمر. فقد قص على الحاضرين أن صاحب الديوان ذكره بأنه يتحتم عليه أن يراقب طرق التجار وسيرهم، ويتحرى شؤون العمال، ويتجسس على الأعداء، ويستطلع أسعار الحاجيات من قمح وحبوب وأدم ومأكولات. ثم يكتب بخبر ذلك كله إلى الديوان البغدادي. وبذلك يعرف الخليفة خفايا الأمور ودخائلها في كل جزء من أجزاء مملكته. ولم يفت صاحب البريد أن يذكّر الحضور بأنه يوجد تحت تصرفه مجموعة من الحمام الزاجل تحمل رسائله إلى بغداد، وبذلك تصل أخباره بسرعة كبيرة. وكأن صاحب البريد خشي أن يكون قد ساور الضيف شيء من الريبة فيما قال، فما أسرع ما تناول من كمه الواسع رقاً ملفوفاً لفاً محكماً ثم فتحه بين يديه وقرأ فيه ما يأتي: «هذا عهد بما يجب على صاحب البريد. عليه أن يعرف حال عمال الخراج والضياع، فيما يجري

عليه أمرهم ويتتبع ذلك تتبعاً شافياً، ويستشفه استشفافاً بليغاً، وينهيه على حقه وصدقه. وعليه أن يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال وما يجري في أمور الرعية فيكتب به مشروحاً. وأن يعرف ما عليه الحكّام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم. وأن يعرف حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق، وما يلزمه المورّدون من الكلف والمؤن ويكتب بذلك على حقه وصدقه. وأن يعرض المرتبين لحمل الخرائط في عمله ويكتب بعددهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم وعدد السكك في جميع عمله وأميالها ومواضعها. وأن يوعز إلى الموقتين بإثبات المواقيت وضبطها حتى لا يتأخر أحد عن الأوقات التي سبيله أن يرد السكة فيها. وأن يفرد لكل ما يكتب من أصناف الأخبار كتباً بأعيانها». ولما فرغ من قراءة هذا العهد، لفه بإحكام وأعاده مكانه وعاد إلى حديثه فقال: إنه قد يتفق له أن يكتب في اليوم الواحد كتابين إلى بغداد. فإذا صلى العشاء كتب بأخبار النهار، وإذا صلى الفجر كتب بأنباء الليل. ويغلب هذا أيام كثرة المتنقلين في مواسم الأسواق والتجارة، وعندما تبدو في الجوّ ثورة أو عصيان أو تغير على الحمى قبائل من الصحراء، فيترتب عليه في هذه الأحوال أن ينبىء الخليفة بالأخبار بأسرع ما يتيسر له حتى يتمكن هذا من التصرف في الأمر بالسرعة والشدّة التي تتطلبها المناسبة.

وأُعجب صاحبي بهذا العمل، وحسب أنه من حق صاحب البريد أن يفخر بمنصبه. لكن ما كاد هذا ينتهي من حديثه حتى تقدم البندار ينافره ويفاخره. أليس هو الوكيل على مال الجمارك والخراج؟ أليس هو المكلف بتقدير أثمان المتاجر والسلع وتعيين ما يتوجب على أصحابها دفعه لديوان المال؟ ولما كانت الرقة مركزاً كبيراً للتجارة ومحطة للقوافل فقد أصبح منصبه ذا قيمة خاصة. فقد يزيد ما يدفعه التجار في اليوم الواحد عن مئات الدنانير، وإن كان هذا ليس مستمراً كل يوم. قال هذا وتناول روزنامجه، وهو كتاب اليوم، وعدّ فيه أوراقاً، واحدة بعد أخرى، فوجد أنه قد قبض هذا المبلغ الكبير عشر مرات في عشرة أيام في الموسم الحاضر. ثم التفت إلى صاحب الجند وذكّره بأنه احتاج إلى بعض جنده ليحرسوا الجامع لكثرة الأموال المودعة فيه ريثما يأتي عمال الخليفة فيقبضوها.

وكأن الجهد الذي بذله في الدفاع عن منصبه نال منه، فأقبل على قصعة يلتهم ما فيها من الطعام ليعوّض عما فاته وهو يتكلم. فاغتنم صاحب البريد الفرصة ونال منه بنكتة لاذعة فقال: «إن البندار جشع في أكله مثله في عمله فلا يرضى إلا باللقمة الكبيرة، ولا يتحدث إلا عن المال الكثير». فضحك الحاضرون حتى استلقوا. أما البندار فاستمر يأكل كأنّه لم يكن المقصود بذلك.

وتقدم متولّي السواقي في أدب وتواضع وأشار إلى أن عمله دون صاحب البريد

والبندار. فإنه يترتب عليه أن يشرف على ضياع الخليفة وأرضه، وهي الأملاك التي تعود على الدولة بشيء كثير من المال.

والسواقي في الرقة كثيرة واسعة، ذلك أن كثيرين من أهل تلك الجهة ألجأوا أراضيهم وأملاكهم للخليفة ليضمنوا تعهدها وحمايتها. فضلاً عن أن أيام الرخاء التي مرت بالدولة قبل سنين يسرت لها ابتياع عدد كبير من الضياع المحيطة بالفرات. وعليه - أي متولّي السواقي - أن يقوم بالرقابة الفعلية على جميع الشؤون المتصلة بالزراعة والري، من بناء القنوات وترميمها وغير ذلك مما يتوقف عليه غلة الدولة ودخلها.

وأُعجب صاحبي بهذا الشاب الهادىء الذي يعنى بهذه الشؤون المتصلة بالحياة إلى هذا الحد، ومع ذلك فهو لا يتبجح، وأدرك أنه لا بد له من مستقبل زاهر. وهمَّ بسؤال صاحب الجند عن عمله، ولكن هذا كان أسرع من صاحبي إذ قال للجماعة «لقد تحدثتم كل عما يقوم به من أعمال. ولست أريد أنا أن أطيل ولكنني أودّ أن أذكركم أن هذا الحصن الذي نجلس فيه إنما هو طوع أمري وتحت تصرفي بما فيه من جند وشرطة. وأنا المسؤول عن حفظ الأمن في هذه الأنحاء كلها. وأي إخلال بالنظام إنما تقع مسؤوليته على عاتقي وحدي. وإن كنتم ترون الأمور على خير في هذه الجهة فاذكروا أن الفضل في ذلك يرجع إليّ. إنني هنا منذ أربع سنوات وقد استطعت أن أؤمن السبل وأنشر الأمن وأنظم التنقل. وقد قمعت منذ سنتين ثورة قام بها أحد الناقمين على سلطان الخليفة وتم ذلك في مدة قصيرة ودون خسارة في الأرواح حتى إن الخليفة نفسه أثنى عليَّ».

كان ثمّة رجل واحد في المجلس قد حافظ على اتزانه. كان يرتدي طيلساناً أسود ويعتمّ بعمة مهيبة، ولم يكن في تصرفه في المساء كله ما يؤخذ عليه. ذلك هو القاضي، وكان صاحبي يود لو يسمعه، ولكنه خيب أمله. على أن البندار استقضاه في هذه الخصومة البريئة التي قامت بين الجماعة، وطلب إليه أن ينصف بين المتفاخرين. وعندها شاعت في وجهه ابتسامة عريضة فبدأ حديثه بقوله: «إنكم إذا تقدمتم إلي للفصل فيما بينكم، إنما اعترفتم بأنني عادل، وهذه صفة رئيسة يجب أن يتحلى القاضي بها. وأحمد الله على أن أمير المؤمنين اختارني وولاني هنا القضاء والحسبة. فأنا هنا أقوم بالفصل بين المتخاصمين على أسس الشرع الشريف، وأرعى تصرف الناس وآدابهم على ما تقتضيه قواعد المحتسب. فأنا أرقب السوق في الصباح وأتأكد من صحة الكيل والميزان واستوثق من أن أصحاب الحوانيت لا يبسطون متاعهم بحيث يعترض المارة ويعوقهم. فإذا ارتفعت الشمس جلست للفصل في الخصومات. وقد يعرض لي أن يتظلم أحد الناس من صاحب السلطان، فإما اقتنعت بصحة دعواه

انتصفت له، وعندها أمثل صاحب المظالم. وقد جعلت مرشدي في عملي وصية الخليفة الطائع إلى قاضي القضاة في أيامنا هذه، إذ أوصاه أن لا يقبل رشوة، ولا يلتمس جعلا، وأن يبحث عن أمانات الشهود ويضبط ما يجري في عمله، ويحتاط على أموال الأيتام وأن يرد أحكامه إلى كتاب الله».

وخشي صاحبي أن يقف القاضي عند هذا الحد فلا يصدر حكمه في الخصومة التي شجرت بين الحاضرين، لكن القاضي استمر قائلاً: «أما فيما يختص بهذا الذي أنتم فيه، فإني والله لو عرفتكم جادين لأجريت عليكم الحدّ، فما يجوز لأحد أن يمنّ على بلده وجماعته وأمته لأنه يقوم بواجبه؛ ولكنني أعرف أنكم مازحون، وأن كل واحد منكم إنما وضع شعاره الذي يهتدي به: «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان».

وهنا جمع صاحبي كل قوته وشجاعته، واستأذن في أن يروي لهم ما أثر عن المنصور، فأذنوا له، فقال إنه يؤثر عن الخليفة الكبير أنه كان يقول «ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر، هم أركان الملك. أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غني، والرابع صاحب بريد يكتب إلي بخبر هؤلاء على الصحة». ثم قال صاحبي «وما تمناه المنصور ببغداد وجده الطائع في الرقة. فإنكم والله أولئك النفر الذين أرادهم».

قص علي صاحبي قصته فسألته وماذا حدث لك بعد ذلك؟ قال: «لا أدري فقد وقع الغطاء عني، فأحسست بالبرد وأفقت من حلمي الجميل».

٣. مجلس أطباء في القرن الخامس للهجرة

هبطت دمشق وكانت بي علة فسألت أهلها عن طبيب اعتمد عليه في شفاء ما بي، فقال قائلهم: عليك باليبرودي. ففتشت عنه حتى اهتديت إلى داره بسوق جيرون فدخلت عليه فسلمت فرد السلام وأمرني بالجلوس. فشرحت له حالتي، ففحصني فحصاً دقيقاً ليعرف كل شيء عني، ثم وصف لي الدواء اللازم. وهممت بالانصراف لولا أن دخل عليه ساعتها جماعة من المشتغلين بالطب وغيره من أهل دمشق، فرأيت أن أقيم لعلي أسمع من طرائف أخبارهم ما لم يكن لي به علم. ولعل اليبرودي أدرك ما بي فابتسم وقال لي: «لا عليك يا هذا، أمكث حيث أنت، لعلك تصيب من حديثنا ما يهون عليك بعض ما بك». فظللت حيث كنت.

واستقر بالجماعة المجلس وتجاذبوا أطراف الحديث فخاضوا في شتى المباحث والشؤون، وانتهى بهم الأمر إلى سؤال اليبرودي عن تعلمه الطب. فأطرق الرجل ساعة،

كأنه يستعيد حلماً رآه من زمن بعيد، ثم رفع رأسه وقد علت وجهه ابتسامة وانطلق يقص عليهم خبره، قال: «كنت في صباي أحمل الشيح من ضيعتي يبرود وأبيعه في دمشق، وكنت يوماً أقود دابتي وعليها حملها من الشيح، فمررت بالفاصد أبي الخير وقد فصد شاباً فوقعت الفصدة في الشريان، فتحير وتبلد وطلب قطع الدم فلم يقدر على ذلك فاجتمع الناس عليه. فلما رأيته على تلك الحال أشرت عليه بأن يفصده في اليد الأخرى وبسدّ الفصد الأول، ثم يعود للثاني فيسده، ففعل ووقف الدم. فتشبث أبو الخير بي وسألني عما أمرته به، فأخبرته أنني أرى أبي في وقت سقي الكرم إذا انفتح شق من النهر وخرج منه الماء لا يقدر على إمساكه حتى يفتح فتحاً آخر ينقص به الماء الأول الواصل إلى ذلك الشق ثم يسده بعد ذلك. فلما سمع أبو الخير ذلك منعني من بيع الشيح واقتطعني وعلّمني صناعة الطب. فلما تبصرت في أشياء منها وصارت لي معرفة بالقوانين العلمية، أردت أن أستزيد من أحد ثقات الأطباء فدلوني على أبي الفرج وكان ببغداد، فتأهبت للسفر، وأخذت سواراً كان لأمي وتوجهت إلى بغداد. وصرت أنفق على نفسي ما يقوم بأودي. واشتغلت على أبي الفرج حتى مهرت في الصناعة، فعدت إلى دمشق وها أنا لا أزال فيها». فطرب الحاضرون لهذه القصة وقال أحدهم، وكان شيخاً جليلاً اشتعل رأسه شيباً «الشيء بالشيء يذكر، فقد اتصل بي أن طبيب مصر الكبير ابن رضوان لقي في حداثته صعوبات في تعلم الطب. فقد أسلم نفسه لتعليم الطب لما بلغ الرابعة عشرة من عمره ولم يكن له مال ينفق منه فعرضت له في التعليم صعوبة ومشقة فكان مرة يتكسب بصناعة الطب ومرة بالتعليم ولم يزل كذلك حتى بلغ الثانية والثلاثين».

وسأل آخر عن السبب الذي يدفع الكثيرين إلى الطب ودراسته، فأجاب أحدهم، وكان من رجال الطب، بأنه لما كان ينبغي لكل إنسان أليق الصنائع، ولما كانت صناعة الطب تتاخم الفلسفة لأنها تكامل الفضائل كلها، لذلك أقبل عليها الكثيرون طاعة لله عز وجل. وقادهم هذا السؤال إلى التحدث عن صفات الطبيب. فتحدث عن ذلك كل المشتغلين بالطب وانتهى الأمر بهم جميعاً إلى أن الطبيب هو الشخص الذي تجتمع فيه الخصال التالية:

الأولى: أن يكون تام الخلق صحيح الأعضاء حسن الذكاء جيد الرواية عاقلاً ذكوراً خير الطبع.

الثانية: أن يكون حسن الملبس طيب الرائحة نظيف البدن والثوب.

الثالثة: أن يكون كتوماً لأسرار المرضى لا يبوح بشيء من أمراضهم.

الرابعة: أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء.

الخامسة: أن يكون حريصاً على التعليم والمبالغة في منافع الناس.

السادسة: أن يكون سليم القلب عفيف النظر صادق اللهجة. لا يخطر بباله شيء من أمور النساء والأموال التي شاهدها في منازل الأعلاء، فضلاً عن أن يتعرَّض إلى شيء منها.

السابعة: أن يكون مأموناً ثقة على الأرواح والأموال لا يصف دواء قتالاً ولا يعلمه ولا دواء يسقط الأجنّة. يعالج عدوّه بنية صادقة كما يعالج حبيبه.

وما إن بلغوا هذه الغاية من حديثهم حتى تناول اليبرودي كتاباً قريباً منه على يمينه، وقلّب أوراقه ثم قرأ للموجودين ما يلي: «إن الطبيب هو من تكاملت فيه الفضائل كلها: التي هي العلم التعليمي والطبيعي والإلهي وصناعة المنطق والطب وصالح الأعمال ومحاسن الأخلاق. إن من كان كاملاً في الطب وناقصاً في واحد منها فهو يعدّ متطبباً لا طبيباً، ومن لم تتكامل فيه صناعة الطب فهو متعلم لم يبلغ بعد إلى أن يسمى بالمتطبب». ولما سأله أحدهم عن صاحب هذه الحكمة أجابه أنه جالينوس أبو الطب اليوناني. والظاهر أنه كان بين الجماعة متعلم في الطب فنظر إلى اليبرودي وسأله نصيحة يحفظها عنه، فقال اليبرودي: «نصيحتي إليك هي نصيحة قرأتها بخط ابن رضوان المصري إذ قال: إذا دعيت إلى مريض فأعطه مما لا يضره إلى أن تعرف علته فتعالجها عند ذلك». فشكر المتعلم له نصحه.

وراقني المجلس. فقد جئت أستشفي فإذا بي أقضي ساعة ماتعة. وتذكرت ما سمعته قبلاً من أن الأطباء الحقيقيين في البلاد العربية شديدو المحافظة على سمعتهم الطبية وكثيرو العناية بشرف المهنة، ولذلك لم أستغرب لما رأيت اليبرودي، وهو ما عرفت علماً وسعة اطلاع، لا يرى عاراً في أن يروي نصيحة عن ابن رضوان، أمانة في النقل، واعترافاً بالفضل.

وخشيت أن تفلت الفرصة دون أن أسمع شيئاً عن نوادر الطب والأطباء، والمجلس الذي أنا فيه، الدهر بمثله ضنين، فجمعت كل ما عندي من جرأة وطلبت إلى الحاضرين أن يرووا شيئاً مما جرى لهم. وكنت آمل أن لا يبخل اليبرودي نفسه بأن يقص علينا نوادره. ولم يخيب أملي. فقد استوى في جلسته وابتسم وقال: «عبرت يوماً في سوق جيرون في هذه المدينة فرأيت إنساناً وقد بايع على أن يأكل أرطالاً من لحم فرس مسلوق مما يباع في الأسواق. فلما رأيته وقد أمعن في أكله بأكثر مما تحتمله قواه، ثم شرب بعده فقاعاً كثيراً وماء بثلج واضطربت أحواله، تفرست فيه أنه لا بد أن يغمى عليه وأن يبقى في حالة يكون الموت فيها أقرب إليه إن لم يتلاحق. فتبعته إلى المنزل الذي له واستشرفت إلى ماذا يؤول أمره. فلم يكن إلا أيسر وقت وأهله يصيحون ويضجون بالبكاء ويذيعون أنه قد مات. فأتيت إليهم وقلت إنني أبرئه. ثم إنني أخذته إلى حمام قريب وفتحت فكيه كرهاً ثم ثقبت في حلقه ماء مغلياً وقد أضفت إليه أدوية مقيئة، وقيأته برفق ثم عالجته وتلطفت في مداواته حتى أفاق وعاد إلى صحته.

فتعجب الناس مني واشتهرت عني هذه القضية. وكنت أرمي بطبيعة الحال إلى اختبار رأيي فيما يمكن أن يحدث له وإنجاده مما يقع فيه، وقد صدق حدسي».

واستزادنا اليبرودي فقص علينا أنه حدث أن رجلاً خبّازاً بينما هو يخبز في تنوره بمدينتنا هذه، إذ عبر عليه رجل يبيع المشمش فاشترى منه وجعل يأكله بالخبز الحار، فلما فرغ سقط مغشياً عليه فنظروا فإذا هو ميت. فجعلوا يتربصون به ويحملون له الأطباء فيلتمسون دلائله ومواضع الحياة فيه فلم يجدوا، فقضوا بموته. فغسل وكفن وصلي عليه وخرجوا به إلى الجبانة. فبينما هم في الطريق على باب البلد استقبلتهم فسمعت الناس يلهجون بقضيته فسألتهم عنه فقصوا علي قصته فقلت حطوه حتى أراه فحطوه. فجعلت أقلبه وأنظر إلى إمارات الحياة ثم فتحت فمه وسقيته شيئاً مقيئاً فاندفع ما هنالك فإذا الرجل فتح عينيه وتكلم وعاد بعد حين كما كان إلى حانوته.

فقال أحد الحضور معقباً على قصة اليبرودي «لقد قرأت في كتاب الغاذي والمغتذي لابن أبي الأشعث الطبيب أنه رأى يوماً إنساناً وقد بايع أن يأكل جزراً كثيراً. فحضر الأشعثي أكله ليرى إيراد الغذاء على المعدة قسراً إلى ماذا يؤول. فرآه يأكل ويضاحك من حوله حتى إذا مر على الأكثر مما كان بين يديه رأى الجزر يخرج من حلقه ممضوغاً ملتفاً متحبلاً متعجناً بريقه، وقد جحظت عيناه وانقطع نفسه واحمرَّ لونه، ودرت وداجاه وعروق رأسه، وأربد وكمد وجهه وعرض له من التهوّع أكثر مما عرض له من القذف حتى رمى من ذلك الذي أكله شيئاً كثيراً. وبمثل هذه المناسبات كان الأشعثي يدرس الغذاء وأحواله». وعندها تقدم شخص آخر من الحضور وذكرنا بأن الأشعثي هذا شرَّح سبعاً حياً بعد أن سقاه ماء كثيراً ليثبت أن المعدة متى امتلأت قسراً امتدت الطبقة الداخلة حتى صار سطحها مستوياً.

وكان آخر ما تحدث به القوم ذكرهم المتطببين وأدعياء الطب. فقد ذكر أحدهم أن تسامح شيوخهم في التسمي بالمتطبب شجع المتعلمين على استعمال هذه التسمية وإن لم يستحق هذه الرتبة. والذي سمى نفسه طبيباً ولما تتكامل فيه صناعة الطب أي دون اجتياز امتحانها فهو كذاب أحمق. ولفت اليبرودي نظرهم إلى أن من كبار الأطباء من حرم العمل لأنه أساء السيرة مثل ابن بكس الذي أبعد عن البيمارستان وتحامى طبه الناس لثلاث خلال: لفساد عقله بمواصلة السهر وارتعاش يده من تعامل المجسّ وامتناع بصره عن رؤية القوارير.

كانت ساعات النهار قد ولت وقد أوقدت الخادم السرج ونحن بعد جلوس، فرأت الجماعة أن تتفرق، فقاموا وحيوا وخرجوا. وما كادوا يصلون إلى السوق حتى وجدوها في هرج ومرج فسألوا عن ذلك فذكروا بأن الغد هو يوم الوقوف بعرفات من سنة ٤٣١للهجرة، وكانوا قد نسوا ذلك لانشغالهم بأمور الطب والتحدث عنها.

ورأيت وقد تركت الجماعة، أولاداً يقتربون مني فرحين، ولما وصلوا إلي زحموني

بحيث شعرت كأن أضلاعي تكسّرت. فأفقت من نومي وكانت تباشير الصباح قد آذنت بانتهاء موعد النوم.

نفضت عني الغطاء، ونهضت من الفراش، وأنا أفكر بهذا الحلم اللذيذ، وبما كانت عليه الطبابة في عصور العرب الزاهرة وبما كان يعنى به أطباؤهم من محافظة على شرفهم واهتمام بشؤون المرضى ورعاية لحقوق المهنة. فكرت بهذا كله فشعرت بأنني أعتز بهم وأفخر، وقلت في نفسي «فلأقصَّ حديثي هذا على الناس، فلعل فيه ما ينفع، وذكّر إن نفعت الذكرى».

٤ . مؤتمر مدرِّسين

وجدتني وصاحبي نذرع صحناً واسعاً في دار فخمة جميلة، ولم ندر ما الذي جاء بنا ذلك المكان، ولم نجد ثمة من نسأله عن الدار وأهلها. فاتجهنا نحو أحد الأروقة المعمّدة المحيطة بفناء الساحة الواسعة، وتبينا باباً يؤدي إلى غرفة صغيرة فوقفنا عليه فرأينا في ركن من الغرفة شاباً بين يديه كراريس كثيرة فسلمت عليه وسألته عن المكان الذي نحن فيه. فردّ التحية بأحسن منها ثم قال: «أنتما في المدرسة العادلية». وإذن نحن في دمشق وفي المدرسة العادلية!

جذبني صاحبي وهمّ بالخروج ولكنني تلكأت وكان ذلك من حسن حظنا. فقد لفت نظري أن أفراداً من أصحاب العمائم يتجهون نحو باب كبير في آخر الصحن الواسع. فاقترحت أن نتجه نحوه، وقبل صاحبي فذهبنا. وكانت ثمّة قاعة كبيرة مفروشة بالسجاد تدور بها طنافس ووسائد والناس يدخلونها ويتخذ كل مقعداً. فدخلنا مع الداخلين وجلسنا في ركن من أركانها بحيث نرى كل شيء دون أن نلفت النظر إلى وجودنا.

التأم المجلس وكان فيه عشرات من الناس. لكن خمسة أشخاص انتبذوا من دون الباقين مكاناً مرتفعاً. وأخذنا نتأمل الحاضرين جميعهم، لكن تأملنا لم يطل، فقد ارتفع صوت من المكان المرتفع بذكر الفاتحة فخشع الجميع يقرأونها. وما إن انتهوا حتى عاد الصوت نفسه إلى الكلام فقال: «نحن نجتمع الساعة هنا للنظر في شؤون المدارس والتعليم. فكل واحد بيننا عمل على نشر المعرفة بين أبناء قومه. ولكننا نرى أن حالة التعليم أخذت تنحط بيننا، لذلك اجتمعنا لنبحث القضية بحثاً خالصاً لوجه الله تعالى. فأشد ما أخشاه أن نكون قد اتجهنا نحن بالتعليم اتجاهاً شوَّه غايته وباعد بين أصله ومرماه». وصمت الشيخ الجليل عندما تقدم أحد الجالسين من المنصة فتناول من كمه الواسع رقّاً ملفوفاً ففتحه وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «عني العرب بادىء ذي بدء بالقرآن وعلوم الشريعة فتناولوها في مدارسهم بدقة. فلما تعرَّفوا إلى نتاج القرائح اليونانية نقلوه إلى لغتهم فصار جزءاً من تفكيرهم. وعندها دخلت

الرياضيات والطب والفلك دور العلم، وانتشرت هذه في العواصم وكبرى المدن. وكان المسجد أول دار للعلم في الدولة، لكن منذ القرن الرابع للهجرة خرج الناس إلى دور خاصة، بعضها أنشأها الخلفاء والأمراء كبيت الحكمة البغدادي ودار العلم القاهرية، وبعضها مما ينفق عليه الأفراد مثل المدرسة التي أسسها الفقيه الموصلي في بلده، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم، ووقفها على طلاب العلم فلم يمنع أحد من دخولها وكان هو نفسه يعلم فيها.

«لكن لما وقعت بلادنا تحت سيطرة الأتراك السلاجقة اتخذوا من المدرسة سبيلاً لنشر دعايتهم السياسية، وبذلك تغلبت النزعة الدينية السياسية على الحياة العلمية الفكرية الخالصة. ومع أن هذا لم يكن شأن جميع المتغلبين، فقد وضع أولئك بذور هذه الفكرة. ولعل بعض ما نعاني اليوم هو من آثار هذا التغلب».

أثار هذا الخطاب القصير نقاشاً طويلاً لكنه ظل هادئاً، فقد لفت نظر المتحدث إلى أن هذا التعميم فيه خطأ فاضح. وأشار كثيرون إلى الفضل الذي أدته المدارس العديدة للعرب وللإسلام. وتناول أحد الحضور رحلة ابن جبير من بين كراريسه وقرأ للمجتمعين وصف الرحالة لمجلس حضره في المدرسة النظامية ببغداد للشيخ القزويني رئيس الشافعية وفقيه المدرسة، وقد جاء في هذا الوصف أنه «بعد أن خطب الشيخ خطبة سكون ووقار وعلم صحيح رشقه الطلاب والفقهاء بالمسائل من كل صوب فأجاب عليها كلها حتى حان المساء فتفرق الجميع». وأيد آخرون هذه الدعوى دحضاً لحجة الخطيب الأول. وعاد هذا إلى الكلام ولكن بغير رق يخرجه من كمه فقال: «لقد عرضت للأمر من ناحيته التاريخية. وقد أكون مخطئاً في الأمر الذي وصلت إليه. وعلى كل فإن لم يكن اللوم يقع على الأحوال فإنه يقع على الرجال. وإذا كانت السلطة بريئة مما عُزي إليها فالحق كله على المعلم الذي وكل إليه الأمر فلم يحسن القيام به. ولنرجع إلى هذا المعلم، إلى نفوسنا لنرى موضع التقصير».

وكأن هذا التحدي من المتكلم قد لمس موضعاً حساساً في نفوس القوم فأمّنوا على قوله واتفق رأيهم على أن ينظروا الأمر في هذه الناحية. وكان أول ما بدا لهم من المسائل هو الغاية التي يجب أن يرمى إليها من التعليم؟ وتحدث في ذلك كثيرون وخرجوا من نقاش طويل هادىء إلى أن الغايات التي يجب أن يضعها المعلم والمتعلم أمامه هي ثلاث: أولاها أن ينوي المتعلم بطلب العلم رضى الله تعالى والآخرة. وثانيها أن يكون العلم جمالاً للغني ومالاً للفقير على حدّ ما قاله عبد الملك بن مروان. وثالثها أن ينال المتعلم من علمه لذة عقلية، إذ إن الغرض من العلوم الاطلاع على الحقائق وتهذيب الأخلاق.

فلما انتهى المجتمعون من تقرير هذه الناحية عادوا إلى فحص نفوسهم كمعلمين ليروا مسؤوليتهم في التدهور الذي أصاب التعليم في أيامهم، وكانت النواحي التي

تحدثوا عنها هي الصفات التي يجب أن تتوفر فيهم ليحق لهم أن يكونوا المشرفين على تربية النشء وتهذيبه ليصلوا به إلى هذه الغايات التي أقرّوها. وكان بين الحضور شخص قد لزم الصمت الوقت كله فتقدم الآن للكلام فقال: «روى ابن حوقل أنه لما زار بلرم عاصمة صقلية سنة ٣١٢هـ وجد فيها ثلاثمائة معلم، ولما استكثر العدد وسأل عن سبب هذه الكثرة قيل له إن الكثيرين يتخذون التعليم مهنة لأنه ينقذهم من الغزو ويبعدهم عن الجندية. ونحن لا نريد هذا النوع من المعلمين. إنما نريد أن نكون نحن عند وصف ابن الكناني إذ قال: يجب أن يكون المعيد، وهو معلم أيضاً، من الصلحاء الفضلاء صبوراً على اختلاف الطلبة حريصاً على إفادتهم قائماً بوظيفة اشتغالهم. وقد لا يستطيع كل معلم أن يكون إماماً في موضوعه لكنه يجب أن يكون قد أجازه شيوخه. والمهم في هذه المسألة هو أن يكون قد أخلص لله تعالى فقدَّم طهارة النفس على رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف. نحن بحاجة إلى قوم لم يبخلوا بشيء في سبيل الحصول على المعرفة قبل أن يعطوها لغيرهم». وصمت المتكلم قليلاً كأنه يستريح من العناء الذي ناله ثم استمر قائلاً: «إن سبيل التعليم هو أن يلحق الطالب بالمعلم حيث كان. أتدرون لماذا نبه شأن أمثال التبريزي والمعرّي وغيرهما؟ اسمعوا أقص عليكم حكاية الخطيب التبريزي وما ناله في سبيل العلم. حصلت له نسخة من كتاب الأزهري المسمى التهذيب في اللغة وأراد تحقيق ما في الكتاب، فدل على المعرّي، فجعل الكتاب، وهو في مجلدات، في مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة، ولم يكن له ما يستأجر به مركوباً وسار أربعين يوماً حتى وصل معرة النعمان. وقد نفذ العرق من ظهره إليها فأثر فيها البلل. هذا أيها السادة هو المثال الذي يجب أن نحتذيه في طلبنا العلم». وأعجب الحاضرون بقصة التبريزي، الذين كانوا يعرفونها قبلاً مثل الذين كانوا يجهلونها، فدوى المكان بتصفيقهم.

وأقرّ المجلس بعد حديث طويل أنه لا يجوز لمن لم ينل من العلم حظاً وافراً ومن لم يتحمل المشقة في سبيله ولم يأخذه عن أئمته أن يتولى التعليم.

وتبين لنا أن إعداد المعلمين كان دائماً موضع عناية خاصة، ذلك لأن المهم في حياة المدرسة العربية كان دائماً المعلم أو الأستاذ. فلم يكن طلبة العلم يعنون بأن يقولوا إنهم تعلموا في مكان كذا، ولكن أنهم قرأوا على الشيخ الفلاني وأجازهم الإمام الفلاني. ومن ثم كان الأستاذ هو عماد الحياة الفكرية، فمن قلت بضاعته كسدت سوقه وحكم الناس عليه بالهجر.

وتناول الحاضرون بعد ذلك العلوم التي يجب أن يلقّنوها طلابهم. وهنا ظهر اتجاهان يكادان يكونان متناقضين. فقد أصر القلائل على الاكتفاء بالقرآن الكريم وعلوم الشرع واللغة والشعر والأخبار في المدارس. وقال كثيرون بوجوب ضم حساب الهندسة والجبر والمقابلة، لتكون معرفة الطالب وافية بالعلوم العقلية والنقلية، على أن

يختار بعدها الطالب سبيله في التخصص، فيكون عالماً في الشريعة أو في اللغة أو راوية الأخبار أو طبيباً أو مهندساً. وهذه تتم كلها في المدارس الفنية. فالبيمارستان يلجأ إليه طالب الطب، ومدرسة الهندسة، كتلك التي في دمشق، يقصدها طلاب العمارة ومن إليهم. وقد تكلم في الموضوع كثيرون وطال التحدث فيه. وأخيراً تغلب أصحاب الرأي العلمي على الآخرين فأقرت الجماعة وجوب تعليم المباحث المختلفة في دور العلم حتى لا يبلى شبابنا بمعرفة ناقصة.

هنا أعلن صاحب الصوت الذي افتتح الكلام بأن آخر ما بين أيدي المجتمعين هو بحث العلاقة بين المعلم وطلابه. وعندها تقدم ثلاثة لمعالجة الموضوع. فتكلم الأول عن أجرة المعلم، وتكلم الثاني عن طريقة التعليم، وتحدث الثالث عن العلاقة الشخصية بين المعلم والمتعلم.

فأمّا الأول فقد أشار إلى أن المعلم بحاجة إلى كسب العيش إلا من توفر له من المال ما يكفيه. وقد أكد أن الشرع لم يمنع أخذ الأجرة على التعليم ولو على تعليم القرآن. فقد سئل الغزالي في ذلك فقال إنه للمدرس أن يأخذ ما يكفيه ليتفرغ قلبه عن المعيشة ليتجرد لنشر العلم، وأشار المتكلم إلى أن هذه القاعدة النظرية طبقت عملياً في الأندلس وفي المشرق. فضلاً عن أن المدارس النظامية التي كانت تقوم الحكومات عليها كان يعطى فيها للمعلمين مرتبات. وقد أعطيت المرتبات هذه حتى للطلبة في المستنصرية وغيرها من المدارس. ويظهر من هذا كله أن لا بأس بأخذ الأجرة إذا دعت الحاجة إليها.

وأمّا الثاني فقد تناول بحثه أساليب التدريس وطرق التعليم، فأشار إلى أن لكل صاحب صناعة طريقة خاصة به. ولما كان التعليم من جملة الصنائع فإنه أصبح لكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها. فقد يلجأ الأستاذ إلى دروسه فيذكرها دون أن يتلعثم، وهو النوع الصالح للمعاهد العلمية المتقدمة، وقد يفضل المدرّس أسلوب المناقشة والمناظرة. والمهم في هذا كله هو أن يكون الشرح أولاً على سبيل الإجمال، يراعى فيه استعداد الطالب، ثم يستوفى الشرح والبيان بحيث يخرج عن الإجمال، فإذا تم له ذلك عمد إلى التفصيل الدقيق الذي لا يترك عويصاً ولا مبهماً ولا مغلقاً إلا وضحه وفتح مقفله. أما الطالب فعليه أن يعنى بأمرين: الأول أن يحفظ ما أعطيه ويعيه، ثم عليه أن ينمي الملكة العلمية. فإن الطالب الذي تكون عنايته بالحفظ أكثر من عنايته بتحصيل الملكة لا يحصل على طائل من ملكة التصرف في العلم ولا يحصل شيئاً من الفن. والمقصود من العلم أن يصل المتعلم إلى ملكة الاستخراج والاستنباط وسرعة الانتقال والاستحضار.

وتكلم الثالث عن وظيفة المعلم المرشد بالنسبة إلى طلابه، وكان هذا الرجل ممن تأثر بالغزالي إلى حد كبير، فبعد أن أمن على أقوال زميله عن الأسلوب المؤدي إلى

خلق الملكة العلمية قال: «عندما أقلب صفحات الكتب التي حض فيها أصحابها على طلب العلم أجد فيها نصائح كثيرة تدور حول ما يتوجب على المتعلم والمعلم. ولكنني أرى أن نظرات الإمام الغزالي في هذه المسألة هي التي يجب أن تكون شعارنا نحن الذين نريد أن نشرف على تربية نشئنا وتقويمه. ذلك لأن هذا الإمام كان يرى أن التلاميذ بالنسبة إلى المعلم أبناؤه، فعليه أن يجريهم مجراهم. فإذا صح ذلك فليس يجوز للمعلم أن يدع من نصح المتعلم شيئاً وعليه أن يتأكد من اتقانه العلوم الجلية قبل الانتقال إلى العلوم الخفية. فإذا تعرَّض المتعلم لسوء الأخلاق كان زجره بطريق التعريض والرحمة لا يصرخ ولا يوبخ، وقد خشي الغزالي إن يعمد المتكفل ببعض العلوم تقبيح العلوم الأخرى فنهى عن ذلك. وكان الغزالي يكره القائلين دون أن يعملوا بالقول، فأوصى المعلمين بوجوب موافقة القول للعمل فلا يكذب القول الفعل. وكان هذا الرجل شديد العناية بأن ينشأ الصغار من الطلاب خاصة تنشئة صحيحة فأوجب على معلميهم أن يمنعوهم من التنعم والزينة وأن يعودوهم الخشونة في المفرش والملبس والمطعم».

انتهى الثالث من خطابه، وبذلك انتهت أعمال المؤتمر. وأخذ الحاضرون يخرجون من القاعة وقد بحثوا شؤونهم بحثاً وافياً نزيهاً.

وخرجت وصاحبي فيمن خرج، ولما صرنا في الشارع اتفقنا على أن هذه المباحثات البعيدة عن الهوى تؤدي ولا شكّ إلى فهم الأمراض الاجتماعية ومعرفة طرق الإصلاح.

ورأينا في الشارع قوماً يتراكضون فسألنا ما الخبر؟ فقيل لنا: إن تيمورلنك على أبواب دمشق وإنه مزمع أن يحاصر المدينة حتى تدفع له غرامة كبيرة، فقلنا في أنفسنا عاد الغريب يزعج بلادنا وأبناءنا وشعبنا، ليته يتركنا لنصلح شؤوننا. ولكن ليت لم تنفعنا، فإن تيمور لم يلبث أياماً حتى دخل المدينة وفعل فيها الشر الكثير وتركها طعمة للنهب والسلب. لكن آثار مؤتمر المعلمين تغلبت حتى على غزوة تيمور.

٥. كتّاب

انقطع صاحبي عني فترة طويلة من الزمن، فلم تصلني أخباره ولم أدر ماذا جرى له. مرت على ذلك سنوات حتى هبطت قاهرة المعز في شتاء سنة ٨٠٠ للهجرة، وحللت في أحد الفنادق الكبيرة. وكنت في أحد الأيام جالساً في غرفتي أفكر بشؤوني فخطر ببالي صاحبي، فتمنيتُ على الله أن أقابله إن كان في مصر. وما كدت أعرض لهذه الأمنية حتى شعرت بدافع يقودني إلى الخروج، فلبيت نداءه. ووجدتني بعد ساعة أسير في شوارع القاهرة على غير هدى حتى وصلت مسجد السلطان حسن. فراعتني ضخامته، حتى لكأنني أراه لأول مرة، فدخلته لأمتع نفسي برؤية هذا الأثر النفيس. فلم

أكد أصعد درجاته الخارجية حتى رأيتني وجهاً لوجه مع صاحبي. وحسبتني، بادىء ذي بدء في حلم، لكنني أدركت أنني في يقظة. فسلَّمنا وتحدثنا قليلاً ونحن وقوف، ثم قادني إلى داره فدخلتها، فإذا بها رحبة واسعة فيها فرش جميل وأثاث أنيق. وقد لفتني مظهر صاحبي قبلاً، فأنا لم أكن أراه إلا مشعث الرأس أغبر الوجه تبدو عليه أمائر التنقل والأسفار. أما اليوم فإنه يرتدي طيلساناً واسع الأردان ويعتمّ بعمة أنيقة، وثيابه نظيفة ويفوح منه بدل رائحة التراب عبير المسك. لكن شوقي إلى صاحبي وتطلعي إلى معرفة أخباره منعاني من التساؤل عن مظهره.

استقر بنا المجلس في داره فدعا بشراب هو عصير فواكه ساخن. وأخذ يسألني عن حالي وغايتي وقصدي وخبري حتى استقصى كل ما يريد. وكان الظلام قد هبط على المدينة فاستأذنت صاحبي فأقسم ألا أقمت عنده ضيفاً ما دمت في مصر. وكنت أحب ذلك، فلم أمانع. وجاء بالطعام المنوع الأشكال المتعدد الألوان فأكلنا شبعنا ثم تنقلنا وتفكهنا بالفاكهة والأخبار. فلما تم ذلك كله، نظرت إلى صاحبي وفي نفسي سؤال. لكنه لم يمهلني. فقد بدأ هو الحديث بقوله: «لعلك تريد أن تعرف سر ما أنا فيه من نعمة»؟ فابتسمت ولم أقل شيئاً. فصمت لحظة ثم قال: «أنا يا أخي اليوم كاتب في ديوان الإنشاء. ولي مرتب شهري قرابة ثلاثين ديناراً». ولم أكتم أنني استغربت ذلك. ولكن صاحبي طيَّب خاطري بقوله «إن العمل في ديوان الإنشاء عمل كبير الخطر، وأنا إنما قبلته لأنني أستطيع عن طريقه أن أقوم بخدمة لبلادي وأمتي. فلا تحسبني أنني موظف قبلت العمل لأنني لا أملك شروى نقير، فأنت تعرف أنني بحمد الله كنت أحصل من تجارتي ما لا يقل عن أجري. ولكن لي حكاية تتعلق بعملي في الديوان لعل في قصها عليك تطييباً لخاطرك». فقلت هات، فاعتدل صاحبي في جلسته وحدثني قائلاً:

«أود قبل كل شيء أن أذكرك بالعمل الذي يقوم به ديوان الإنشاء بالنسبة للدولة والإدارة الحكومية، فلعلك لانقطاعك إلى كتب الفلسفة نسيت ما في الدنيا وغيرها من شؤون. فاعلم يا أخي أن صاحب الديوان تمر من تحت يديه الأمور التالية: التعيين والتوقيع والإشراف على الكتب والعناية بالبريد والحمام واختيار العيون الذين يوافون السلطان بأنباء أعدائه وتعهد المناور والمحرقات في أنحاء المملكة. فأنت ترى من هذا أنه لا يستطيع أن يغفل شيئاً من وسائل توصيل الأخبار إلى الحكام أو الحصول على الأخبار منهم. فإذا وثقت من خطر هذا الديوان انتقلت بك إلى رواية القصة المتعلقة بعملي هنا». فأمنت على كلامه وعندها استمر في حديثه: «كنت في إحدى سفراتي بين غزة والإسكندرية في مركب للجنويين. وكان فيه عدد كبير من الركاب، على عادة هذه المراكب. فلفتني منهم ثلاثة لم يكونوا في هيئة من التجار ولا زي الحجاج، ورأيتهم ينفقون عن سعة، فأخذت نفسي بمراقبتهم. وفي ليلة صفا جوها وطاب هواؤها خرجت إلى ظهر المركب لأستمتع بالمنظر فرأيت الثلاثة في زاوية

يتهامسون. فاضطربوا لظهوري لكنهم لم يلبثوا أن عاودهم هدوؤهم وعادوا إلى حديثهم. فلعلهم اطمأنوا إلى أنني لا أفهمهم. وهنا كان خطأهم. فإنني قد تعلمت شيئاً من هذه اللغة لكثرة ما سافرت وتنقلت، وفهمت من حديثهم أنهم عيون للأجانب يريدون أن يهبطوا بلادنا ويتعرفوا شؤونها وأمورها. فصمت وراقبتهم كثيراً دون أن يلحظوا ذلك، حتى انتهت الرحلة فنزلنا في الإسكندرية وعرفت أي فندق قصدوا. فأسرعت إلى صاحب الثغر فأخبرته بالأمر فقبض عليهم وبعث بهم إلى عاصمة السلطنة وجئت معهم. وهناك نظر في أمرهم فثبتت التهمة عليهم وحوكموا وسجنوا».

«وكان من الطبيعي أن أتصل بصاحب ديوان الإنشاء لأنه المعني بالعيون والجواسيس وما يحملون من الأخبار. وقد تحدثنا كثيراً حول أنواع مختلفة من الأعمال التي يجوز أن تتم في الديوان. وعندها عرض علي أن أعمل في ديوانه. وقد ترددت بادىء ذي بدء لأنني لا أريد أن أتقيد بمكان وزمان وعمل. فأنا أحب التنقل والسفر والحرية. لكن صاحب الديوان قال لي على سبيل الإقناع «أنت تعرف لغة أجنبية وبذلك تستطيع أن تتعرف إلى هؤلاء الناس الذين يصلون إلى بلادنا بحجة الرحلة والحج وهم عيون للعدو علينا، وقد كثر عددهم مؤخراً. وأنت كثير الأسفار، لذلك تعرف الطرق والأماكن فيمكنك أن تؤدي لنا خدمة كبيرة في شؤون البريد، فليس يسيراً علينا أن يكون في ديواننا من يعرف هذا كله. وأنت بعد كاتب بليغ، فنحن نأمن زلة من قلمك، ولا ريب في أن اشتغالك بالتجارة وتنقلك أطلعاك على شؤون كثيرة للصناعة وموادها وأسعارها ورسومها وجماركها وجعلها، ولذلك تتمكن من الإشراف على ناحية من نواحي المالية في ديواننا». وكانت كلمات صاحب الديوان هذه مغرية فوعدته بالتفكير، وبعد أن أعملت الفكرة قبلت، فما يجوز لأمرىء أن يتقاعد عن أداء واجب لقومه وبلاده. وها قد مرت علي أربع سنوات وأنا أعمل في هذا الديوان. وأؤكد لك أن العمل فيه لذيذ».

كان الليل قد امتدّ بنا ولكني لم أشعر بتعب، ولم يشعر صاحبي، فعدنا إلى التحدث. وأردت أن أعرف عن الديوان أشياء وأشياء فسألت صاحبي فأجاب وما بخل. واتفقنا على أن الكتابة بحد ذاتها صناعة عقلية تتفق والميول الأدبية. فمادتها ألفاظ يتخيلها الكاتب ويضم بعضها إلى بعض فتصور صوراً تامة هي بنت أفكاره، وغايتها انتظام جمهور المعاون والمرافق العظيمة العائدة بالفائدة الجسيمة. ورأينا أن الملك تنتظم أموره في ثلاثة أشياء: أولها، رسم ما يجب أن يرسم للعمال والمكاتبين. وثانيها، استخراج الأموال من وجوهها واستيفاء الحقوق السلطانية فيها. وثالثها، تفريق الأموال في مستحقيها من أعوان الدولة وأوليائها. وهذه الأعمال كلها يقوم بها الكتّاب، ولا تتم بدون كتاب ماهرين.

وسألت صاحبي عن الصفات المرجوّة فيمن يتولى عملاً من أعمال الكتابة

الخطيرة، فأطرق صاحبي كأنما يستعيد شيئاً مر به، ثم قال: «يذكرني سؤالك هذا بحادثة مرت لي في الديوان. ذلك أن أحد كبار المشتغلين بصناعة القلم ومن أصحاب العلم الواسع تقدم للعمل في الديوان، ولكن حالت صفاته الخلقية دون قبوله. فالعمل في الديوان يتطلب صفات خاصة، فمنها أن يكون عدلاً. فالعدالة لازمة لمن يحكم في أرواح الناس وأموالهم. ويجب أن يتوفر في الكاتب الرأي الجزل والعقل، فيعرف كيف يضع الأمور في مواضعها والمسائل في حدودها. وعليه أن يكون كفوءاً لما يتولاه. فإن العاجز يدخل الوهن في أمر قومه ويدخل الضرر على المملكة. هذا فيما يخص صفاته العقلية والخلقية، وثمة صفات عرفية يجدر به أن يتحلى بها، كدقة الحس وجودة الحدس وحلاوة اللسان والشمائل وملاحقة الزي ونظافة المجلس ورقة الحاشية. وإلى هذا كله فإنه ينتظر منه أن يكون حسن السيرة شريف المذهب يعتمد تقوى الله في الاسرار والإعلان، ويضمر صلاح النية لما يتولاه من أمور السلطان وقصد النفع العام، ويتجنب الريب ويتنزه عنها ويلزم العفاف والصيانة فيما يتولاه من أعمال السلطان. وقد يعرض للكاتب أن يعاشر من هم فوقه ومن هم أكفاؤه ومن هم دونه. فعليه أن يعرف لكل عشير حقه وأن يضع علاقاته معهم في مواضعها، فيكتم السر إن بيح له به ويشكر عند الشكر ويفي عند الحاجة ويتجنب الإدلال. فأنت ترى من هذا أن من يكتب في الديوان يجب أن يتحلى بالكثير من الخلال الفاضلة والصفات الطيبة».

هممت بالاكتفاء، ولكن صاحبي أصرّ على أن نتابع الحديث. فهذه ليلة قد لا تعود. فقد يشغل صاحبي أياماً بلياليها في عمله إذا تأزمت الأمور واشتدت، سيما وأن العدو محيط بهم من نواح كثيرة، فالتتر يهددون شمال سورية والإفرنج يهددوننا من البحر. فقبلت من صاحبي طلبه، وجدت عليه بسؤال عما ينتظر من الكاتب أن يعرفه حتى يتسنى له أن يعين في عمل من الأعمال في ديوان الإنشاء. فأجاب صاحبي: «الكتّاب على أنواع وكل نوع منهم بحاجة إلى نوع من المعرفة يتناسب مع عمله. فأعمال ديوان الإنشاء على ما نعرفها اليوم على سبعة أنواع كلها كتابية: فثمّة كاتب ينشىء ما يكتب في المكاتبات والولايات، وهناك كاتب يتولى مكاتبات الملوك عن ملكه. وثالث يكتب إلى أهل الدولة وكبرائها وولاتها ووجوهها. ورابع يكتب المناشير والكتب اللطاف والنسخ. وخامس عمله أن يبيض ما ينشئه المنشىء. وسادس يتصفح ما يكتب في الديوان. وسابع يكتب التذاكر والدفاتر، وأنت ترى التفاوت بين هذه الأنواع. ومن ثم كان ما يجب أن يعرفه كل واحد يختلف اختلافاً كبيراً عما يعرفه الآخر».

خشيت أن يصمت صاحبي فأخجل من تكرار السؤال فلا أصل إلى بغيتي. لكنه لم يصمت إلا ليستريح قليلاً، ثم عاد إلى الكلام فقال: «على أنه ثمة بضعة أمور يجب أن يعرفها جميع الكتاب، كأن يعنى كل بناحية خاصة من نواحي حياته. لكن الواقع أن صاحب ديوان الإنشاء في هذا البلد يجب أن يحيط كل عامل في ديوانه بشعاب

المسائل ليتمكن من القيام بأي عمل يعهد إليه به، دون أن يضطرب أو يحار، وهو في هذا يجري على سنن السلف الصالح.

«فابن قتيبة مثلاً يجب أن تتوفر في الكاتب معرفة أمور اللغة والتصريف والنظر في الأشكال لمساحة الأرضين والزوايا والمثلثات والمربعات، ويجب، على رأيه، أن تمتحن معرفة الكاتب بالعمل في الأرضين لا في الكتابة بالدفاتر. ومن الضروري أن يعرف الكاتب إجراء المياه وحفر فرض المشارب وردم المهاوي ومجاري الأيام ودوران الشمس وحال القمر ونصب القناطر والجسور والنواعير، وإلا نقصت كتابته. أما الوزير ضياء الدين بن الأثير فزاد على ذلك بأن صاحب صناعة الكتابة يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء، والماشطة عند جلوة العروس، وما يقوله المنادي في السوق على السلعة.

«ومن الواضح أنه ثمّة فرق بين استعمال الكاتب لأنواع المعرفة. فاللغة والبيان سبيله في كل أمر. فهو محتاج إليهما بطريق الذات. أما العلوم الأخرى فإنما يحتاج إليها بطريق العرض كالطب والهندسة والهيئة ونحوها من المباحث. فإذا تناول عمله العناية بشؤون الجند أو الرماة أصبح من الضروري أن يعرف مصطلح رماة البندق وما إلى ذلك.

«إلا أنه مما لا ريب فيه أن الكاتب يجب أن تكون له معرفة بالعلوم الشرعية، لأنها قوام الدولة».

كان الليل قد انتصف أو كاد، وكنا قد أدركنا النعاس، ولكن قبل أن نأوي إلى الفراش إذا بطارق ليل. ففتح صاحبي له فدخل شاب يحمل بين يديه دفاتر كثيرة. فقلّبها صاحبي وأُعجب بتنظيمها ثم التفت إلي وقال: «كنت أعتزم أن أصحبك غداً إلى الديوان لترى بعض ما يعمل فيه، ولكن جزءاً من الديوان نفسه جاء إليك. فهذا الكاتب كلف أن يتم عملاً كان قد تركه سلفه الذي أرسل إلى دمشق قبل أسبوعين، وها هو قد أتمه وحمل الدفاتر إلي لأراها. فانظر».

قال صاحبي هذا وبسط بين يدي الدفتر الأول فإذا به يحوي ألقاب الولاة وغيرهم من ذوي الخدم وأسماءهم وترتيب مخاطباتهم. ثم طواه وفتح الثاني فإذا فيه تذاكر تشتمل على مهمات الأمور التي تنهى في ضمن الكتب وبذلك يسهل الرجوع إليها بدل التفتيش عنها في الأضابير. فلما انتهينا إلى الدفتر الثالث وجدت فيه الحوادث العظيمة مما يجري في المملكة. ثم جاء دور الدفتر الرابع فإذا به يحوي فهرساً للكتب الصادرة والواردة مفصلاً مسانهة ومشاهرة ومياومة. وكان في الدفتر الخامس فهرست للإنشاءات والتقاليد وما إليها. ولكن لما وصلت إلى الدفتر الأخير وجدت شيئاً أثار دهشتي حقاً. فقد كان فيه فهرست لترجمة الكتب التي ترد على الديوان بغير اللسان العربي من الرومي والفرنجي وغيرهما. ومع كل كتاب معناه واسم مترجمه.

أُعجبت بهذا الذي رأيت، فنظر إلي صاحبي مزهواً وقال: «بمثل هذه التنظيمات استطاع ديوان الإنشاء هنا أن تضبط أموره ومن ثم أمور الدولة».

فقلت لصاحبي: «لقد كنت أعرف من قبل أن ديوان الإنشاء له قيمة في حياة الدولة وأنه له نظام يسير عليه، لكنني ما كنت أعرف أنه بلغ هذه الدرجة من الدقة. فما أكبر الفرق بين نظام الديوان البسيط كما وضعه عمر بن الخطاب وبين هذا التركيب والتعقيد الذي نراه في ديواننا هذه الأيام».

ابتسم صاحبي كأنه أراد بابتسامته أن ينال مني لجهلي، على زعمه، ثم قال: «لعلك لم تنسَ أنه قد مرت قرابة ثماني مائة سنة على ذلك العهد، وقد اختبر الناس من شؤون الدولة والحكم الشيء الكثير. ولا يجوز أن تذهب اختبارات الناس عبثاً. فدواوين دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة وتونس كلها كانت لها أنظمة وقوانين، وهذا ابن مماتي قد كتب كتاباً سماه قوانين الدواوين. والذي أريد أن أذكرك به هو أن تنظيم ديواننا هو خلاصة لكل ما عرفه هؤلاء الحكام وزبدته».

جمع صاحبي الدفاتر ليناولها للشاب الذي كان هنا فسقط منها واحد على رجلي فآلمني ومددت يدي أتحسس موضع الألم فوجدت رجلي متخدرة ووجدتني مكباً على مكتبي وقد غلبني النعاس وأمامي كتاب «صبح الأعشى» للقلقشندي فقرأت فيه:

«لما كان أرباب الأمور وولاتها من الخلفاء فمن دونهم ينقدون ما يكتب به الكتّاب عنهم وما يرد عليهم من الكتب ويناقشون على ما يقع فيها من خطأ أو يدخلها من خلل ويقدمون الفاضل ويرفعون درجته ويؤخرون الجاهل ويحطون رتبته. كان الكتّاب يتبارون على اقتناء الفضيلة ويترفّعون عن أدنى رذيلة ويجهدون في تحسين ألفاظهم وتزيين مكاتباتهم.

«أما الآن فقد انعكست القضية. فقدم من غلط بهم الزمان وغفل عنهم الحدثان واستولت عليهم شرة الجهل ونفرت منهم أوانس الفضل وصار العالم لديهم حشفاً والأديب محارفاً والمعرفة منكرة والفضيلة منقصة والصمت لكنة والفصاحة هجنة اجتنبت الآداب اجتناب المحارم وهجرت العلوم هجر كبار المآثم».

قرأت هذا وفكرت ثم قلت في نفسي «ما أشبه الليلة بالبارحة».

٦. عزلة الإمام الغزالي ببيت المقدس

جاءني صاحبي وقد قارب وقت أذان العصر، وقال دون أن يجلس: «هيا بنا نحضر حلقة الوعظ ودرس التفسير في المسجد الأقصى». وكان من عادتنا، إذا جاء رمضان، أن نواظب على حضور هذه الحلقات لما فيها من علم وموعظة. فقلت له: «استرح قليلاً، فالوقت أمامنا بعد متسع». ولكن صاحبي أبى أن يجلس وألح علي بالذهاب حالاً، فقد بلغه أن حلقة الوعظ حظيت اليوم بإمام كبير، ولا شك أن الزحام سيكون

شديداً، لأن الكل حريص على أن يفيد من علمه. ورأيت صاحبي، وهو الهادىء عادة، مضطرباً راغباً في الإسراع، فأسرعت بارتداء ملابسي وخرجنا معاً. وقد حدث ما توقعه صاحبي، فلم نكد ندخل ساحة الحرم حتى رأينا الناس يتراكضون نحو إيوان المسجد الكبير، فأسرعنا الخطى، ويسر لنا هذا أن نجلس في الصفوف الأمامية. لكن الإمام الكبير لم يكن قد دخل المكان، فأخذ الناس يتحدثون عنه وعن غزارة علمه. وكان إلى جانبنا رجل عليه سيماء المهابة والجلال، يزينهما هدوء. فالتفت إليه وسألته إن كان يعرف هذا الإمام الذي ننتظر، وهذا العالم الكبير الذي سيحدثنا. فأجاب أنه عرف عنه الكثير. فهو أبو حامد الغزالي، ولد بطوس ودرس بالنظامية ببغداد فكان له فيها ثلاثمائة من الطلاب. ثم مالت نفسه إلى ترك العمل هناك والاعتزال للتعرف إلى الطرق العملية للصوفية فرحل إلى دمشق ثم جاء بيت المقدس فكان يدخل منارة جامع دمشق ويقضي فيها سحابة نهاره. أما في بيت المقدس فكان يدخل قبة الصخرة، فيغلق عليه بابها ساعات طويلة يتأمل ويذكر، وقد مرت عليه شهور وهو على هذه الحال، لكنه لم يعقد حلقة وعظ ولم يحضر له الناس درساً، ولا يعرفه إلا القلائل ممن يثابرون على المجيء إلى هذه الأماكن المقدسة.

ثم ظهر المتحدث

بدأ الإمام حديثه بذكر الله والثناء عليه، ثم قرأ الآية الكريمة «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام» وروى أنه لما سئل النبي الكريم عن معنى قوله تعالى هذا أجاب: «هو نور يقذفه الله تعالى في القلب». فقيل: وما علامته، فقال: «التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود». فلما انتهى من رواية الآية الكريمة والحديث الشريف انتقل إلى تفسيرهما. وكان أساس تفسيره اختباراته الشخصية. فإنه، على ما فهمنا منه، سلخ زمناً طويلاً من عمره وهو يقاسي الصعوبات في سبيل استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق. وقد خاض لجة هذا البحر خوض الجسور لا خوض الحذور، وتوغل في مدلهمه وتهجم على كل مشكلة وتقحم كل ورطة. وقد كانت المشكلة الأولى التي عرضت له هي تخليص حقيقة الفطرة الأصلية من حقيقة العقائد العارضة. ففتش عن علومه ومعرفته فشك فيها. شك في المحسوسات، وشك في المعقولات، وشك في وسائل هذه وتلك. وانحصرت أصناف طالبي الحق عنده في أربع فرق هم المتكلمون والباطنية والفلاسفة والصوفية، وتناول أصحاب هذه الفرق وذكر كيف درس أبحاثهم وعرف طرائقهم، وكان المتكلمون أول من هاجمهم. فقد طالع كتبهم فصادف علمهم غير واف بمقصوده، فتركهم، وانتقل إلى الفلاسفة.

كان الغزالي إلى الساعة يتكلم بهدوء، فلما وصل إلى الفلاسفة أخذته حماسة الخصومة. فقد كلفته دراسة الفلسفة كثيراً من الجهد، ذلك أنه أقبل عليها وهو مبتل بالتدريس والإفادة ببغداد، فكان يختلس من أوقات فراغه، على قلتها، ساعات يقرأ

فيها كتبهم، فوجدهم أنهم موصوفون بالكفر مشمولون به، على اختلاف أصنافهم. أما علومهم فهي علوم حسية سواء في ذلك رياضياتهم ومنطقياتهم وطبيعياتهم وإلهياتهم.. ولذلك يجب تحذير الكافة من قراءة كتبهم والعمل على الرد عليهم. وذكر المحدث أنه ألّف «مقاصد الفلاسفة» و «تهافت الفلاسفة» ليثبت بطلان آرائهم وسقم تفكيرهم.

وأما التعليميون فلم يهتم بهم كثيراً، فهم على رأيه، لا حاصل عندهم. واكتفى بأن أشار على من يريد أن يعرف بطلان رأيهم وزيفه أن يقرأ ما كتبه هو ضدهم من أمثال المستظهري وحجة الحق والجداول والقسطاس المستقيم.

كان الجهد قد بلغ من محدثنا درجة كبيرة، فصمت دقيقة أو اثنتين كأنه يستعيد نشاطه، أو يراجع ذاكرته، ثم استأنف كلامه، وكأنه أحس أن المستمعين شعروا أنه بعد عن الآية والحديث وتفسيرهما، فاستماحهم عذراً على الإطالة، وذكّرهم أنه إنما يفسر عن شعور واختبار شخصي لا عن علم تقليدي. لكن الحاضرين لم يملّوا لأن كلامه كان طلياً عذباً، وكان يتدفق في حديثه كالسيل، ذلك لأنه يحدث عما مر به ولا ينقل شيئاً مما قاله السلف، ولو أنه صالح.

عاد إلى حديثه فقال: «ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل. وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله». ووصف كيف أنه قرأ كتبهم واطلع على كنه مقاصدهم وحصل ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعليم والسماع وأدرك أنهم أرباب الأحوال وأصحاب الأقوال، وأن الذوق والحال هو سبيلهم إلى العلم. وأدرك الغزالي، على ما اعترف هو، أن أسس الإيمان عنده ثلاثة حصل عليها بالشعور والحس وهي الإيمان اليقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر.

وهنا أقبل الغزالي على الحاضرين يصف لهم كيف تصادمت في نفسه رغباته القلبية برغبات الدنيا، وكيف تشاد الزهد والحياة الناعمة في أعماق روحه. فهو يطمع في سعادة الآخرة ويعرف أن التقوى وكف النفس عن الهوى سبيلها، ويدرك أن رأس ذلك كله التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكنه الهمة على الله، وهذا لا يتسنى له إلا بالإعراض عن الجاه والهرب من الشواغل والعوائق. يعرف هذا كله ويدركه لكنه يلتفت حوله فإذا به منغمس في العلائق، وإذا بأحسن أعماله وهو التدريس يشغل وقته فيه بعلوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة. بل هو يبحث عن نيته في عمله فإذا هي غير خالصة بل باعثها ومحركها طلب الجاه والشهرة وانتشار الصيت وذيوعه. فإذا قابل الرغبة في سعادة الآخرة وطرقها بحاله الواقعية رأى نفسه على شفا جرف هار. ويخطر له أن يخرج من بغداد ويعتزل الناس ويفارق تلك الأحوال، ولكن الدنيا تغريه فيقدم رجلاً ويؤخر أخرى. فإذا صدقت رغبته في طلب الآخرة بكرة

حملت عليها جند الشهوة عشية، فتفتر الهمة. فكانت شهوات الدنيا تجذبه إلى المقام، ومنادي الإيمان يدعوه إلى الرحيل. وينعقد منه العزم على السفر الطويل ليتخلص من رياء علمه وتخييل عمله. والشيطان يهمس في أذنيه: هذه حال عارضة إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالي من التكدير والتنغيص والأمن المسلم الصافي من منازعة الخصوم، ربما التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة.

عاد إلى الصمت يستجمع قواه. فقد كانت كلماته تخرج من أعماق نفسه، وكأنها قطع من قلبه ودمه. ذلك أنها كانت تصور جهاد نفسه في سبيل الحصول على هذا النور الذي يقذفه الله في قلب المرء. فلما عادت إليه قوته عاد إلى الحديث، فروى كيف دام هذا التجاذب في نفسه بين شهوات الدنيا ودواعي الآخرة ستة أشهر، وكان من نتيجته أن أقفل على لسانه حتى اعتقل عن التدريس. فكان يجاهد نفسه أن يدرس يوماً واحداً تطييباً للقلوب المختلفة إليه، فكان لسانه لا ينطق بكلمة واحدة حتى أورثت عقلة لسانه حزناً في قلبه، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب. فلا هو يستسيغ الثريد ولا تنهضم له لقمة. عندها صح عزمه على الخروج من بغداد وسهل على قلبه الإعراض عن الجاه والمال والأولاد. ولكن أين يتجه؟ وماذا يقول للناس؟ فهو يريدها عزلة خالصة لله، دون أن يعرف الناس لها سبباً. إن الشام بلد تصح فيه الوحدة والعزلة ولكن ليكن عذره أمام الناس أنه خارج إلى مكة، وفي نيته أن لا يعود إلى بغداد أو طوس. قال الغزالي: «ففارقت بغداد وفرَّقت ما كان معي من المال ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال. ثم دخلت الشام وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية. فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق فأغلق على نفسي باب المنارة. وها أنا هنا في بلدكم، أفعل مثل الذي فعلته بدمشق».

صمت المحدِّث مرة أخرى، وطال في هذه المرة صمته، حتى خشينا أن يكون قد انتهى، ونحن نريد أن نسمع منه بعد أشياء وأشياء. وكان الرجل قد أضناه الجهد الذي بذله في حكاية حاله، إذ استذكر مع الرواية ما كان قد مر به فعلاً، وساد المكان سكوت عميق حتى كأن الناس على رؤوسهم الطير.

خرج من أحد جوانب الإيوان الكبير صوت رنان، قال صاحبه: «شوَّقتنا يا سيدي، ثم وقفت بنا في منتصف الطريق، فهلا أخبرتنا بربك ما أفدته من الصوفية». فأومأ الإمام الغزالي إيماءة من يطلب الصبر قليلاً، ثم لم يلبث أن عاد يتم قصته. وكان هذا الجزء منها لا يقل روعة عما سبق. فهذا الغزالي المتصوّف يعلم يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى، خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق

وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لقد زادنا الغزالي بقوله «لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً. فإن جميع حركاتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوَّة. وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به».

وإذاً، فقد وصل الغزالي في خلوته وتصوفه إلى ما أراد، وشعر بالنور يقذف في قلبه، فأدرك الأمور إدراك ذوق وإيمان، بله العلم اليقيني. وجاءه ذلك من مجالسه الصوفية وسلوك سبلهم. ولكن وجه الطرافة في هذا الجزء من قصة الغزالي هو أن هموم الحياة لم تفارقه في هذه السنين، فحوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش كانت تغير في وجه المراد وتشوش صفوة الخلوة. فلم يصفُ له الحال إلا في أوقات متفرقة، لكنه كان كلما دفعته العوائق عن الخلوة عاد إليها مجدداً قوته.

ما كاد الغزالي يصل هذا الحد حتى سأله سائل عما ينوي أن يفعله في حياته الباقية، بعد أن طلب إلى الله أن يمد فيها. فاغرورقت عينا الإمام بالدموع ثم مسحها وأجاب سائله إجابة طويلة عرض فيها لخطته المستقبلة أو ما يرجوه في حياته. فقد تحركت فيه داعية فريضة الحج، فهو يعتزم أن يزور رسول الله ويستمد من بركات مكة والمدينة. وقد يعرج على القاهرة والإسكندرية ليستمع من علمائها وفضلائها. وهو يحس بجاذب يدعوه إلى الوطن، وهو إن عاد، وقد يعود، فسيعنى بنشر العلم ولكن على غير ما كان يفعله ببغداد. فقد أفاد من خلوته كثيراً، فرأى فتور الاعتقادات في أصل النبوة ثم في حقيقة النبوة ثم في العمل بما شرحته النبوة. وعرف أن أسباب ذلك كله ترجع إلى أن المشرفين على التعليم بعيدون عن الذوق والفهم الصحيح. واعتزم لذلك أن يكشف هذه الشبهة ويفضح أولئك المتفلسفين والمتكلمين والمتوسمين من العلماء. فما يجوز لمن يعرف مثل معرفته أن يقبع في جحره ويخلو ويعتزل الناس وقد عمَّ الداء ومرض الأطباء. وإذن فالغزالي سيشتغل بكشف هذه الغمة ودعوة الخلق إلى الحق. إن النور الذي قذفه الله في قلبه سيحاول أن ينشره هو في قلوب الناس.

كانت الشمس قد آذنت بالمغيب وآن للناس أن يهرعوا إلى بيوتهم انتظاراً لأذان المغرب. فما كاد ينتهي حتى أخذوا يخرجون زرافات ووحدانا وهم في تفكير عميق في هذا الذي سمعوا.

وطرق أذني دويٌّ هائل، فذعرت وانتبهت، فإذا هو مدفع السحور وإذا أنا قد غفوت على مكتبي، ففتحت عيني فوقعتا على «القسطاس المستقيم» و «تهافت الفلاسفة» و «المنقذ من الضلال» للإمام أبي حامد الغزالي.

العرب في جُزر البحر المتوسط

١ . الأسطول العربي في شرق المتوسط

لما احتل العرب بلاد الشام ومصر، في النصف الأول من القرن السابع للميلاد، انتزعوهما من الأمبراطورية البزنطية التي كانت شديدة العناية بالأسطول، باعتبارها أمبراطورية متسعة الرقعة التي تمتد على سواحل البحرين الأسود والمتوسط، وما يتداخل فيهما من خلجان ومضايق. وكان العرب آمنين من جهة البر، لقوة جيوشهم، واعتمادهم على معين لا ينضب للرجال الأشداء. لكنهم أدركوا، بعد الفتح بمدة، أن خطر الأسطول البزنطي لا يزال قائماً بالنسبة لهم، ولديار الشام ومصر خاصة. لذلك جربوا أن يقيموا لهم قوة بحرية توقف الهجمات، وتصد الخصوم، وتستطيع أن تحتفظ بالبلاد لهم.

وكان من حسن حظ الديار الشامية أن عين حاكماً لها معاوية بن أبي سفيان، الذي كان مفتح الذهن واعياً للخطر، عارفاً بقيمة البحر. وهو الذي اقترح على الخليفة عمر بن الخطاب أن يغزو قبرص ليتخذ منها نقطة ارتكاز بحرية في الدفاع عن الساحل الشامي. ولكن عمر أبى ذلك على عامله، فلما ولي الخلافة عثمان بن عفان، عاد معاوية إلى طلبه، وألحّ في الطلب، فأذن له الخليفة. فتعاون معاوية مع عبد الله بن أبي سرح، والي مصر، على إعداد هذه الحملة البحرية.

ومعاوية، الحذر اليقظ، كان يعرف قيمة الاستعداد والتنظيم في البر والبحر. لذلك نراه، وهو بعد أمير على الشام يصلح من شأن عكاء، ويتخذ منها دار صناعة للسفن، ويعدّها مأوى للأسطول. واتخاذ دار صناعة في عكاء، كان العمل الأول من نوعه في تاريخ العرب بعد الإسلام. ذلك أن هذا العمل سبق اتخاذ دار صناعة في مصر بخمس سنوات. فلما آلت الخلافة إلى معاوية ازداد بالبحر وشؤونه عناية. ومن هنا نراه يقيم مركزاً بحرياً آخر في صور. فلما جاء دور عبد الملك بن مروان، وهو خليفة أموي ثان كان شديد العناية بالتنظيم والإدارة، أصلح من شأن قيسارية، واهتم باللاذقية. وقد ظلت عكاء مركز دار الصناعة حتى بعد عبد الملك الذي نقلها إلى صور. والرواية العربية تقول بأن الخليفة هشام بن عبد الملك أراد أن يبتاع أملاك أحد سكان عكاء، فأبى ذلك، فغضب الخليفة على المدينة، ونقل دار الصناعة إلى صور. ولكن يخيل إلينا أن هذا السبب واهٍ. ولعل السر يرجع إلى حاجات أولية لازمة لدار الصناعة لم يكن

باستطاعة عكاء أن تقدمها في ذلك الظرف، فنقل العمل إلى صور. لكن دار الصناعة أعيدت إلى عكاء في أوائل الدولة العباسية. على أن ذلك لا يفهم منه أن صور فقدت دار صناعتها. فالرّحّالون والجغرافيّون يقولون عن صور في القرن العاشر للميلاد إنها كانت فيها دار لصناعة السفن، ومنها كان الخليفة يبعث بسفنه الحربية ضد البزنطيين. ومثل ذلك يقوله بعض من تأخر عنهم.

ولما استولى ابن طولون، حاكم مصر، على الأجزاء الجنوبية من الساحل الشامي، اهتم بعكاء اهتماماً خاصاً. وقد روى المقدسي، وهو مرجع موثوق به لجغرافية الشام في أواخر القرن العاشر الميلادي، أن ابن طولون، وسّع الميناء، وأحاطها بأبراج ضخمة، على نحو ما كانت عليه صور. وكان من الضروري أن تبنى أجزاء من الأسوار في البحر، وهذه كانت مهمة هندسية صعبة. لذلك عجز عنها كثير من البنائين، حتى تم الأمر لابن طولون على يدي أبي بكر، وهو جد المقدسي الجغرافي. فأخذ جذوع الجميز، فكان يركزها على الرمل، ويبني فوقها، ويتركها حتى تغور في الرمال، ثم يعاود العملية، إلى أن تم له أساس متين أقام عليه البنيان. وقد سر ابن طولون بذلك، فنفح البنّاء ألف دينار مكافأة له. ووضع ابن طولون سلسلة ضخمة تربط بين البرجين القائمين على طرفي الميناء، كانت تسحب مساء، فتكون حاجزاً دون تسلل السفن المعادية إلى الميناء. وقد كان لكل من بيروت وصور مثل هذه السلسلة. وظلت السلسلة في الموانىء الثلاث إلى قبيل الحملات الصليبية.

على أن هذه الأماكن لم تكن الوحيدة التي رابط فيها الأسطول أو قطع منه. فقد كانت الموانىء الممتدة من غزة إلى الشمال محطات لهذا الغرض، على تفاوت في اتساعها. وقد أشرنا من قبل إلى بعضها، فلنضف الآن طرابلس التي كانت لها ميناء تتسع لنحو ألف من السفن. ومن المراكز التي يجدر بنا الإشارة إليها طرسوس، التي كانت، على حد تعبير الجغرافيين القدامى، في الحد الفاصل بين الملك العربي والملك البزنطي. وقدتم إصلاحها وإعادة تحصينها في أيام الخليفة العباسي المهدي على يد الحسن بن قحطبة، الذي كان مثل معاوية من حيث إدراكه لقيمة البحر. لذلك ألح على الخليفة، وهو يوضح له أهمية هذا المكان، وظل به لا يكل ولا يمل، حتى استجاب الخليفة لرغبته. والطريف في الأمر أن طرسوس بالذات ليست على البحر، ولكنها كانت حصنا يشرف على البحر والبر. فاقتضى الأمر أن تكون ثمة ميناء في أقرب مكان إلى طرسوس، ولذلك قامت أولاس. وقد ظلت لطرسوس أهميتها بالنسبة للعرب إلى أن احتلها البزنطيون سنة ٩٦٥. وعندئذٍ أصبحت مركزاً خطراً ضد العرب. هذه المراكز الأسطولية التي ذكرناها كانت كلها في ديار الشام. لكن ذلك لا يعني أن العرب اقتصروا على ديار الشام. فقدكان لهم، شأن البزنطيين قبلهم، وغيرهم بعدهم، مراكز في الإسكندرية ودمياط والرشيد، وفي كنديه في كريت، وفي برقه. ومع أنه لم تكن في كل من هذه دار صناعة، فقد اهتم العرب بدور الصناعة الرئيسة اهتماماً كبيراً. وهذه

كانت تشمل الإسكندرية وعكاء وصور وطرسوس.

والاهتمام بأمر الأسطول في ذلك العهد يدخل فيه، بالإضافة إلى المراكز، أسماء السفن وأنواعها والأعمال التي كانت تخصص لها، كما يشمل البحث تنظيم الأسطول والإنفاق عليه وتدريب الرجال بعد الحصول عليهم. فليس الحصول على هذا العدد الكبير من الرجال الصالحين بسهلٍ لجميع أنواع الأعمال اللازمة لبناء السفن وتسييرها وحفظها.

فمن الأسماء التي وردت في أخبار البحر عند العرب في شرق البحر المتوسط، العلابيات ولعلها للمتعة، والحمائم وهي سفن سريعة صغيرة، والعشاريات وهي سفن قليلة العمق ولعلها كانت تستعمل لنقل الرجال والجوائج. وثمّة الصنادل وهي ناقلات الزاد والمؤن، والسنابك مثلها. وقد رويت الأسماء التالية لأنواع أخرى من السفن: البرقة والبيرجة والبراقية والبرعاني والطايرة والزورق.

كانت النفقات كبيرة. ولعل خير ما نفعله هو أن ننقل إلى المستمعين الكرام بعض الأرقام التي تدل على ما كان يتقاضاه العاملون في الأسطول بين القرنين السابع والعاشر، محولة إلى العملة اللبنانية حالياً. فالنجار كان يتناول من الأجر نحو ليرة يومياً، والبحار العادي قرابة الليرتين والنصف، والحداد كان يتقاضى بين الليرة والليرتين. أما العامل الماهر فقد بلغ أجره ليرتين ونصف الليرة. وقد يبدو هذا المبلغ ضئيلاً، لكن مما يجب أن نذكره دائماً هو القوة الشرائية للنقد في ذلك الوقت، يضاف إلى ذلك أن هذا الأجر لا يشمل ما كان ينفق على هؤلاء في سبيل الأكل والمسكن. فمن الناحية الأولى يتضح هذا الأمر إذا عرفنا أن ما يعادل الليرة اللبنانية كان يبتاع به نحو عشرين مكيالاً من القمح، أي ما ندفع ثمنه نحو خمس عشرة ليرة اليوم. ويكفي أن نذكر أن كثيرين من الناس كانت تعيش عائلاتهم على مبلغ لا يتجاوز العشرين ليرة في الشهر الواحد. فإذا أضفنا إلى ما ذكر أن العمال في الأسطول كانوا يتناولون طعامهم وبعض كسائهم ،اتضح لنا أنهم كانوا منعمين إذا قيسوا بغيرهم من الناس. وهذا الأمر لا يزال قائماً في العالم. فالعاملون في البحرية يحصلون على أجر أضخم من العاملين على ظهر الأرض. ولعله من المناسب أن نذكر أن إحدى الحملات البحرية كلفت خزانة الدولة مئة ألف دينار أي نحو خمسة ملايين ليرة لبنانية.

وقد شمل التنظيم نواحي كثيرة من أعمال البحر. فأمير البحر كان عليه أن يستوثق من رجاله، فيختار الأكفاء منهم، الماهرين في أداء أعمالهم. فرماة النفط والبحارون والمجذفون كان يراعى فيهم، بالإضافة إلى المهارة، أن يكونوا أهل صبر. أما المقاتلة في البحر فكانوا يختارون من خيرة الجند، ممن بلوا فاتضحت شجاعتهم، وتأكد لرؤسائهم حذقهم في فنون القتال. وهؤلاء الرؤساء أنفسهم كان من المنتظر منهم أن يتصفوا بالعدل وحب النظام ليستقيم لهم أمر النظر في جميع الشؤون التي تعرض لهم وعليهم.

وقد كان الخليفة، على ما عرفنا من وثائق القرن العاشر، شديد الحرص على أن يتفهم أمراء البحر رجالهم ويتعرفوا مشاكلهم ويختبروا أحوالهم، فيحسنوا معاملتهم، ويضعوا كل واحد منهم في الموضع الذي يستحقه. فإن ذلك أضمن للمصلحة، وادعى إلى الثقة. وقد استحث الخليفة أمير بحره أن يستمع إلى ظلامات الجند وغيرهم، وينصفهم إذا كانوا في شكواهم محقين، حتى تصفو نياتهم وهم يقومون بأعمالهم. وأكد وجوب دفع الأجور إلى هؤلاء القوم باستمرار وانتظام، على أن لا يبخل عليهم.

وكان على أمير البحر أن يطمئن بالملاحظة المستمرة والمراقبة الدقيقة على أحواض بناء السفن، وأماكن إيوائها. كما كان عليه أن يتحقق من اتقان الصنع لهذه السفن.

ولعل من أهم الأمور التي ألقي أمرها إلى أمير البحر، المحافظة على سرية الأخبار ـ سواء في ذلك أنباء قطع الأسطول والاستعدادات والحملات نفسها، كما كان يتوجب عليه أن يستخدم العيون والأرصاد لتسقط أخبار الأعداء باستمرار.

كل هذه الأمور تظهر لنا بوضوح، العناية التي كان العرب يبذلونها في سبيل تقوية أساطيلهم للدفاع والهجوم. ولا غرابة في ذلك، إذ إن الدولة التي تقوم على أرض الشام وفي وادي النيل، يجب أن يكون لها قوة بحرية ترد عنها العدو، وتؤيد النظام القائم.

٢ . الفتوح

كانت فتوح العرب الأولى برية، وقد كان ذلك طبيعيّاً. فإن العرب خرجوا من الجزيرة فقابلتهم سورية والعراق، فلما انتهوا منهما انتقلوا إلى ما والاهما من الأقطار. وكان عمر بن الخطاب يكره أن يفصل بينه وبين المحاربين ماء، فلم يسمح لهم بخوض عباب البحر المتوسط إلى الجزر القريبة من شواطىء الشام. فلما ولي الخلافة بعده عثمان بن عفان تغيّرت الحال، فقد أذن لمعاوية بالمسير إلى قبرص. وكتب إليه في ذلك: «لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم بل خيّرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه». فاستعمل معاوية على البحر عبد اله بن قيس الحارثي، فغزا قبرص سنة ٢٨هـ. واحتلها وصالح أهلها على سبعة آلاف دينار وعلى أن لا يغزوا العرب، وأن يؤذنوهم بمسير عدوهم من ورائهم.

كانت غزوة قبرص فاتحة لسياسة الفتح البحرية، وساعد هذه السياسة على النمو بسرعة كبيرة واقعة ذات الصواري. ذلك أن ملك القسطنطينية جمع أسطولاً كبيراً، يروى أنه كان في خمسمائة مركب، وسار يقصد مصر ليستردها. ولكن يقظة معاوية وحيطته كانتا قد دفعتاه إلى الاحتفاظ بما يجوز أن يسمى إمارة بحرية وعمارة تستطيع دفع الأذى، فخرج معاوية بها وقد التقى بعبد الله بن أبي سرح والي مصر لعثمان بن عفان، وكان عبد الله عندها أمير البحر. فكانت ثمة وقعة بحرية كبيرة انتصر فيها العرب وردوا المغيرين. وهذه المعركة هي التي أيقظت في العرب روح المخاطرة

البحرية، ونبهتهم إلى وجوب الحيطة في شرق البحر الأبيض المتوسط، فاحتلوا أو أتموا احتلال جزيرة رودس، بل لعلهم غزوا كريت في هذه الفترة، ولكن الغزوة لم تنته بالفتح المستقر.

ويرجع الفضل في إعداد الوسائل والمعدات للسياسة البحرية العربية إلى الأمير حسان بن النعمان وزير الدولة الأموية. ذلك أنه بعد أن دان شمال أفريقية بالطاعة للعرب، أنشأ حسان بفناء قرطاجنة دار الصناعة لبناء السفن والأساطيل وصنع الأسلحة وجلب لها الصناع من مصر. وسار على منهاجه طارق بن زياد لما ولي المغرب. ولما تم للعرب ملك الأندلس أنشأ أمراؤها دور الصناعة في طراكونة وإشبيلية وألمرية. فكان لهم من ذلك أساطيل قوية تنشأ في أفريقية والأندلس، فتعرضت جزر البحر المتوسط وشواطىء إيطالية وجنوب فرنسة لغزواتها مدة طويلة من الزمان.

واحتلال العرب لجزر البحر المتوسط واتخاذها مراكز للغزو، يكوّن فصولاً من أمتع ما عرف في تاريخ المغامرات البحرية، وقد نبغ في تلك العصور مجموعة من أمراء البحر العرب كان لهم شأن في تقرير السياسة البحرية وتعيين طرق المراكب التجارية. ولا شك أن في مقدمتهم المفرج بن سلام وليون الطرابلسي وهما يجب أن يوضعا في صف خير الدين بربروسا وفرنسيس دريك ومن شاكلهما.

وقد أشرنا قبلاً إلى أن كريت تعرضت لغزو العرب في دور الفتوح الأول، لكن فتح هذه الجزيرة تأخر حتى أوائل القرن الثاني للهجرة (التاسع للميلاد) وتم على أيدي جماعة من الأندلس. وحكاية هذه الجماعة طريفة. ذلك أن ثورة قامت في قرطبة ضد الحكم أميرها، فقام الحكم بإخمادها وفرق الثوار ثم أمر من بقي منهم، وهم كثرة، بالخروج من الأندلس. فانصرف بعضهم إلى فاس واتجهت جماعة إلى الإسكندرية فتغلبت عليها، وكان عددهم، فيما روى الراوون، خمسة عشر ألفاً. ثم جاءهم والي المأمون على مصر فغلبهم وأخرجهم وزودهم بالسفن والعتاد ووجههم إلى كريت، وعلى رأسهم زعيمهم أبو حفص عمر البلوطي. فلما وصلت سفنهم إلى كريت ونزل القوم، أمر أبو حفص بالسفن فأحرقت فاشتد الجند في أمر الحرب فاحتلوا الجزيرة. وظلت كريت في أيدي العرب، وتولاها أبناء أبي حفص وأحفاده حتى أواسط القرن الرابع للهجرة، أي إن حكمهم لها دام مائة وثلاثين سنة. وكان العرب قد حفروا خندقاً يتسترون فيه، فلما احتلوا الجزيرة قامت هناك مدينة سميت الخندق، وهي مدينة قنديا الحالية.

كان البزنطيون يحاولون المرة بعد المرة أن يستردوا الجزيرة من العرب ولكن محاولاتهم فشلت، حتى كانت حملة نقفور فوكاس سنة ٩٦١م. فأناخ عليها باثنين وسبعين ألف محارب، بينهم خمسة آلاف فارس، فحاصر قنديا واشتد في حصارها حتى فتحها عنوة بالحرب والجوع، فقتل ونهب وسبى وحمل صاحبها عبد العزيز، من ولد البلوطي، إلى القسطنطينية. ثم هدم حجارة المدينة وألقاها في الميناء لئلا يدخل

فيه بعدهم عدو. وبذلك انتهت سيادة العرب على هذه الجزيرة، لكنهم ظلوا يهاجمونها بعد ذلك كثيراً.

وأما مالطة فقد غزاها ابن الأغلب صاحب أفريقية حول الوقت الذي احتل فيه العرب كريت. لكن هذه الغزوة وغزوات أخرى تلتها، لم تزد عن كونها محاولات. أما الفتح فقد تم في أواسط القرن الثالث، وتم على يد الأسطول الأغلبي، ولذلك أُلحقت صقلية بولاية أفريقية. وكان أمير البحر عندها خفاجة فقلّده الأغالبة على إيطالية أيضاً. ومن مالطة كانت تخرج سفن الغزو العربية إلى بروفانس وإيطالية وما إليهما. وقد جرت قرب مالطة معركة كبيرة بين الأسطول العربي والأسطول البزنطي انتصر فيها الأخير. لكن هذا الانتصار لم يكن كافياً لإخراج العرب من مالطة، ذلك لأن الأسطول العربي انتصر على محاولات البزنطيين الأخرى وتعقب أسطولهم سنة ٢٧٥هـ. فأزاحه عن غرب البحر المتوسط وفتح للعرب سبيل السيطرة على شواطئه، فضلاً عن جزره الغربية.

ظلت مالطة تابعة للعرب حتى سنة ١٠٩٠م وقد انتزعها منهم النورمانيون الذين كانوا قد ظهروا آنئذ على مسرح السياسة والحرب في البحر المتوسط. لكن ظل فيها من العرب كثيرون. وكان العرب لما احتلوا الجزيرة قد عاملوا الأهلين بالرفق والمباشرة وقرروا سننهم وأحكامهم وامتزجوا بهم للغاية حتى كأن العنصرين عنصر واحد، ولذلك تركوا في لغة الجزيرة وعادات أهلها وآدابهم الشيء الكثير.

وقد اتجهت أنظار العرب نحو بقية الجزر الغربية في وقت مبكر من انتشار سلطانهم في البحر المتوسط. فالرواية العربية تذكر أن صقلية نفسها قد هوجمت حتى في خلافة عثمان، وأن معاوية بن أبي سفيان كان صاحب الفكرة، وغزاها الفزاري أيام خلافة معاوية نفسه. ولما صارت تونس ولاية لها شبه استقلال ذاتي صارت صقلية قبلة نظر واليها. وقد وجه إليها الفهري، فغزاها وغزا سردينية، سنة ١٣٠ للهجرة، ثم اشترك بحارو الأندلس في غزو سردينية وكورسيكا واكتسحوا الجزيرة الأخيرة، فبعث إليهم شارلمان بأسطول قوي فانسحبوا خشية منه، لكن لما اشتبكوا قرب سردينية تم النصر للعرب. ومع أنهم لم يحتلوا هاتين الجزيرتين نهائيّاً، فقد أكثروا من التردد عليهما بحيث إنهما لم تستريحا إلا قليلاً. وقد أسر العرب في إحدى غزواتهم ستين رجلاً من أهل كورسيكا وبلغ خبرهم شارلمان ففكهم من الأسر بفدية أداها عنهم.

احتفظ التاريخ بفتح صقلية للأغالبة. فإن زيادة الله بن الأغلب بعث سنة ٢١٢ للهجرة قائده ووزيره أسد بن الفرات على رأس عمارة بحرية قوامها أربعمائة سفينة وثلاثون ألف مقاتل. وكانت بلرم المقصد الأول فحاصرها ابن الفرات خمس سنين وفتحها. وكتب زيادة الله إلى المأمون يبشره بالفتح. ثم تابع الأغالبة والعباسيون حملاتهم حتى وقعت الجزيرة كلها بأيدي العرب.

كانت البندقية في ذلك الوقت قد بدأت حياتها التجارية في البحر المتوسط. فخشي البنادقة على تجارتهم ودفعهم أمبراطور الروم ثيوفيل إلى حرب العرب، فجهزوا أسطولاً مؤلفاً من ستين مركباً أقلع إلى صقلية والتقى بالأسطول العربي شرقي الجزيرة فمزق أسطول البنادقة شر ممزق وهلك معظم رجاله. وانتقل الأسطول العربي إلى البحر الأدرياتيكي فسرح في أنحائه وأغار على شواطئه وعاد بغنائم كثيرة من السفن.

واطمأن أهل صقلية لحكم العرب، فتعلموا اللغة العربية ودان معظمهم بالإسلام. وكان من مشاهير أمراء الجزيرة بنو أبي الحسن الكلبيون الذين امتدت إمارتهم زمناً طويلاً. والظاهر أن صقلية تبعت لمصر في القرن الخامس. ولما تأخر والي صقلية البعباع عن دفع المال طالبه صاحب مصر فعجز. وكان النورمانيون قد ظهروا في البحر المتوسط كما أشرنا، وكان البعباع على خلاف مع بقية الأمراء، فاغتنم الفرصة وأعان النورمان على نفسه. فتقدم روجر بجيشه وسفنه فاستولى على الأجزاء الشرقية من الجزيرة، فأخذ أهلها بمفارقتها فخرج جماعة إلى المعز بن باديس بأفريقية. واستمر روجر يحارب أهل صقلية ثلاثين سنة حتى تم له فتحها حول الوقت الذي تم فيه فتح مالطة.

وهكذا نرى أن ظهور النورمان المتحدين في البحر المتوسط كان السبب المباشر لانسحاب العرب من جزره. وقد أعان العرب خصومهم عليهم لأن بعض الخلاف قد دب بينهم. على أنه في الفترة التي كان العرب فيها سادة المياه الغربية من البحر، اتخذوا من هذه القواعد البحرية مراكز للهجوم على شواطىء أوروبة ومدنها. فكانت ثغور إيطالية وبزنطية وشواطىء الأدرياتيكي معرضة لهم في كل سنة. وكثير من التحصينات التي تشاهد على تلك الجهات ترجع إلى ذلك العهد. فحصن ضاحية الفاتيكان أقامه البابا ليو الرابع بعد إحدى الغارات القوية.

ولعل الغارة البحرية التي تستحق الذكر بهذه المناسبة هي غزو العرب لرومة. كانت هذه الغزوة سنة ٨٤٦ للميلاد و ٢٣١ للهجرة. فسارت حملة كبيرة من صقلية متجهة شمالاً محاذية للشاطىء الإيطالي فهاجمت ثغوره ونهبت موانئه وحاصرت بعضها ثم رست عند مصب التيبر. ومن هناك انقض البحارة العرب على الحي الذي لم تكن أسوار رومة تشمله، وضربوا الحصار على العاصمة القديمة. وكان من أثر ذلك أن ارتاع السكان واضطرب أهل رومة. واهتم الأمبراطور للأمر فبعث حملة من جنده وجهزت الثغور الإيطالية مثل أمالفي ونابولي حملة بحرية لمقاتلة الغازين. واقتتل العرب مع جند الأمبراطور قتالاً شديداً. لكن خلافاً دب فيما بينهم، فرفعوا الحصار عن رومة، وبذلك وقفوا دون فتح المدينة الخالدة.

عاد العرب مرة ثانية إلى غزو رومة بعد ذلك بنحو خمس وعشرين سنة. وفي هذه المرة كانت الحملة منظمة. فالظاهر أن الأغالبة أشرفوا على تجهيزها واتخذت جزيرة

سردينية مكاناً للاجتماع وقاعدة للهجوم. والتقى الأسطول العربي وأسطول المدن الإيطالية عند مصب التيبر. لكن العواصف حالت دون اشتباك قوي، مع أن العمارة العربية كانت تستطيع التغلب على مناظرتها بسهولة.

ولبث العرب زمناً طويلاً يهددون المدينة الخالدة حتى اضطر البابا يوحنا الثامن أن يفاوضهم في الجلاء على أن يدفع لهم جزية مقدارها خمسة وعشرون ألف مثقال من الذهب.

وما دمنا بمعرض التحدث عن العرب ومغامراتهم في جزر البحر المتوسط، فلنشر إلى إحدى غزوات ليون الطرابلسي أحد كبار أمراء البحر العرب. لقد كانت له غزوات كثيرة، لكن أكبرها تلك التي قام بها في سنة ٩٠٤ للميلاد ٢٩٢ للهجرة. خرج من طرسوس على رأس عمارته وفيها ما يزيد على خمسين مركباً، ومعه عشرة آلاف جندي قاصداً سلانيك، وكانت هذه من أمنع الثغور البزنطية وأغناها. وكانت أسوارها قد تقوضت لكن الدفاع عنها متيسر. لكن لا الحامية الأصلية ولا العمارة التي جاءت للمدافعة عن المدينة ولا مهارة القواعد أسلمت المدينة من الطرابلسي. فمع أن الخليج مليء بالحجارة، فقد تقدم بسفنه وعليها أبراج ضخمة مملوءة بالرجال، حتى صار أعلى من الأسوار وعندها هبط رجاله على المدينة واستولوا عليها. وبعد ذلك عاد متجنباً لقاء الأسطول البزنطي حتى وصل طرسوس التي كانت قاعدة لاستبدال الأسرى بين العرب والبزنطيين، فتبادل القوم أسراهم، إلا من قدر له أن لا يفتدى.

هذه صفحات من مغامرات العرب البحرية، فيها الغزو الموقت وفيها الفتح المستقر، وقد كان عندها العرب على حد تعبير ابن خلدون «وقد غلبوا على هذا البحر وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن لخصومهم قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم. فكانت لهم المقامات المعلومات من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة وسردينية وصقلية ومالطة وأقريطش (أي كريت) وقبرص. فسارت فيه أساطيلهم جائية ذاهبة وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً واختلفت في طرقه سلماً وحرباً».

٣. العمران

استولى العرب، أيام كانت لهم دولة وسلطان، على جزر البحر المتوسط جميعها. لكن مدة حكمهم لها لم تكن واحدة في جميع الجزائر. ولعل جزيرتي مالطة وصقلية نالهما أطول المدة، هذا باستثناء قبرص وأرواد. وقد يكون لوجود دولة الأغالبة في شمال أفريقية ومن تلاهم من حكام تونس تأثير كبير في ذلك.

أما آثار العرب في مالطة فيدخل في عدادها الألفاظ العربية الكثيرة الموجودة في اللغة المالطية وأسماء البلاد في الجزيرة ونقوش كثيرة وقطع من المسكوكات العربية. ومما يلفت النظر أنه لم يظهر في مالطة كثير من العلماء على نحو ما نعرف عن غيرها

من ديار العرب، ومع ذلك فنحن نجد عالماً اسمه المالطي كان أحد الذين نقل عنهم ياقوت الحموي.

لكن الجزيرة التي استبحر فيها عمران العرب هي صقلية. وقد كانت حضارة العرب فيها أحد الأسس التي بانتقالها إلى أوروبة، عملت على بعث الحياة الفكرية فيها من رقادها الطويل في أيام النهضة.

لما احتل العرب صقلية كانت مدنيتهم في الشرق وفي الغرب في دور نضجها وإيناعها، فحملوا معهم إلى الجزيرة ثمار جهدهم في الشرق ونتاج نشاطهم في الغرب. ومن ثم كانت مدينة صقلية منوعة قوية نشيطة وكان مدى تأثيرها في أوروبة بعيداً، ومقدرتها على الاستمرار في الجزيرة نفسها كبيرة.

عاش الرعايا المغلوبون في صقلية أيام حكامها العرب في راحة وسرور ونعموا بأمن واطمئنان. وترك الفاتحون لأهل الجزيرة عاداتهم وأنظمتهم وحريتهم الدينية وجمعوا منها جباية قليلة، وأعفوا منها الرهبان والنساء والأولاد وسمحوا بالإبقاء على الكنائس جميعها.

على أن المظهر الكبير لعمران صقلية أيام العرب هو نشاطها الاقتصادي الكبير. فإن العرب أحيوا زراعة الجزيرة واعتنوا بصناعتها فأدخلوا إليها أصنافاً جديدة من الغلات الزراعية كالبردى، وكانت لهم مصانع للورق، ومنها انتشرت هذه الصناعة في إيطالية.

كانت مناجم الذهب والفضة والشب والكحل والزاج والحديد والرصاص قد أهملت فأحيى العرب ميتها. ومن المرجح أن العرب هم الذين علّموا أهلها صناعة الحرير. وكانوا يحلونه بنقوش جميلة بالخط الكوفي. وانتشرت هذه الصناعة من صقلية حتى بلغت أواسط أوروبة، على ما يبدو من رداء حريري كان محفوظاً إلى قبيل الحرب العالمية الثانية.

وكانت صقلية تصدر إلى أوروبة في تلك العصور الأقمشة المحلاة بالجواهر والطنافس، وعليها أنواع الصور، والجلد المدبوغ. وكانت قصور ملوك أوروبة تتنافس في اقتناء الحلى البديعة التي تنتجها مصانع بلرم.

لقد كان في أواخر عهد العرب في صقلية مائة وثلاثون بلداً بين مدينة وقلعة غير المنازل والضياع والبقاع. وكان عدد سكان بلرم لما دخلها العرب ثلاثة آلاف نسمة، فلم تلبث أن ازدحمت بالسكان. ومما عليه المؤرخون أن نصف سكان الجزيرة كان في القرن الحادي عشر للميلاد من العرب، والنصف الآخر من اليونان.

وكانت أبنية الجزيرة، على ما استخلصه المؤرخ الفرنسي شارل ديل، مليئة بمظاهر الفن العربي: من القناطر العالية الجميلة والمقرنصات والقاشاني الجميل والفسيفساء المعمولة من الرخام الملون والصور الجميلة.

زار ابن حوقل الرحالة الجغرافي جزيرة صقلية سنة ٣٦٢ للهجرة وقضى فيها مدة

فوصفها في كتابه «وصف الأرض» وصفاً شائقاً نقتطف بعضه في هذا الفصل، وقيمته ترجع إلى أنه كلام شاهد عيان:

«صقلية جزيرة على شكل مثلث طولها سبعة أيام وعرضها أربعة. والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون وأكثر أرضها مسكونة مزروعة، ومدنها كثيرة ولكن أكبرها بلرم. وحيث تسيل مياه العيون توجد أراض كثيرة تغلب عليها السباخ، وآجام فيها قصب فارسي وبحائر ومقان صالحة. وفي خلال أراضيها بقاع قد غلب عليها البردى المعمول منه الطوامير وأكثره يفتل حبالاً لمراسي المراكب.

«وصقلية جزيرة خصيبة أرضها غنية مواردها. فهناك التجارة البحرية وما يصل منها إلى السلطان، وله هدية سنوية على أهل كلبرية. وأهل صقلية قليلة مؤنهم نزرة نفقاتهم كثيرة غلاتهم. ومع ذلك فقل فيهم رجل ملك بذرة عين. ذلك لأن ثروة الجزيرة موزعة على سكانها. وأكبر غلاتها القمح والصوف والشعر والخمر وثياب الكتان. وهذه لا نظير لها جودة ورخصاً. أما جميع ما تقع إليه الضرورات وتدفع الحاجة إليه من سائر الطلبات مجلوب إلى بلدهم، ومحمول إلى جزيرتهم.

«وبلرم هي المدينة الكبرى في الجزيرة وعليها سور عظيم من حجارة شامخ منيع. يسكنها التجار وفيها المسجد الجامع الأكبر وقد صلى فيه في يوم جمعة قرابة سبعة آلاف مصل. وللمدينة هذه تسعة أبواب. وشكل المدينة مستطيل وسوقها مثلها مستطيل يمتد من شرقها إلى غربها ويعرف بالسماط، مفروش بالحجارة عامر من أوله إلى آخره بضروب التجارة. على أنه بمرور الزمن نمت حول بلرم أربع حارات كبيرة، حتى كأن كل واحدة منها مدينة بنفسها. وهذه الحارات الأربع هي الخالصة وحارة الصقالبة وحارة المسجد والحارة الجديدة.

«أما الخالصة فيسكنها السلطان وأتباعه وفيها حمامان ولا أسواق فيها ولا فنادق وفيها مسجد جامع صغير مقتصد وبها جيش السلطان ودار صناعة للبحر وللديوان. فكأن الخالصة كانت القصر السلطاني والضاحية الإدارية لمدينة بلرم التي هي عاصمة الجزيرة.

«أما حارة الصقالبة فيها مرسى البحر فكأنها ميناء للمدينة. والحارتان الباقيتان هما حارة المسجد والحارة الجديدة. الأخيرة بها أسواق البلد الكبيرة فهناك سوق الزياتين بأجمعهم والدقاقين والصيارفة والحدادين والصياقلة، والقمح والطراز والسمك أسواقها هناك أيضاً. وإنك واجد باعة البقل وأصحاب الفاكهة والريحانيين وطائفة من العطارين. وقد يوجد من حوانيت القصابين وحدها قرابة مئتي حانوت. على أن المدينة كثيرة الأسواق الصالحة بالإضافة إلى ما ذكر.

«وتمتاز بلرم وضواحيها بكثرة المساجد. ففيها نحو ثلثمائة مسجد. وقد ترى عشرة مساجد في أقل من رمية السهم». ويعلل ابن حوقل ذلك برغبة السكان في أن يكون لكل منهم مسجد مقصور عليه لا يشركه فيه غير أهله وحاشيته. وقد تتلاصق داران

لأخوين ويكون لكل دار مسجدها الخاص.

ويشيد ابن حوقل بكثرة الرباطات في بلرم نفسها وصقلية؛ لكنه لا يكتم استغلال بعض المرتزقة لهذه الرباطات بحيث يتخذونها وسيلة للاستجداء. وهذا شأن الناس في كل مكان.

ومما لاحظه ابن حوقل على أهل بلرم أنه يكثر فيهم المعلمون وتكثر في بلدتهم المكاتب. فثمة قرابة ثلثمائة معلم. وقد لفت ذلك نظر الرحالة فاستقصى أخبارهم وعرف أنهم إنما يكثرون لأنهم يفرون من الغزو والجهاد. لكن لما انتبه أصحاب الشأن إلى ذلك ألغوا ما كان للمعلمين من امتياز. وكان المسجد الزهري بالسماط أكبر مكاتب المدينة وكان المعلم فيه محمد بن عيسى بن مطر وهو ممن رحل وشرق في سبيل التعلم وكتب الحديث.

وقد أخذ ابن حوقل على فقراء بلرم مآخذ كثيرة ذكرها على ما قال في كتاب سماه «محاسن جزيرة صقلية». هذا وقد ظهر بصقلية عدد كبير من مشاهير الرجال الذين لمعت أسماؤهم في سماء العلم والأدب والفنون. وفي مقدمتهم أسد بن الفرات فاتح صقلية للأغالبة والقاضي ميمون بن عمر والأدريسي الجغرافي.

وقد روي أن صقلية أخرجت مائة وسبعين شاعراً، وهناك من نبغ بالهندسة والنجوم مثل ابن سابق وابن عبد المنعم، ومن اشتهر بالطب كابن إبراهيم صاحب «المنجح في التداوي»، ومن عرف بالفلسفة كأبي عبد الله الصقلي. وهناك عدد كبير منهم معروفون باسم المدن التي ظهروا فيها مثل الجافي والسرقوسي والمازري والطرابنشي.

ولعل خير ما نختم به حديثنا عن أيام العرب بصقلية هو ابن حمديس الشاعر. ولد سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) في سرقوسة. وكان يرى في صباه مضايقة النورمان للعرب في جزيرتي صقلية ومالطة فيحز ذلك في نفسه. فلما آن للعرب أن يخرج سلطانهم عن الجزيرة وغلبهم عليها النورمان، خرج ابن حمديس من صقلية مع الذين نزحوا عنها، فقصد المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية فاستقر عنده، ورافقه فيما بعد في سجنه بمراكش. ولابن حمديس شعر كثير، فمن قوله مثلاً يصف الأسطول:

والأساطيل في الزواخر يرمي ... بلد الروم غزوها بالدمار
يابسات العيدان تثمر بالغيد ... إذا أورقت ببيض الشفار
راعفات القنا تلون فيها ... عذبات كمثل مصحف قاري

ومن شعره قوله في الغزل:

ملني من لا أمله ... وأذاب القلب دله
رشأ ينفر خوفاً ... أكلما ماشاه ظله
يا عليل الطرف جسمي ... نظرة منك تعله
يا غزالاً حرم اللـ ... ـه دمي وهو يحله
إنما الحسن محل ... لك أو أنت محله

بعضه في أوجه النـ ـاس وفي وجهك كله

وبعد أن جلا ابن حمديس عن صقلية بمدة طويلة تذكرها فقال:

ذكرت صقلية والأسى يهيج للنفس تذكارها
فإن كنت أخرجت من جنة فإني أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء حسبت دموعي أنهارها
ضحكت ابن عشرين من صبوة بكيت ابن ستين أوزارها

٤. بلاط روجر الصقلي

في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد والخامس للهجرة احتل روجر الأول صقلية وانتزعها من أيدي العرب، بعد حروب دامت نحو الثلاثين سنة. وقضى بعد ذلك نحو عشر سنوات من حياته في إدارة الجزيرة. كان فيها كثير من جنوده من العرب، واحتفظ أثناءها في بلاطه بعدد من الفلاسفة العرب وسمح للمسلمين أن يحافظوا على شعائرهم الدينية. بل إنه احتفظ بعدد كبير من العرب في المناصب العالية.

وهذه الخطة التي انتهجها روجر الفاتح سار عليها ابنه روجر الثاني لما ولي شؤون الجزيرة. فقد طال حكمه بحيث امتد نصف قرن تقريباً، لكنه كان في طفولته لما ورث عرش أبيه. فلما بلغ أشده وتولى شؤون الدولة عمليّاً اهتم بضم جنوب إيطالية إلى دوقيته ثم توج ملكاً وأنشأ مملكة صقلية. وكان أول ما فعله لتنظيم أمور الدولة هو أنه منع النبلاء في أنحاء مملكته من شن الحروب ضد بعضهم البعض، وأعلن أن السبل يجب أن تظل آمنة مطمئنة واحتفظ لنفسه بالنظر نهائيّاً في القضايا الجنائية. والخلاصة فإنه أوجد ما يمكن أن يسمى حكومة مركزية قوية.

وكان من نتائج هذا الحكم القوي وتوحيد صقلية مع جنوب إيطالية أن أصبحت مملكة روجر وخلفائه من بعده غنية. فقد كانت موانئها - في إيطالية وفي صقلية - مثل سالرنو وبلرم، مراكز للسفن الحاملة غلات أوروبة لتتبادل بها مع منتوجات الشرق. كانت سفن البنادقة والجنويين والبيزيين تلجأ إلى الموانىء الصقلية في غدوها ورواحها. وكانت تجارة أفريقية إلى أوروبة تمر بها، ومثلها كانت التجارة الأسبانية إلى المشرق. وكان ملك صقلية يفرض على كل هذه المتاجر الضرائب والجمارك التي كان التجار يدفعونها راضين، لتمتلىء بها خزانة الملك، فينفقها هو بدوره على تجميل عاصمته وفي سبيل فخامة بلاطه.

على أنه يترتب علينا أن نذكر أن استغلال موارد الثروة في الجزيرة نفسها سار على قدم وساق أيام روجر وخلفائه، بحيث لم تقلّ الموارد الداخلية عن الموارد الخارجية من التجارة. فقد عدِّن الحديد حول مسّينا واستخرج الكبريت حول جبل إتنا. ومثل ذلك يقال عن الملح. والفخار البلرمي كان آنئذٍ شهيراً وكان يزخرف بنقوش عربية. واشتهرت البلاد بصنع الحلي من الذهب والفضة بحيث كانت أوروبة تبتاع قصورها مما

تنتجه صقلية. أما في صنع الأواني الزجاجية فقد تفوق الصناع الصقليون على كل من اشتغل بهذه الصناعة في الغرب، بما في ذلك صنّاع البندقية.

وبحكم الحرية التي أطلقت لجميع السكان أيام حكم روجر وخلفائه، فقد استمر العرب في أعمالهم التي كانوا قد بزوا فيها غيرهم، مثل العناية بالبردى واستغلاله في صنع الورق والحبال. ويرجح أن إدخال تربية الحرير إلى صقلية يرجع الفضل فيه إليهم.

ويجدر بنا بهذه المناسبة أن نشير إلى مسألة على غاية الأهمية في تاريخ صقلية في هذه الفترة. فأيام روجر الثاني كانت أيام الحملات الصليبية. وقد جردت أوروبة حملتين قبل منتصف القرن الثاني عشر، أي قبل وفاته، لكن روجر رفض أن يشترك في حملات على الشرق أو في الهجوم على القيروان. فنحن نعرف أنه لما فكر بلدوين ملك القدس في أن يجرد حملة تقوم باحتلال القيروان ليفصل عرب الغرب عن عرب المشرق كتب إلى روجر يستعديه. لكن روجر أجاب بأن حملة كهذه لم تكن في مصلحة مملكته. فإذا ما احتل الأوروبيون شمال أفريقية استولوا على تجارته، وقطعوها عن صقلية، وإذا ما فشلت محاولاتهم عادوا إلى صقلية ليقيموا فيها. وفي كلتا الحالتين تكون مصالح صقلية التجارية معرضة للخطر.

لكن سياسة روجر الخارجية كانت ترمي إلى الهجوم على بزنطية. ومع أنه لم يصل إلى القسطنطينية نفسها، فقد قام بهجوم عنيف على بلاد اليونان كان من جرائه أنه دمر مدينتي كورنث وطيبة تقريباً.

والصفة البارزة للإدارة الصقلية في عهد روجر الثاني وخلفائه وليم الأول والثاني وفردرك الثاني هي أنها كانت فيها عناصر عربية وأخرى يونانية بزنطية وثالثة نورمانية. فألقاب القائمين بشؤون الدولة وعادات البلاط مأخوذة من العناصر الثلاثة. كان المجلس الملكي محكمة استئناف عليا، لكن كان هناك مجلس خاص يرجع إليه في الناحية الإدارية التنفيذية، وكان في مقدمة أعضاء المجلس الخاص موظف لقبه أمير الأمراء، والتسمية واضحة الأصل العربي. وكان هذا مسؤولاً عن القضاء وعن الشؤون البحرية. ولما كان جورج الأنطاكي يشغل هذه الوظيفة فإنه كان يقوم بعمل كبير الوزراء. وبعده كان يأتي المستشار وهو المسؤول عن الشؤون العسكرية. وتجد أنواعاً متفاوتة من أصحاب الوظائف بينهم القضاة. وكل موظف كان على رأس ديوان وله حدود معلومة. وكلمة ديوان منقولة عن العربية.

ولعل من المناسب أن نشير هنا إلى أن النظام المالي ونظام الأرض اللذين كانا متبعين في صقلية أيام روجر هما من أصل عربي وبزنطي. فإنه احتفظ بما كان قد عمل به العرب من نظام الأرضين، من حيث المساحة وإقطاع الأرض. فالقيود الرسمية التي كانت قد بقيت من أيام العرب نسج على منوالها. وبعض قيوده كانت مكتوبة بالعربية. ومثل هذا يقال بشأن الخزينة. فقد كانت عربية أصلاً، وكان بعض كبار

موظفيها من العرب.

وحري بالذكر بهذه المناسبة أن إدارة الخزينة في انكلترة وفرنسة في العصور الوسطى شبيهة بما عرف في صقلية النورمانية. ولعل معنى هذا أن الإدارتين مدينتان للعرب عن طريق صقلية.

والأوامر التي كان يصدرها روجر في أنحاء مملكته كان يراعي فيها أن تكتب بالعربية، بالإضافة إلى اليونانية واللاتينية، كي تصل إلى المعنيين بها من العرب. وعندنا أمر صدر أيام كان روجر بعد طفلاً، أصدرته أمه الوصية عليه، وقد كان مكتوباً بالعربية واليونانية. بل إن متحف صقلية فيه قطعة نقد ضربت في أيام روجر الثاني سنة ١١٣٨ تحمل نقشاً عربياً وتاريخاً كتب بأرقام عربية.

كان روجر في كل مظاهر حياته، مثل فردرك الثاني فيما بعد، تغلب عليه العادات العربية. فثيابه كانت من الثياب الفضفاضة وأرديته كانت عليها نقوش عربية. وأحد هذه الأردية كان لا يزال محفوظاً إلى قبيل الحرب العالمية الثانية. والبنايات التي أقامها، وفي مقدمتها كنيسته الكبرى في بلرم، كانت مزخرفة بالنقوش العربية الكوفية.

ويرى المشتغلون بتاريخ فن البناء العربي ودراسة أثره في الفنون الأوروبية وتأثيرها فيه، أن الفنانين الذين عملوا في بناء هذه الكنيسة المعروفة باسم (كابلابلاتينا) وغيرها من الأبنية مثل كاتدرائية مونريال ومارتورانا والقلاع التي أنشئت في القرن الثاني عشر الميلادي (السادس للهجرة) ـ هؤلاء الفنانون كانوا صقليين فيهم العرب وغيرهم، والنماذج التي قلدوها كان فيها كثير من أصل عربي. فجامع الحكم في قرطبة هو أصل الكابلا من حيث تركيز القبة الكبيرة على زوايا متعددة. ويعتقد هؤلاء أنه لما بنى جورج الأنطاكي سانتاماريا اتبع الطريقة نفسها التي اتبعها بناة الكابلا. ولعل صناع صقلية هم الذين علموا هذه الطريقة لصناع سالرنو وعن هؤلاء انتقلت إلى أنحاء مختلفة من أوروبة.

أما البلاط نفسه، ورجال البلاط، فقد مثلوا الحياة المختلطة أحسن تمثيل. فقد كان في بلاط روجر، فضلاً عن الموظفين المختلفي الأجناس والمذاهب، علماء وشعراء متباينو الأجناس والمذاهب. فالعرب والروم والإيطاليون والنورمان على اختلاف ثيابهم وعاداتهم وتباين آرائهم ونظرتهم وتباعد أفكارهم، وجدوا في بلاط روجر أمناً وسلاماً، فتحدثوا وتباحثوا ونظموا الشعر وكتبوا الرسائل وعملوا في الترجمة العلمية وهكذا دواليك. فقد كان في بلاطه الأدريسي الجغرافي وعبد الرحمن الشاعر ونيلوس اليوناني وأوجين البلرمي، وهذا فضلاً عن مؤرخين من اللاتين وبنائين بزنطيين.

والبلاط الصقلي مسؤول عن المشاركة في نقل الكثير من آثار الحضارة العربية إلى أوروبة. فالأمير أوجين كان يعرف العربية واللاتينية، كمعرفته لليونانية، لغته الأصلية. وقد تم على يديه نقل كتاب «البصريات» المنسوب إلى بطليموس من العربية إلى

اللاتينية. كما أنه ساهم في نقل كتاب «كليلة ودمنة» إلى اللغة نفسها.

وليس من شك في أن زهرة العلماء الذين أقاموا في بلاط روجر الصقلي هو الجغرافي العربي الكبير الشريف الأدريسي. وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس من سلالة العلويين. ولد بمدينة سبتة في أواخر القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد). فلما شب ورغب في طلب العلم انتقل إلى قرطبة، وكانت آنئذٍ مهبطاً لطلاب العلم من جميع آفاق المغرب فتثقف فيها وأحاط بعلوم عصره، لكنه عني بالجغرافية والرحلة عناية خاصة. فاطلع على ما كتبه السابقون أمثال ابن حوقل والمقدسي واليعقوبي والبكري. وأثار ذلك في نفسه حب الأسفار فطاف في أنحاء البحر المتوسط الغربية، حيث كان للعرب بعد سلطان. ثم نزل على روجر الثاني صاحب صقلية فأحسن وفادته وقربه وأجلّه واحترمه، لما رأى من سعة علمه واطلاعه ومعرفته، وأغراه في البقاء عنده طويلاً فقبل. ونزل عند رغبة روجر فكتب له كتاباً في الجغرافية اسمه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». ويعرف أيضاً بكتاب روجر.

ومن الطريف أن نشير هنا إلى أن الإدريسي وروجر كانا صديقين حميمين. فقد أعجب كل منهما بالآخر كثيراً. فالأدريسي وجد في روجر رجلاً يقظاً محباً للعلم والمعرفة واسع الاطلاع في أبحاث الرياضيات والفلسفة والتاريخ محيطاً بالكثير من علوم العرب عارفاً بلغتهم. ووجد روجر في الإدريسي بغيته. فقد كان يريد أن يحصل على معلومات دقيقة عن بلاده وجيرانه والبلاد التي تربطها بمملكته علاقات تجارية أو التي يفكر بالسير إليها، فوجد أن الإدريسي هو الرجل الذي باستطاعته أن يقوم بذلك. وقد وصف الإدريسي روجر بقوله: إنه يستطيع أن يفعل وهو نائم ما يعجز عنه الكثيرون وهم يقظون.

أراد روجر أن يتعرف إلى الدنيا بكل ما فيها، فاطلع على ما كتبه جغرافيو القدماء والعرب، فلم يجد فيها بغيته، فاستدعى العارفين وسمع منهم. وقد وصف الإدريسي في مقدمة كتابه الطريقة التي تمت بها عملية تحضير المواد اللازمة لكتابه قال: «إن الملك روجر المعتز بالله المقتدر بقدرته ملك صقلية وإيطالية وانكرده وقلورية لما اتسع سلطانه أراد أن يعرف كيفية بلاده ويعلم أشكالها وحدودها ومساكنها براً وبحراً. فطلب الكتب التي ألفت بالجغرافية والأقاليم فلم يجد فيها مشروحاً مفصلاً. فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن فلم يجد عندهم أكثر مما في الكتب. فبعث إلى سائر بلاده فأحضر العارفين فيها فسألهم عنها وباحثهم فيها. فما اتفق عليه رأيهم وصح عنده نقلهم أبقاه وما اختلفوا فيه أرجاه. أقام في ذلك خمس عشرة سنة. فلما تم كل شيء أمر أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة عظيمة الجرم ضخمة الجسم في وزن أربعمائة رطل في كل رطل منها مائة واثنا عشر درهماً. ثم أمر الفعلة أن ينقشوا عليها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأطوالها وأقطارها وسبلها وريفها وخلجانها وبحارها ومجاريها ونوابع أنهارها وغامرها وعامرها وما بين كل بلد وغيره من

الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات والمراسي ولا يغادروا فيه شيئاً».

ولما تم صنع الدائرة العظيمة انتقل العمل إلى يد الإدريسي فألف الكتاب المسمى «نزهة المشتاق». وقد كان مطابقاً لما في أشكال الدائرة وصورها. واحتوى وصف أحوال البلاد والأرضين في خلقها وبنائها وأماكنها وبحارها وجبالها ومسافتها وعملها وأجناس نباتها. ثم انتقل إلى وصف ما تستعمل به غلاتها والصناعات التي تتقن فيها والتجارات التي تحمل منها والعجائب التي تذكر عنها. ويشمل الكتاب فضلاً عن ذلك ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم ومللهم ومذاهبهم وزيهم وملابسهم ولغاتهم.

ويقول الإدريسي إن روجر هو الذي اقترح اسم الكتاب وإن ذلك كان في شوال سنة ٥٤٨ ثم يضيف «فامتثل الإدريسي فيه الأوامر ورسم الرسم فبدأ بصورة الأرض المسماة جغرافيا».

على أن للإدريسي كتاباً آخر في الجغرافية أطول من الأول اسمه «روضة الأنس ونزهة النفس» أو «كتاب الممالك والمسالك».

والإدريسي في رأي كثير من المشتغلين بتاريخ العلوم، أكبر جغرافي ظهر في العصور الوسطى. وإذا نازعه أحد في هذا اللقب فهو ياقوت صاحب «معجم البلدان». ويرى ملر أن الإدريسي يكوّن مدرسة جغرافية بنفسه. وقد ظل كتاب الإدريسي عمدة أوروبة في الجغرافية وخاصة فيما يتعلق بالبلاد الشرقية مدة طويلة.

والأوروبيون يقدّرون «نزهة المشتاق» وصاحبه كثيراً، وهناك من تمنى لو يطبع طبعة تامة ويترجم. ولعل الطبع المتقن يتم في يوم من الأيام على يد العرب وعلمائهم وهيئاتهم، فنحن أولى من الغربيين بإحياء تراث هذا السلف الصالح.

وعلى كل فقد طبعت أجزاء مختلفة من الكتاب في مناسبات متعددة. فوصف الإدريسي للشام وصقلية والأندلس وأفريقية مطبوع في كتب تتناول تاريخ هذه الأصقاع. وقد ترجم ترجمة فيها بعض الاضطراب إلى اللاتينية في أواخر القرن السادس عشر. ومما يسرنا أن نذكر أن مترجميه كانا عربيين من لبنان هما جبرائيل الصهيوني وحنا الحصروني.

أما خرط الكتاب وعددها إحدى وسبعون فأكثرها مطبوع. وأما النسخ الخطية الموجودة من نزهة المشتاق فهي سبع: اثنتان في اكسفورد بانكلترة واثنتان في باريس وواحدة في استانبول وواحدة في لننغراد وواحدة في القاهرة.

وأود في ختام هذا الحديث أن أشير إلى عالم آخر ظهر في صقلية في هذه الفترة، وإن كان لم يتصل ببلاط روجر اتصالاً مباشراً وهو حجة الدين الصقلي. ولد بصقلية ونشأ بمكة وعاد إلى صقلية ثم تنقل في البلاد واستقر أخيراً بحماة وتوفي بها. أما أثناء إقامته بصقلية فكان ملتحقاً بأحد القواد وصنّف له سنة ٥٥٤ للهجرة كتاب «سلوان المطاع في عدوان الأتباع». وله كتب أخرى كثيرة في الفقه والتفسير واللغة.

هذه صورة لما كان عليه بلاط روجر وما كان عليه الملك من احترام العلماء العرب

وعنايته بهم. وبذا كان أحد العاملين على نشر علوم العرب في أوروبة وركناً من أركان نهضتها.

٥. ابن جبير في البحر المتوسط

عندما نستعرض الرّحالين الذين جابوا أقطار العالم الواسع في العصور المختلفة نجد أن ابن جبير في طليعتهم. فقد زار أنحاء العالم العربي، والشرقية منها على الخصوص ثلاث مرات. فنال كل من مصر والحجاز ونجد والعراق وسورية وفلسطين وصقلية وأسبانية وأفريقية من جهده نصيباً. والرحلة التي بين أيدينا إنما هي وصف رحلته الأولى التي قام بها سنة ٥٧٨هـ (١١٨٣م). فهي سجل للبلاد والحوادث في أواخر القرن السادس هـ (الثاني عشر م). والذي يعنينا منها في هذا الحديث هو الجزء المتعلق بالبحر المتوسط. ذلك أن ابن جبير قطع هذا البحر، في هذه السفرة مرتين: الأولى من سبتة إلى الاسكندرية. والثانية من عكاء إلى أسبانية. ففي المرة الأولى خرج من سبته ومر بجزر يابسة وميورقة ومنورقة وسردينية وصقلية وكريت. وفي الثانية خرج من عكاء ومر بجزر الأرخبيل في بحر إيجه وكريت وصقلية وانتهى به السفر إلى الأندلس فنزل في ميناء قرطاجنة، وأقام مدة طويلة في صقلية.

وقد دوَّن ابن جبير ما رآه وما سمعه وما اختبره في رحلته، فحصلنا نحن على هذه الصور الحية. فهذا هو الرحالة يقضي ثلاثين يوماً في قطع المسافة بين سبتة والإسكندرية، ويسافر على مركب للجنويين. وتعتبر هذه المدة طبيعية في تلك الأوقات. ولكنه لا يغفل عن ذكر نقطة هامة وهي أن المسافة من سبتة إلى منورقة كانت ثمانمائة ميل قطعتها السفينة في اثني عشر يوماً. أما في طريق العودة فقد قطعت السفينة وكانت جنوية أيضاً خمسمائة ميل في يومين وليلتين. وابن جبير يذكر هذا وهو مستغرب من سرعة المركب. ونستطيع أن نتابع ابن جبير في رحلته فنرقبه وهو ينتظر الريح الطيبة هنا وهناك. فهو يقضي أربعة أيام في إحدى جزر الأرخبيل بانتظار الريح الملائمة. لكن أطول مدة قضاها في انتظار الريح كانت خمسة وسبعين يوماً في أطرانبش من أعمال جزيرة صقلية.

الصور التي يتركها ابن جبير لوصف البحر والموج حية طريفة. فلما كانت السفينة في طريقها من جزر الأرخبيل إلى الغرب طلعت عليها ريح غربية فغيرت اتجاه السفينة، فكتب ابن جبير يصفها، «ثم انقلبت الريح غربية وأنشأت سحابة فيها رعد قاصف وزجها ريح عاصف وتقدمها برق خاطف، فأرسلت حاصباً من البرد صبته علينا في المركب شآبيب متداركة، فارتاعت له النفوس. ثم أسرع انقشاعها وانجلى عن الأنفس ارتياعها وبتنا ليلة الجمعة مبيت وحشة وطالعنا اليأس من مكمنه. فلما أسفر الصبح وطلع النهار أبصرنا بر صقلية.. لكن لم تلبث حتى ضربت في وجوهنا ريح انكصتنا على الأعقاب وحالت بين الأبصار والارتقاب. وما زالت تعصف حتى كادت تنسف

وتقصف فحطت الشرع عن صواريها، واستسلمت النفوس لباريها وتركنا بين السفينة ومجريها. وتتابعت علينا عوارض ديم حصلنا منها ومن الليل والبحر على ثلاث ظلم.. وعباب الموج تتوالى صدماته وتطفر الألباب رجفاته. فنبذت نفوسنا كل أمنية وتأهبت للقاء المنية. وقطعنا هذه الليلة البهماء في مصادمة أهوال ومكابدة أوجال ومقاساة أحوال يا لها من أحوال. ثم أصبحنا يوم السبت ليوم عصيب أخذ من هول ليلته بأوفر نصيب والأمواج والرياح تترامى بنا حيث شاءت وقد استسلمنا للقضاء وتمسكنا بأسباب الرجاء، ثم تداركنا صنع الله تعالى مع المساء ففترت الريح، ولان متن البحر، واصفر وجه الجو وأصبحنا يوم الأحد وقد بدل لنا من الخوف الأمان وتطلعت الوجوه كأنها انتشرت من الأكفان».

وهذا المركب الذي عاد به ابن جبير من عكاء إلى الأندلس كان كبيراً، فقد وصفه بقوله: «والناس من هذا المركب بمنة الله تعالى في مدينة جامعة للمرافق فكل ما يحتاج شراؤه يوجد من خبز وماء ومن جميع الفواكه والأدم كالرمان والسفرجل والبطيخ السندي والكمثرى والشاه بلوط والجوز والحمص والباقلانيا والبصل والثوم والتين والجبن والحوت وغير ذلك مما يطول ذكره. عاينا جميع ذلك يباع». ولكن هذا المركب الغني نفذ منه الزاد لطول المدة التي قضاها في شرقي البحر المتوسط. فقد روى رحالتنا أن «الركاب كانوا يقتصرون على مقدار رطل من الخبز اليابس يتقسمه أربعة منهم ويبلونه بيسير من الماء فيتبلغون به. ولما نزل بعض البلغريين ترفق بقية الركاب بما باعوا من الزاد حتى انتهى سعره إلى خبزة بدرهم، أي إن الرغيف بلغ ثمنه نيفاً وأربعين ملا أو فلساً. ولما كان المركب في جزر الأرخبيل نزل أهل الجزيرة وبايعوا أهل المركب في الخبز واللحم والزيت وما كان عندهم من الأدم. ولم يكن خبزهم براً خالصاً إنما كان خليطاً بالشعير، وكان يضرب للسواد فتهافت الناس عليه على غلائه ولم يكن بالرخيص في سومه».

ومع أن ابن جبير مر بكريت وغيرها من الجزر فإن صقلية هي التي نالها أكبر حظ من وقته. فقد قضى فيها ما يزيد على الثلاثة الأشهر. نزل إليها في مسينا وزار بلرم وغادر الجزيرة من أطرابنش. ويصف ابن جبير كيفية دخول المسافرين مسينا بعد انكسار المركب فيقول: «وهذا المضيق ينحصر فيه البحر إلى مقدار ستة أميال وأضيق موضع فيه ثلاثة أميال. والبحر به ينصب انصباب السيل العرم ويغلي غليان المرجل لشدة انحصاره وانضغاطه. وشقه صعب على المركب. فاستمر مركبنا في سيره والريح الجنوبية تسوقه سوقاً عنيفاً فلما كان مع نصف ليلة الأحد وقد شارفنا مدينة مسينا من الجزيرة المذكورة، دهمتنا زعقات البحريين بأن المركب أمالته الريح بقوتها إلى أحد البرين. فأمر رئيسهم بحط الشرع للحين فلم ينحط شراع الصاري وعالجوه فلم يقدروا عليه لشدة ذهاب الريح به، فلما أعياهم مزقه الريس بالسكين قطعاً قطعاً طمعاً في توقيفه وفي أثناء هذه المحاولة سح المركب بكلكله على البر،

وقامت الصيحة الهائلة فيه فجاءت الطامة الكبرى والصدعة التي لم نطق لها جبراً. وتطاورت الريح والأمواج صفع المركب وألقى الريس مرسى من مراسيه طمعاً في تمسكه فلم يغن شيئاً.. فلما تحققنا أنها هي قمنا فشددنا للموت حيازيمنا وأمضينا على الصبر الجميل عزائمنا وأقمنا نرتقب الصباح أو الحين المتاح... وفي أثناء مكابدة هذه الأهوال أسفر الصباح فجاء نصر الله والفتح وحققنا النظر فإذا بمدينة مسينا أمامنا على أقل من ميل. ثم تمكن الشروق فجاءتنا الزواريق مغيثة ووقعت الصيحة في المدينة فخرج ملك صقلية غليام (وليم) بنفسه في جملة من رجاله مطلعاً لتلك الحال. وبادرنا إلى النزول في الزواريق... ومن العجب على ما أخبرنا به أن هذا الملك الرومي المذكور أبصر فقراء من المسلمين يتطلعون من المركب، وليس لهم شيء يؤدونه في نزولهم، لأن أصحاب الزواريق أغلوا على الناس في تخليصهم، فلما علم بقصتهم أمر لهم بمائة قطعة من سكته ينزلون بها».

وأعجب ابن جبير بصقلية أيما إعجاب، فقد كانت الجزيرة إلى قبل قرن واحد تابعة للعرب، وكان العرب لا يزالون يقطنون بها. وكان ملكها وليم قد أثر في ابن جبير لأنه عدل بين السكان. فوصف الرحالة كل شيء في الجزيرة وقع تحت عينيه. فخصبها وموانئها ومرافقها وأسطولها وأحوال المسلمين فيها وعيد الميلاد ـ كل أولئك شغلت ابن جبير ونالت من مقدرته على تسجيل تأثره. فهو يقول في خصبها: «وجبالها كلها بساتين مثمرة بالتفاح والشاه بلوط والبندق والأجاص وغيرها من الفواكه». ويقول في موضع آخر إنه أثناء ارتحاله من بلرم إلى اطرابنش سلك على قرى متصلة وضياع متجاورة وأبصر محارث ومزارع لم يرَ مثل تربتها طيباً وكرماً واتساعاً. وهو هنا يراها أهلاً للمقابلة بقرطبة وربضها. والميناءان اللذان أثرا في ابن جبير هما مسينا واطرابنش، فقال عن الأولى «مقصد جواري البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار... أرزاقها واسعة بإرغاد العيش كفيلة. لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان.... ومرساها أعجب مراسي البلاد البحرية لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البحر حتى تكاد تمسه، وتنصب منها إلى البر خشية ينصرف عليها. فالحمال يصعد بحمله إليها ولا يحتاج لزواريق في وسقها ولا في تفريغها... فتراها (أي السفن) مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد في مرابطها واسطبلاتها وذلك لإفراط عمق البحر فيها. وفي هذه المدينة دار صنعه تحتوي من الأساطيل على ما لا يحصى عدد مراكبه». على أن ابن جبير يورد في مكان آخر خبراً عن أسطول كان وليم يجهزه أثناء إقامة الرحالة في الجزيرة وعندها يخبر بأن الأسطول الذي يريد هذه الطاغية تعميره عدد أجفانه ثلثمائة بين طرائد ومراكب ويستصحب معه مائة سفينة تحمل الطعام. ولم يستوثق ابن جبير من قصد وليم من تحضير هذا الأسطول. وكل ما نلحظه هو أنه يرجو أن لا يوفق إذا كان المقصود به داراً من ديار الإسلام.

ويعنى ابن جبير عناية خاصة بذكر شؤون العرب والمسلمين المقيمين بصقلية، فهو

يدوّن كل ما يبلغه عنهم. فيقول عن مسلمي مسينا إنهم مع أهل المدينة على أملاكهم وضياعهم قد حسنوا السيرة في استعمالهم واصطناعهم ضربوا عليهم أتاوة في فصلين من العام. ثم ينتقل إلى بلرم فيقول عنها إنه فيها سكنى الحضريين من المسلمين ولهم فيها المساجد والأسواق المختلفة. ويشير إلى وليم ملك صقلية، الذي يسميه غليام، فيقول عنه: «وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين... وهو كثير الثقة بهم وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله، حتى إن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين والقائد على جماعته السود مسلم. ورجاله من المسلمين يلوح عليهم رونق مملكته لأنهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة. وغليام نفسه ليس في ملوك النصاري أشرف في الملك ولا أنعم ولا أرق منه. وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملوك وإظهار زينته بملوك المسلمين وملكه عظيم جداً.. وبلاط وليم فيه الأطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى إنه متى ذكر له أن طبيباً أو منجماً اجتاز ببلده أمر بإمساكه وأدرّ له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه».

ولما وصل ابن جبير بلرم أعجبته حضارتها فوصفها بعبارة أخاذة قال: «هي بهذه الجزائر أم الحضارة والجامعة بين الحسنيين غضارة ونضارة. فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر ومراد عيش يانع أخضر، عتيقة أنيقة مشرقة مؤنقة، تتطلع بمرآى فتان. فسيحة السكك والشوارع تروق الأبصار بحسن منظرها البارع... وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسموع. ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها... ويصلّون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحكامهم وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويختلفون في وقيد في شهر رمضان المبارك. وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن».

وبينا ابن جبير في طريقه من بلرم إلى اطرابنش مر ببلدة اسمها «علقمة» وقضى فيها ليلة وهي، على ما قال: «كبيرة متسعة فيها السوق والمساجد وسكانها وسكان هذه الضياع التي في هذه الطريق كلها مسلمون».

وكان ابن جبير في اطرابنش لما انتهى رمضان فعيد فيها عيد الفطر المبارك، وصلى في أحد مساجدها صلاة الغرباء لأنه لم يخرج مع الباقين إلى المسجد الجامع فيصلي صلاة العيد. أما الباقون فقد خرجوا إلى مصلاهم مع صاحب أحكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات. على أن ابن جبير يذكر في مواضع أخرى، قصصاً عن خصومات كانت تقوم بين العرب والنورمان وكانت فيها اليد العليا للفئة الثانية بحكم غلبة سلطانهم.

وقد حضر ابن جبير احتفال أهل بلرم بعيد الميلاد فكتب في وصفه قائلاً: «ومن أعجب ما شاهدناه في بلرم كنيسة تعرف بكنيسة الأنطاكي أبصرناها يوم عيد الميلاد

وهو يوم لهم عظيم وقد احتفلوا له رجالاً ونساء. فأبصرنا من بنيان الكنيسة مرأى يعجز الوصف عنه ويقع القطع بأنه أعجب مصانع الدنيا المزخرفة. جدرها الداخلة ذهب كلها وفيها من ألواح الرخام الملون ما لم ير مثله، وقد رصعت كلها بفصوص الذهب وكللت بأشجار الفصوص الخضر ونظم أعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجاج فتخطف الأبصار بساطع شعاعها وتحدث في النفوس فتنة نعوذ بالله منها. وأعلمنا أن بانيها كان وزيراً لجدّ هذا الملك وقد أنفق فيها قناطير من الذهب. ولهذه الكنيسة صومعة قد قامت على أعمدة سوار من الرخام ملونة وعلت على أخرى سوار كلها فتعرف بصومعة السواري وهي من أعجب ما يبصر من البنيان... وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين، فصيحات الألسن ملتحفات متنقبات. خرجن في هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الاخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر».

هذه، نتف مما دوّنه هذا الرحالة، ونحن نرى حتى من هذه المختارات القليلة، الصعوبات التي تغلب عليها والمشاق التي تحملها في سبيل رحلته وحجه. ومع ذلك فإن ابن جبير رحل مرتين أخريين إلى المشرق: الأولى لما بلغه الخبر المبهج باحتلال صلاح الدين لبيت المقدس بعد معركة حطين، والثانية بعد أن توفيت زوجه عاتكة أمّ المجد فحزن عليها ونوى الحج، وبعد أداء الفريضة عاد إلى الإسكندرية واستقر فيها وقرأ وحدّث حتى توفي سنة ٦١٤هـ (١٢١٧ للميلاد). وإن كنا نأسف لشيء فالذي نأسف عليه هو أن ابن جبير لم يدوّن أخبار رحلتيه التاليتين. وكم كنا نربح لو أنه فعل.

٦. بين صقلية وسورية

بعد روجر بمائة سنة جلس على عرش صقلية فردريك الثاني (١٢١٥ ـ ١٢٢٥) الذي كان في الوقت نفسه أمبراطوراً للأمبراطورية الرومانية المقدسة. ثم تزوّج وارثة عرش المملكة اللاتينية المقدسية فصار نظرّياً على الأقل، ملك القدس. وقد قاد فردريك حملة صليبية إلى الشرق أيام الملك الكامل.

كان فردريك يتأسى الملوك الشرقيين في ثيابه وبلاطه، وقد سار في صقلية على غرار روجر الثاني صاحب الإدريسي، فاعتنى بأن يكون في حاشيته العلماء والفلاسفة والعرب من سورية وبغداد. واحتفظ بعلاقات سياسية وتجارية مع الملك الكامل، الذي كان معاصراً له في مصر وسورية. فبعث إليه هذا بهدية سنية كان فيها زرافة هي أول زرافة وصلت أوروبة في العصور الوسطى. كما أن الملك الأشرف صاحب دمشق بعث إلى فردريك بمجموعة فلكية تبين الشمس والقمر ودورانهما. وأرسل فردريك إلى الأشرف هدية فيها طاووس أبيض.

ولما عاد فردريك من فلسطين اصطحب معه بزازين وعهد إليهم بتربية البزاة في

قصره، وعهد إلى تادوري الأنطاكي بترجمة كتاب عن البزاة وتربيتها من العربية. وعلى أساس هذا الكتاب وغيره كتب فردريك نفسه في هذا الموضوع. وإلى تادوري نفسه يرجع الفضل في تلخيص سر الأسرار، وهو كتاب عربي في أصول حفظ الصحة. وقد كان قبل تادوري هذا ميشيل الأيقوسي مقيماً في بلاط فردريك. وهذا كان قد طلب العلم في أسبانية وقام بنقل خلاصات من كتب أرسطو في علم الأحياء مع شروح ابن سينا.

فشخصية فردريك يجب أن تعدّ بين العوامل الرئيسة التي مهدت الطريق للنهضة الأوروبية. فالشعر الإيطالي والأدب والموسيقى بدأ ازدهارها تحت تأثير العرب، الذين يعود إليهم الفضل في حمل الشعراء والمغنين على استعمال اللغة الوطنية بدل اللغة اللاتينية. على أن فضل فردريك الأكبر على الحضارة العلمية في أوروبة يظهر بشكل خاص في إنشائه جامعة نابولي سنة ١٢٢٤، وقد أودع فيها مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية. وكانت مؤلفات أرسطو وابن رشد أساس التعليم فيها، ومن هذه الجامعة أرسلت نسخ من هذه المؤلفات إلى جامعتي بولونا وباريس. ومن المهم أن نذكر أن توما الأكويني، وهو من أكبر علماء اللاهوت في أوروبة في العصور الوسطى، كان من طلبة جامعة نابولي.

هذه اللمحة العابرة ترينا، بصورة عامة، فردريك ملك صقلية، وتهيىء لنا السبيل لفهم العلاقة الوثيقة التي كانت له بالقدس وما إليها من بلادنا.

كان أول اتصال له بهذه البلاد أنه تزوج وريثة المملكة اللاتينية. كانت الوريثة أيزابلا وكانت تقيم في عكاء، فبعث فردريك برسله لإحضار عروسه، وكان وفده هذا في أربع عشرة سفينة تحت إمرة هنري أمير مالطة، وكان يرافق الوفد الأسقف يعقوب الباتي. وفي شهر آب ١٢٢٥ ألبست العروس، وكانت في الرابعة عشرة من سنها، خاتم الزواج في كنيسة الصليب المقدس بعكاء ثم توجت أمبراطورة في صور. وبعد أسابيع ودّعت إيزابلا صور إلى صقلية. فلما وصلت برنديزي لقيها فردريك وهناك عقد الإكليل. وكان هذا الزواج سياسيّاً في أصله، وقد توفيت الزوجة بعد بضع سنين، لكنها كانت قد خلّفت طفلاً صار هو وريث عرش المملكة اللاتينية، ونصب فردريك نفسه حامياً له ووصياً عليه.

كان فردريك قد وعد البابا، لما توّج أمبراطوراً، أن يقود حملة صليبية إلى البلاد المقدسة. لكن حروبه ومشاغله الأوروبية حالت دونه ودون القيام بما يريد. ولما فرغ من جميع مشاغله، واعتزم القيام بالحملة فعلاً، كان البابا قد فرغ صبره وحرم فردريك ومنعه من ذلك. لكن الأمبراطور لم يبال وخرج إلى المشرق.

وقبل أن نعرض إلى هذه الحملة وما كان من شأن الملك الكامل فيها، نريد أن ننتقل إلى سورية ومصر، لنرى ما كان فيهما، مما يمكن أن يلقي شيئاً من الضوء على التاريخ السياسي لهذه الفترة العصيبة. كان الملك الكامل صاحب مصر وكان المعظم عيسى

أخوه صاحب دمشق، وكان بين الأخوين بعض النفور، وهمَّ المعظم بالاستنجاد بملك خوارزم جلال الدين ضد أخيه الكامل. والظاهر أن هذا ارتاع لذلك فكتب إلى فردريك يفاوضه في أمر المجيء إلى سورية. ويروي العيني أن الكامل وعده أن يعطيه أماكن مقدسة معينة إن جاء لنجدته. ففهم فردريك من ذلك أن الملك الكامل كان ينوي أن يعيد إليه كل الجزء الذي احتله صلاح الدين من أيدي الصليبيين. فرد على الملك الكامل رداً لطيفاً وبعث إليه برسول يحمل هدية سنية وتحفاً غريبة. ولقي الرسول حفاوة على يدي الكامل، فأقيمت له الزينات وأُنزل في دار الوزير. ولما رحل جهز الكامل له هدية رائعة لفردريك فيها من تحف الهند واليمن والعراق والشام ومصر والعجم ما قيمته أضعاف هديته. وعين الكامل جمال الدين بن منقذ الشيرازي للسير بهذه الهدية.

فلما اعتزم فردريك القيام بالحملة الصليبية لم يبال بحرمان البابا لأنه جاء وهو مطمئن إلى الحصول على نتيجة ما. فوصل عكاء في خريف ١٢٣٧ (شوال ٦٢٤) فوافق ذلك موت المعظم وزوال الخطر الذي كان يتوقعه الملك الكامل. فتغيرت وجهة نظره كثيراً. وهنا دارت بين الصديقين مفاوضات ديبلوماسية طويلة. وكان الملك الكامل في تل العجول، قرب غزة، وكان فردريك في عكاء، فبعث برسوله إلى الكامل يذكّره بما كان من مفاوضة سابقة، وتلكأ الكامل قليلاً. فانصرف الأمبراطور إلى تعمير صيدا وتحصينها، وكانت قد خربت من أيام صلاح الدين، وكانت مناصفة بين العرب والصليبيين. وتردد الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ والشريف شمس الدين بين الملكين. وانتقل فردريك إلى يافا وعمّر حصونها وكانت خراباً. واعتبر الكامل هذا نقضاً للمفاوضات. لكنه لم يكن يريد أن يحارب فردريك رغم أن قوات هذا لم تكن كبيرة. وقد روي أن فردريك بعث إلى الكامل يطلب إليه أن يعطيه القدس كي لا يفقد كل قيمته في عيون ملوك أوروبة وأهلها والبابا لأنهم كلهم كانوا يحسدونه.

وكانت نتيجة هذه المفاوضات الطويلة أن وقع الاتفاق بين الكامل وملك الفرنج على أن يأخذ الفرنج القدس من العرب ويبقوها على ما هي عليه من الخراب ولا يجددوا سورها. أما قرى القدس فتظل بأيدي الملك الكامل. وأما الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى، فيكون بأيدي المسلمين ويتولاها قوَّام منهم، ولا يدخله الفرنج إلا للزيارة. أما الساحل فقد ظل على ما اتفق عليه صلاح الدين وريكاردوس. وعقدت الهدنة وكانت مدتها عشر سنين ونحواً من ستة أشهر. وحلف الملكان على ما تقرر.

أما الناس فقد عز عليهم ذلك في القدس وغيرها، فأهل القدس اشتدَّ بكاؤهم وعظم صراخهم وعويلهم وحضر المؤذنون والأئمة من القدس إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان. وفي دمشق شنّع الناصر داود على عمه الكامل فنفرت قلوب الرعية وجلس الحافظ شمس الدين بن سبط الجوزي بجامع دمشق وذكر فضائل بيت المقدس وحزن الناس على ما حدث وبشّع القول في هذا الفعل وأنشد قصيدة

أبياتها ثلثمائة بيت قال فيها:

على قبة المعـراج والصخـرة التـي تفاخر ما في الأرض من صخرات
مدارس آيـات خلـت مـن تـلاوة ومنزل وحـي مقفـر العرصـات

ومما يجدر ذكره أن الملك الكامل نفسه حاول أن يبرر موقفه فقال: «إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس ومنازل خراب والمسجد على حاله وشعار الإسلام قائم ووالي المسلمين متحكم في الأعمال والضياع».

وأراد الأمبراطور أن يدخل القدس. فسيّر الملك الكامل معه شمس الدين قاضي نابلس فسار معه إليها حيث قام بدور تسليم المدينة رسمياً وسار معه إلى المسجد ثم طاف معه المزارات. وأعجب الأمبراطور بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة، ورأى هناك إفرنجيّاً يريد الدخول فانتهره وأنكر مجيئه وقال: «إنما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وقد تصدّق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه فلا يتعدى أحد منكم طوره».

ولما دخل وقت الظهر وأذن المؤذنون قام جميع من كانوا معه من الفرّاشين والغلمان ومعلمه، وكان من صقلية، يقرأ عليه المنطق فصلوا وكانوا مسلمين.

ونزل الأمبراطور، أثناء إقامته في القدس، في دار قريبة من الحرم الشريف وأمر القاضي شمس الدين المؤذنين ألا يؤذنوا تلك الليلة فلم يؤذنوا البتة، فلما أصبح قال الملك للقاضي: لمَ لم يؤذن المؤذنون على المنائر؟ فقال له القاضي إنه منعهم لإراحة الملك. فقال له الأمبراطور «أخطأت فيما فعلت والله إنه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع الأذان والتسبيح في الليل».

وأثناء إقامته في القدس توّج فردريك ملكاً في كنيسة القيامة، لكن حفلة التتويج كانت مدنية بسبب حرمان البابا له.

ثم عاد إلى عكاء بعد أن قضى في القدس ثلاثة أيام. وكانت عكاء تغلي بروح الكره له، فقضى فيها شهراً ثم غادرها غير مأسوف عليه. وقد أدرك أن أهل البلدة لا يحبونه فتركها تحت جنح الظلام، قبيل بزوغ الفجر، ولم يرافقه إلا قلة من البارونات. لكنه لما اجتاز حي الجزارين في طريقه إلى الميناء شعر به أهل ذلك الحي، وكانوا قد بكروا لأعمالهم، فقذفوا أحشاء ذبائحهم على أتباعه.

أما علاقة فردريك بالملك الكامل فقد ظلت ودية. وكان الأمبراطور، على رواية المقريزي «متبحر بالرياضيات والهندسة والحساب وبعث إلى الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضة فعرضها الكامل على الشيخ علم الدين قيصر الحنفي المعروف بتعاسيف وغيره فكتب جوابها». على أن أهل قضاء القدس ونابلس لم يلبثوا أن عملوا على استرداد القدس بالقوة من أيدي الإفرنج، وقد كاد ذلك أن يتم لهم لولا أن جاءت نجدة قوية من عكاء.

لكن القدس لم تظل مدة طويلة بأيدي الإفرنج. فإن قوة المماليك الجديدة كانت

على وشك الظهور في الشرق العربي، فلما ظهرت في أواسط القرن، وفي السنة التي مات فيها فردريك، لم تنتظر القدس طويلاً حتى عادت إلى أيدي أصحابها. ثم لم تلبث هذه القوة نفسها أن أخرجت الصليبيين من سورية كلها، وكان ذلك بعد وفاة فردريك بنحو أربعين سنة.

كان الملك الظاهر بيبرس البندقداري من كبار الرجال الذين عملوا على إخراج الصليبيين من سورية،. وقد كان الملك الظاهر الذي حكم في النصف الثاني من القرن الثالث عشر شديد العناية في توثيق الصلات بينه وبين ملوك أوروبة وأمرائها. وممن اتصل بهم منفرد ملك صقلية فتبادل معه الرسل والهدايا. وأرسل الظاهر إلى منفرد وفداً مزوداً بالتحف وأرسل له عدداً من الزراف وجماعة من التتار الذين أسروا في معركة عين جالوت بخيولهم التتارية وعدتهم. ولما وصل الوفد إلى ملك صقلية تلقاهم بالترحاب وأعجب بالهدية وخاصة الزراف والتحف، وكان رئيس الوفد الظاهري هو ابن واصل قاضي قضاة حماة. وبعد مدة بعث السلطان هدية مع أحد رسله وبذلك توثقت عرى الصداقة بين البلدين.

ثم استمرت العلاقات في عهد خليفة منفرد شارل أنجو، فتبادل الملكان الرسل والهدايا والكتب. ويظهر أن الملك الظاهر أصبح ذا نفوذ في صقلية. وهذا الأمر واضح من كتاب بعث به أحد رجال الملك شارل إلى الملك الظاهر، وقد جاء فيه ما معناه أن ملكه شارل أمره بأن يكون أمر الملك الظاهر نافذاً في صقلية وغيرها وأن يكون الكاتب نائباً للملكين.

ومما لا ريب فيه أن الغرض من هذا الكتاب وأمثاله هو تمهيد الطريق لعقد معاهدات تجارية بين القاهرة وصقلية. وهذه هي النزعة التي كانت تغلب على العلاقات السياسية في القرن الثالث عشر وما بعده بين أوروبة والشرق.

٧. الحضارة العربية في مالطة

كان أول غزو قام به العرب لجزيرة مالطة في أيام ابن الأغلب، أي في القرن الثاني للهجرة، والقرن الثامن للميلاد. ولكن غزوة ابن الأغلب هذه لم تنته بالفتح، فأعاد العرب الكرة على الجزيرة، حتى تم فتحها في أواسط القرن الثالث للهجرة. وتم الفتح على يد الأسطول الأغلبي، ومن ثم ألحقت مالطة بولاية أفريقية. وكان أول حاكم لها هو خفاجة أمير البحر، الذي قلده الأغالبة إيطالية أيضاً، أي الجزء الذي فتح منها على يد الغزاة التي كانت تخرج من مالطة فتهاجمها وتهاجم بروفانس في جنوبي فرنسا.

واحتلال العرب لمالطة مكّن لأسطولهم في غربي البحر المتوسط، فما كان للأسطول البزنطي بعدها مجال في تلك الأنحاء.

ظلت مالطة تابعة للسيادة العربية إلى أواخر القرن الخامس الهجري، إذ احتلها روجر سنة ١٠٩٠ للميلاد، لما احتل صقلية. لكن زوال السيادة هناك لم يعن القضاء على العرب، فظلوا في مالطة، كما ظلوا في صقلية لأن روجر كان حريصاً على أن لا

يهدم مملكته، فأبقى للعرب مكانتهم وعلومهم ونشاطهم. وقد استمرت الحال على ذلك قرناً ونصف القرن، حتى جاء من أحفاد روجر من لم يدرك قيمة العرب لبلاده وأثرهم فيها، فأخرجهم. وكان ذلك في أوائل القرن السابع للهجرة، والثالث عشر للميلاد.

كانت مالطة قاعدة هامة للعرب، وكان موقف العرب مع سكانها، شأنهم مع سكان بقية الأقطار التي فتحوها، موقف الحاكم العادل الذي يترك للسكان حريتهم. فلم يفرض العرب دينهم على السكان مثلاً. وقد رفقوا فآنس السكان معاملة أنيسة من العرب. ومن هنا كان التعاون التام بين الغالب والمغلوب، على ما يقص علينا جغرافيو العرب وغيرهم ممن وصل مالطة في تلك العصور.

وقد كان العرب يهتمون بالحصن المشرف على الميناء الكبير، وهو المعروف اليوم باسم سن أنجلو. وباحثو التاريخ المالطي مقتنعون بأن الجزء الأسفل من هذا الحصن إنما هو من بناء العرب. ونحن إذا استثنينا هذا الأثر فليس في مالطة آثار عربية بنائية معروفة. ولكن أثر العرب يبدو واضحاً في أسماء بعض الأماكن، مثل رباط. وفي مالطة ثلاثة أماكن يسمى كل منها رباط والذي يراه بعض المالطيين هو أن الكلمة مشتقة من ربض العربية، ومعناها الضاحية. والوضع الجغرافي لهذه الأماكن يبرز هذا التعليل في التسمية. فإثنان من هذه الأماكن الثلاثة يتخذ شكل ربض لمدينة كبيرة، وفي الواقع فإن واحداً من هذه الأماكن هو رباط لمكان اسمه المدينة.

لكني ارتأيت رأياً آخر، عرضته على اثنين من المشتغلين بتاريخ مالطة يوم كنت هناك فأقرّاني عليه. وهو أن هذه الكلمة مشتقة من رباط العربية، والرباط مكان يجتمع فيه المرابطون أي المقاتلون والمجاهدون استعداداً للطوارىء. والرباط يتفق مع وضع هذه الأماكن. فهي في أماكن يسهل منها حراسة الطرق أو الموانىء. والعرب الذين تركوا للمالطيين حريتهم، ما كانوا ليغفلوا استعدادهم فيما إذا اقتضى الأمر أن يلجأوا إلى السلاح. ومن هنا أرى أن هذا الاسم مشتق من رباط لا من ربض.

على أنه ثمة أماكن أخرى تحتفظ بأسمائها العربية ـ مثل الملّيحة، ولعل أصلها الملاحة وزريق وغار ظلام مثلها كثير.

على أن الصلة الباقية إلى الآن بين المالطيين والعرب هي صلة اللغة. وقد أتاحت لي الظروف أن أقضي قرابة أسبوع في مالطة مؤخراً، تمكنت أثناءه من التعرف إلى أمور كثيرة عن اللغة المالطية وأثر العرب فيها. وها أنا أعرض على القراء الكرام بعض ما استطعت أن أصل إليه من تحدّثي مع المالطيين ومن قراءة صحفهم ومن قراءة كتاب عن اللغة المالطية تأليف الأستاذ «موتسى».

وليس التشابه بين اللغتين تشابهاً لفظياً، ولكنه تشابه أصل، أي إنه يمكن القول بأن الأصل في اللغة المالطية من حيث هي لغة هو عربي، وما دخل عليها من اللغات الأخرى هو الألفاظ دون التركيب.

ولنعرض أولاً إلى ما طرأ على الألفاظ العربية التي يستعملها المالطيون من تغيير.

وهذا يشمل بعض الحروف والحلقية منها خاصة. فالقاف زالت من مالطة، وحلت الهمزة محلها، والخاء والحاء تبدلتا فأصبحتا هاء، والغين حلت العين محلها، لكن العين أصبحت خفيفة جداً، ولا تلحظ المالطيين يلفظون الضاد إلا نادراً والدال حلت التاء محلها، فهم يقولون البلت بدلاً من «البلد».

واللهجة المالطية متأثرة بلهجة شمال أفريقية بطبيعة اتصال القطرين. فأهل مالطة يقولون «تخلص» بدل تدفع، كما يقول الليبي، ويقولون «لَحَم» بدل «لحم» على ما نعرفه عن أهل طرابلس الغرب، ولهم في كلماتهم وألفاظهم مط وتنغيم يشبهون فيهما أهل بعض أحياء طرابلس.

وإذا استعرضت اللغة المالطية استطعت أن تقول عنها إجمالاً إن القسم العربي فيها يرجع إلى أوائل القرن الثالث عشر للميلاد. ومن هنا كانت جميع التنظيمات والأفكار التي قبستها الجزيرة بعد ذلك الوقت تعبر عنها ألفاظ أجنبية. ولما كانت الجزيرة قد خضعت لفرسان القديس يوحنا مدة طويلة، وكان هؤلاء الفرسان مسؤولين عن الكثير من تنظيمات الجزيرة وقوانينها، كانت الكلمات الدالة على ذلك لاتينية الأصل. أما العبارات الدالة على التطور السياسي الحديث فهي إيطالية أو إنكليزية أو فرنسية، والأخيرة قليلة. فأنت تمر على شاطىء البحر في مالطة، فتجد إعلاناً يتعلق بالسباحة فتجد فيه ما يأتي: العنوان هو «توصية» وهي من توصية العربية، ثم تجد إشارة إلى «الكوديسي» وهي كلمة لاتينية معناها القانون، وتجد أن هذه التوصية يقصد منها لفت أنظار الناس إلى أحكام قانون معين يتحتم بموجبه على الجمهور أن يتصرف تصرفاً لائقاً على الشاطىء. ولكن هذه التوصية لا تستعمل «الجمهور» بل تستعمل «ببليكو» وهي كلمة ببليكم "Publicum" محرفة قليلاً. فإذا وصل الأمر إلى كلمة «الممطر» استعمل «ماكنتوش» الإنكليزية. وهكذا تجد أن هذا الأمر البسيط يبين لنا إلى أي حدّ نهبت اللغة المالطية من اللغات الحديثة لتضيف إلى الأصل العربي الغالب. واللغة المالطية تكتب بحروف لاتينية.

وقد كانت اللغة المالطية مهملة إلى قبل مدة قصيرة، حتى إن المالطيين البالغين من العمر أربعين سنة لم يتعلموا اللغة المالطية في المدارس الثانوية، على روايتهم. لكن اللغة المالطية اليوم موضع اهتمام الجميع. فهي لغة التعليم في الابتدائي والثانوي وهي لغة الصحافة غير الإنكليزية، وأصبحت لغة المحاكم بعد أن كانت الإيطالية لغتها إلى قبل مدة. والكتب التي وضعها المالطيون لتعليم أبنائهم اللغة المالطية آية في الاتقان من ناحية المبادىء النفسية والأسلوب والإخراج.

ولعله مما يسر العربي أن يعرف أن مالطة فيها جامعة يرجع تاريخها إلى القرن السابع عشر، وأنه فيها كرسي لدراسة اللغة العربية. وممن شغل منصب أستاذ للغة العربية في جامعة مالطة الأديب اللبناني الكبير أحمد فارس الشدياق. وقد كتب أثناء إقامته في مالطة كتابين الواحد اسمه «الواسطة في أخبار مالطة» والثاني كتاب في

قواعد اللغة العربية لكنه بالإنكليزية، ومطبوع في لندن سنة ١٨٩٦.

وأرى في الختام أن أنقل قطعة باللغة المالطية دون أن أغير فيها أي شيء، ليتمكن القارىء من الحكم على القرابة بين اللغتين العربية والمالطية، والقطعة مأخوذة من خطاب للأستاذ بونيتشي ألقاه في أحد الاحتفالات الوطنية يوم كنت في مالطة ١٩٤٩. وهذه القطعة يتحدث فيها الكاتب عن الوطنية فيعرف الوطن. والكلمات الوحيدة الغريبة عن أسماعكم فيها هي «الباتريه» وهي الكلمة التي تعني «الوطن» بالمالطية وهي مستعارة من اللغة الإيطالية «وفرتلي» بمعنى خصبة من الإنكليزية وجرناتا. يقول الأستاذ بونيتشي:

«الباتريه هي ديك لارت (الأرض) لي (اللي) فيها تولدنا لي فيها عشنا، لي فيها أهنا (نحنا) بكينا وهبينا، دهكنا (ضحكنا)، هدمنا وسترهنا. كبيرة يو (أو) زغيره عنيه (غنيه) يوفئيره (فقيره) صبيحه (صبيحة) يوكرها، فرتلى (خصبة) يوشعري (شاغرة) هي ديم ديك (تلك) الأم لي تطنا (أعطتنا) العيش وربتنا ولي (والتي) جرناتا (غدا) تدفنا في هدانها (أحضانها) وا (بعد) موتنا».

ديار الشام كما عرفتها

١. طبرية

من الأمور التي تلفت النظر في العالم المتمدن عناية الجماعات فيه بالتعرف إلى بلادها تعرفاً دقيقاً. فالفرد والحكومة يتعاونان تعاوناً وثيقاً في سبيل رسم صورة صحيحة للبلاد يُعطاها الناشىء في صغره. فإذا شبَّ أخذ في التنقل في بلاده، مستطلعاً خفاياها، متعرفاً إلى أماكن الجمال فيها، فيقوى اتصاله الشخصي بها ويحبها. ومتى تمَّ ذلك شعر المرء بواجبه نحو بلاده وقومه، فلا يمتنع عن التضحية إذا دعا الداعي، ولا يفرّط في أمورها متى جدّ الجد.

وقد سهّلت وسائل الاتصال الحديثة التنقل، فصار من المتيسر على أي شخص أراد ذلك أن يزور القسم الأكبر من بلاده. وكثرت الجمعيات والأندية التي تنظم الأسفار والرحلات، والتي تقيم في المراكز الرئيسة أماكن يلجأ إليها الشباب في تنقلهم ورحيلهم لقاء أجر ضئيل جداً. ففي انكلترا وغيرها مثلاً يوجد ما يعرف باسم «منازل الشباب» Youth hostels التي يقضي فيها العضو ليلة لقاء أجر زهيد، ويتناول طعاماً خفيفاً، ولكنه مغذ، بسعر رخيص. لكن عليه أن يقوم بتنظيف المكان الذي أقام فيه قبل رحيله في الصباح. وهذا أمر لا يستغرق من الجهد والوقت إلا الشيء القليل.

وفي أوروبة تصل الطرق على اختلاف أنواعها إلى أكثر القرى، بله المدن، وهذا بالطبع ييسر التنقل. ولعل الدراجة العادية (البسكليت) أكثر الوسائل استعمالاً عند الشباب والشابات في غرب أوروبة. وما أكثر ما تشاهد جماعات تتنقل من شرق فرنسة إلى غربها مثلاً على هذه الدراجات.

ونحن إذا نظرنا إلى أنفسنا، وجدنا أننا مقصرون تقصيراً كبيراً نحو بلادنا. وقد شمل التقصير الأفراد والجماعات. فما أقل ما نعرف عن دارنا. ولست أريد أن ألوم أحداً، رغم كثرة من يقع اللوم عليهم، ولكنني أود أن ألفت قرائي الكرام إلى هذه الناحية من حياتنا. فبلادنا جميلة، شهدت لها الأعداء أم لم تشهد. وبلادنا تستحق منا أن نبذل في سبيلها جهداً، سيما وأن هذا الجهد يعود علينا بالفائدة والسرور. وهذا التعرف إلى البلاد العربية الذي أدعو إليه اليوم، أمر خبرته بنفسي ولمست أثره في كياني الروحي والعقلي. فإن تجولي فيها حبب إلي بلادي وقومي، وأفهمني معنى الوطنية أكثر من كل ما سمعت من مدرِّسيّ، وقرأت في الكتب.

وذلك أنني تجولت في ديار الشام على الأقدام، فوصلت إلى بقاع لا تعرف السيارة، ولم تسمع بالقطار. وشهدت هناك الطبيعة في جمالها الرائع، وسمعت خرير الماء عند منابعه النائية، واستنشقت هواء الجبال الشماء النقي، وراقبت الشمس تشرق فوق الصحراء السورية وتغرب على شواطىء البحر المتوسط، وشاركت قومي مواسمهم وأفراحهم وأتراحهم في عقر دورهم..فاختلطت بهم نفسي وشعرت أنني جزء من كل، وأن ذلك الجزء حري بأن يفنى في سبيل الكل إذا اقتضت المصلحة ذلك.

ولا شك أنه من السهل على كل امرىء أن يصل إلى دمشق وحلب وبيروت وأنطاكية ومصايف لبنان، ومن تضطره أعماله أو صحته إلى الاكتفاء بالسفر السهل فليفعل ذلك، لكن من يستطيع أن يمشي في بلاده فليمش ما وجد إلى ذلك سبيلاً. والمشي أو ركوب الدابة إذا شاء، هو الذي يوصله إلى قمة جبل الجرمق وجبل الشيخ وجبل صنين وجبل الشعراء وظهر القضيب، والمشي هو الذي ينقله إلى منابع الأردن ومنابع نهر إبراهيم ومياه العاقورة ونبع اللبن والعسل وجسر الحجر، والمشي هو الذي يحمله إلى دير مار سابا والنبي يونس وسبلان.

ولأنتقل الساعة من التعميم إلى التخصيص فأتحدث عن منطقة صغيرة في فلسطين لكنها، على صغرها، تحوي من مغاني الجمال وذكريات التاريخ ما يستحق أن تشد إليه الرحال.

في شمال فلسطين مجموعة من المياه تشغل جزءاً من غور الأردن تقل مساحته عن الثلاثماية من الكيلومترات المربعة، وينخفض سطح الماء فيها نحو مئتين من الأمتار عن سطح البحر. وتحيط بهذه المياه جبال ترتفع في أكثر الأحيان ارتفاعاً فجائياً، وفي أقلها تدريجاً، إلى مئات الأمتار. هذه هي بحيرة طبرية. وهي مثل من الأمثلة الكثيرة على أماكن الجمال وبقاعه في بلادنا. والحق أنه لا يجوز أن يخرج أحد أبناء بلادنا إلى الخارج قبل أن يزور هذه المنطقة؛ ذلك لأنها تضع أمامه مقياساً رفيعاً للجمال يسهل عليه الحكم على ما يرى في أجزاء كثيرة من العالم. والمقياس الرفيع هذا يرجع إلى تنوع الصور الجميلة التي تنطبع في ذاكرتك للأماكن. فأنت تجلس في صباح يوم أيام الربيع لتراقب الشمس تجدّ السير للطلوع علينا. فإذا ما بدت لك تباشيرها رأيت غيمة تعترضها، وينتقل بك الخيال إلى مشاهدة خصومة عنيفة بين الشمس والغيمة، فترتفع الواحدة وترتفع الأخرى، وتوشي الشمس أطراف الغيمة بخيوط فضية، ثم بخيوط ذهبية، فتعجب الغيمة بجمالها، وتتيه دلالاً فيغلبها النور الوضاح، وتزهو الشمس في الأفق. فإذا جئت في صباح آخر لترى مثل ذلك الشروق الجميل، ولتستمتع مرة ثانية بهذه الخصومة تشنها جيوش النور على فلول الظلام وأعوانه، شهدت عجباً. هذه الغيمة استعانت بأخوات لها، عزيزات عليها، وتقف الغيوم في طريق الشمس، فإذا ظهرت هذه رأت عجباً من القوة والنفوذ، فتلح في حقها، وتجمع قوتها وتهاجم وتشتد

الخصومة ويجرد السلاح ويعنف القتال وتسيل الدماء. وكل ذلك صور تتعاقب أمامك وتملأك سروراً ومتعة، وتثير في نفسك كوامنها وتهيجك للقتال والجهاد. فإذا انتهت المعركة بتغلب النور أيضاً، رأيت الشمس رفيقة بالغيوم المنهزمة والمضرجة بدمائها، فهي تجمع لها الورود تنثرها عليها، ثم تلفها كلها بنورها، وتنقلها معها إلى حيث ينقل الأبرار والصالحون من أبناء الآلهة.

وإن لم تكن من عشاق الشروق، فأنت واجد في قارب يمخر بك مياه البحيرة، يشق بحيزومه ماءها، في ساعة من ساعات الصباح، أو ساعة من ساعات المساء، ما يذهب عنك التعب، أو ما يعطيك رياضة جسمية إذا أرحت الملاح من عمله وتناولت مجاديفه وحركتها بدلاً منه. وأنت إذ تنتقل من مكان إلى آخر في البحيرة، توجه وجهك نحو جبل الشيخ الملتحف بردائه الأبيض، فترضاه لك قبلة تتولاها، تسترشد برشده، وتهتدي بهديه، وتعجب بعظمته، وتقوى بقوته، وتشعر بمعنى رسوخ العقيدة، وبالاطمئنان إلى الإيمان.

على أن بحيرة طبرية تحوي في ربوعها غير هذا الذي ذكرت؛ فقد اختصم فيها النور والظلام غير مرة، وانتصر النور. فشواطىء البحيرة شهدت الكثير من تنقل السيد المسيح ووعظه وإرشاده وأعماله. ومن صيادي السمك هناك أخذ السيد المسيح بعض رسله، وبين أهليها عاش. فالمجدل، بلد مريم المجدلية، وجبل البركة وكفر ناحوم (تلحوم) وبيت صيدا، أماكن تثير في نفس المؤمن ذكريات حية، وتفتح أمامه آفاقاً جديدة في التفكير الروحي، وتقدم له ألواناً من الغذاء المعنوي، لا يحصل عليه في أماكن كثيرة في بلادنا.

وعلى مقربة من البحيرة، في وادي اليرموك وضعت الأسس العربية لهذه البلاد لما انتصر ابن الجراح على جيوش هرقل وهزمها سنة ١٥ هجرية (٦٣٦ ميلادية). وعند شعاب حطين، إلى الغرب من البحيرة، لقي صلاح الدين جيوش الصليبيين، وانتصر عليهم، وأثبت رسالة اليرموك في هذه البلاد. ونحن إذا توسعنا في المنطقة قليلاً تذكرنا معركة عين جالوت التي ردت جموع المغول عن سورية في القرن الثالث عشر. نعم هذه هي النواحي الروحية والقومية التي تنعشها في نفوسنا بحيرة طبرية وما حولها.

على أننا، ونحن نستعرض هذه النواحي من بحيرة طبرية، ورسالتها الروحية، نود أن نذكر النواحي الأخرى لهذه المنطقة. فثمة الناحية الصحية المتجلية في حماماتها المعدنية، وفي الحمة التي يسهل الوصول إليها منها، وفي الينابيع الأخرى الصغيرة المنتشرة في ربوعها، وفي المصح الذي افتتحته إدارة الصحة العامة بفلسطين في الطابغة. وثمة الناحية الأثرية التي يعنى بها المؤرخون والمنقبون والتي يجدونها ممثلة في دراسة أنقاض طبرية القديمة وكفر ناحوم وما إليهما. وقد ظهر من نتيجة هذه

الأبحاث أن بحيرة طبرية كان يحيط بها في أيام المسيح بضع عشرة مدينة يبلغ عدد سكانها كلها نحواً من ١٥٠ألف نسمة. وفي المدينة نفسها بقية الأبراج والأسوار التي بناها ولد الظاهر عمر في القرن الثامن عشر للدفاع عنها.

ومن هنا نرى أن التنوع في جهات بحيرة طبرية هو العامل الرئيسي في حسبانها بقعة جميلة جذّابة، هذا على أن يحسن المرء اختيار الوقت لزيارتها، وأفضله الشتاء والربيع. على أنني عرفت البحيرة وجهاتها في الصيف غير مرة، ونعمت بحرّها، وهو شرُّها، ونعمت بمائها وهو الخير كل الخير. وإن أنس لا أنسى يوماً حاراً من أيام الصيف صرفته مع جماعة من الصحب تنقلنا فيه في قارب بين المدينة وتلحوم والطابغة والمجدل؛ فحرقتنا الشمس ما شاء لها أن تحرق، وغمرنا الماء ما شاء له أن يغمر، وشاركنا البحارة في التجديف، وساعدنا الصيادين في لمّ شباكهم، فأعطونا من السمك الذي أفاء الله به عليهم، وأوقدنا النيران وشوينا السمك واستمتعنا به. فكان لنا كل ما يكون لطالب النزهة والراغب في اللهو البريء، والمرح الذي يذهب عن النفس أحزانها، ويورثها ذكريات عذبة.

والوصول إلى بحيرة طبرية ميسور على كل من أراد. فهي تقع على طريق العربات الرئيسي الذي يصل دمشق وصفد بحيفا. وهي إلى ذلك على فرع سكة الحديد الحجازية الذي يمتد من درعا إلى حيفا. فهي في متناول المقدسي في أقل من خمس ساعات، وفي متناول الشامي في مدة تزيد على ذلك. أما أبناء المدن الأخرى فأمرهم أهون وخطبهم أيسر. ومتى وصل المرء إلى طبرية واستقر فيها اتخذها مركزاً لتجواله، ونقطة ابتداء لأسفاره. وكل جزء من شاطىء البحيرة وضفافها حري بالزيارة. فمحب السير على الأقدام يمتع نفسه بتسلق وادي الحمام إلى قلعة ابن معن، وهي مجموعة من المآوي المنحوتة في الصخر والكهوف الطبيعية على عدوات الوادي، يتسلق إليها المرء في شيء كثير من الصعوبة، وشيء كثير من المتعة. فإذا وصلها أطل منها على البحيرة الهادئة الصافية وخلفها جبال الجولان البركانية، فرأى منظراً ينطبع أثره في النفس ويعجز الإنسان عن وصفه. وإذا استمر في سيره ساعة أخرى وصل إلى خربة إربل أو إربد، حيث يعثر على أنقاض قصر هو أحد القصور الصغيرة التي بناها الأمويون لاعتزال الحياة الصاخبة في دمشق والاستمتاع بحياة خاصة هادئة. وإن ساعة أخرى لتنقل السائر إلى سهل حطين، حيث جرت الموقعة الحاسمة، وإلى قرية حطين حيث يوجد مقام النبي شعيب. فإذا تسلق قرون حطين، وألقى بنظرة إلى البحيرة والغور الذي تشغل بعضه، تمثلت أمامه حقبات التاريخ منذ أن انتقل الإنسان من الهمجية إلى الحضارة إلى عصرنا الحاضر.

أما الذين يحبون التجديف فإنهم واجدون في يوم أو أكثر متعة لا أحسب أن أماكن كثيرة في العالم تجود بمثلها. إنهم واجدون لذة في الانتقال على شواطىء البحيرة كلها

في قارب، يحملون فيه زادهم، وقد يحملون معهم خيمة، إذا شاؤوا، ليقضوا ليلة في الجهة الشمالية الشرقية من البحيرة. وهم إذ يصلون إلى فيق، في الجهة المقابلة لطبرية تماماً، يرون هناك آثار الطريق الروماني القديم الذي كان يمتد من مرج ابن عامر، ماراً بجنوب البحيرة ومنها إلى دمشق بطريق فيق. وكان يتشعب من هذا الطريق فرع يحمل المسافرين إلى جدرو أو جدارا التي كانت تقوم حول الحمة الحالية، ذات الحمامات المشهورة. لقد كانت جدرو في العصر اليوناني الروماني مدينة كبيرة ذات مسرح ومسبق وملعب، فتمثلت فيها الحضارة الرومانية بأجلى مظاهرها، ونبغ منها شعراء وأدباء. والطريق الحالية من سمخ إلى الحمة تتبع آثار هذه السكة الرومانية، محاذية نهر اليرموك إلى درجة كبيرة.

ومن وصل إلى بيسان، وهي على مسافة يسيرة جنوبي البحيرة، رأى ما فيها من خصب ورخاء وأشرف على غور أبي عبيدة، حيث يقوم قبر أبي عبيدة بن الجراح، بطل اليرموك.

وقد كانت الأراضي المحيطة ببحيرة طبرية دائماً مركزاً رئيساً لإنتاج نباتات المنطقة الحارة. ولا غرابة في ذلك، فهي تنخفض نحو مائتي متر عن سطح البحر، والحر فيها موفور والماء كثير. وقد روى جغرافيو العرب، على اختلاف ألوانهم، الكثير من أخبار المنطقة. فبانياس ونوى إلى الشمال حول الحولة، كانتا هريا لدمشق في الأرز والقطن، وطبرية كانت تكثر فيها، على رواية ناصري خسرو، البيوت المعدَّة لطلاب السرور واللهو الآتين إليها من أماكن كثيرة. ويروي الرّحالة نفسه أن حصر الصلاة التي كانت تصنع في طبرية كانت جيدة متقنة فتباع واحدتها بخمسة دنانير، أي ما يزيد على دينارين بعملة اليوم.

أما بيسان فيروي المقدسي أن مزارع الأرز فيها كانت تكفي سكان جندي الأردن وفلسطين. وينقل القلقشندي أنها كثيرة الخصب واسعة الرزق.

هذه هي منطقة طبرية، وهي على ما خبرتها بنفسي، واحدة من البقاع الرئيسية في بلادنا التي تستحق أن يتعرف إليها كل واحد منا. فليقم كل منا بواجبه في التعرف إلى البلاد العربية، وليبدأ بطبرية وبحيرتها. فإنها بداية طيبة.

٢. إلى جبل الشيخ

أمنية جاشت في نفسي منذ أن كنت يافعاً - هي أن أصل إلى قمة جبل الشيخ. فقد رأيت الجبل الكبير، رابضاً على أطراف السهول الواسعة لأول مرة، إذ كنت مسافراً من دمشق إلى حيفا، فألهاني منظره عن الأراضي الفسيحة التي يجتازها المسافر، وشغلتني رؤيته عن كل ما عداه، فملأ نفسي رهبة وشاع فيها خشية الشيء العظيم الأبي، ورغبت في أن أرقاه. وكنت أينما سرت في مرتفعات هذه البلاد، يبدو لي جبل

الشيخ يدعوني لارتقائه، وكأنه يتحداني. وكل مرة كنت أسمع فيها دعوته، كنت ألبي نداءه وأعده بالذهاب، حتى تم لي ذلك مرتين. فتسلقت جبل الشيخ من جهتين مختلفتين، وبشكلين متباينين، وعرفت لذة الوصول إلى القمة، وأدركت معنى الاستمتاع بالأفق الواسع يشرف منه المرء على الأمور إشرافاً كلياً، فتغيب الجزئيات والصغائر أمام الكليات والعظائم.

كان اليوم أحد أيام النصف الأول من شهر آب (أغسطس) وكان الحر شديداً، سيما وأن الليلة السابقة قضيناها في الخالصة شمالي بحيرة الحولة في غور الأردن. وكانت الشمس قد ملأت الأفق، لما اتخذنا طريقنا ـ أنا وصديقي (هو المرحوم درويش المقدادي) ـ من الخالصة إلى جباتا الزيت. كانت طريقنا تمرّ في بقعة من أجمل بقاع بلادنا، إذ كان علينا أن نجتاز المنطقة التي تقطعها روافد الأردن. وكان تل القاضي أجمل هذه الينابيع وأولها في طريقنا. فقد وصلنا إليه قبل الظهر، فأشرفنا على تلة، لعل طولها لا يتجاوز الثلاثين من الأمتار، ولا تكاد ترتفع عشرين متراً، تكسوها الأشجار والأنجم البرية، وينبثق من غربها نبع ماء قوي، يشق طريقه من أحشاء الأرض ويبري الجنادل في سيره، ويملأ الجو صوتاً موسيقيّاً، ويملأ النفس لذة وسروراً. ويأبى الرعاة إلا أن يجعلوا لهذا الشجر الجميل هالة من القداسة، فهم يحملونك على أن ترى عشر شجرات منفردة عن غيرها، وإذ تقتنع بذلك يتقدم أحدهم فيروي لك في كثير من الإيمان وكثير من اليقين، أن عشرة من الصحابة الكرام مروا بهذا المكان، فربطوا خيولهم في أوتاد غرسوها خاصة لذلك، فإذا الأوتاد تنبت شجراً كريماً، وإذا الشجرات العشر تبقى إلى يوم الناس هذا.

وإن ساعة وبعض الساعة من المشي لتنقلنا إلى بانياس، فنجتاز في طريقنا أرضاً خصبة جميلة، مكسوة بالأشجار، ونعبر النهر على بقية صالحة من جسر روماني، فنصل إلى غار كبير، بعض أجزائه حمراء. ومن صدر الغار يخرج نهر كامل العدة والصورة. وإذ تقف داخل الغار: فترى هذه الولادة العجيبة، وتمتع نفسك بهذا الجمال الفذ، وتستروح معنى هذا الانبعاث، تفهم السر في أن الأقدمين قدّسوا هذا المكان وباركوه وعزوا إليه قوة خارقة. فعبد الساميون القدماء فيه آلهة الماء الجارية تحت الأرض، وكرّسه اليونان للإله «بان» وإلاهات السحر الجميلة. ومن «بان» أخذت المدينة والمنطقة اسمها، واحتفظت به، رغم أن كل حاكم أقام هناك حاول أن يغير المدينة ويسميها باسمه. لكن الأيام حفظت اسم الإله الجميل، واستغنت عن أسماء الحكام. ولم يكتفِ «بان» بطبع المكان بطابع الاسم، لكن أثره تعدى ذلك إلى النقود التي سكّت هناك، فظهرت صورته عليها، يحمل نايه يغني الأغنية التي تبقى بعد أن تفنى الحياة.

وبانياس اليوم قرية، قد لا يتجاوز عدد سكانها الألف، لكنها كانت في أيام الرومان والعرب مدينة كبيرة، تتركّز فيها الحياة التجارية والزراعية والإدارية للمنطقة كلها. وقد

أعجبت ابن جبير إذ مر بها في طريقه من دمشق إلى عكاء فقال فيها: «هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين (وهي صغيرة) ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر، ويفضي إلى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرجائها... ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للإفرنج يسمى هونين».

على أن القلعة الرئيسة التي تحمي المنطقة منذ أقدم الأزمنة لم تكن قلعة بانياس نفسها، ولكنها قلعة الصبيبة التي تقع على مسير نحو ساعة إلى الشرق من بانياس. هذه القلعة، على ما تظهر مما تبقى منها قائماً إلى الآن، أكثرها من نتاج العصر الصليبي، وعليها نقش يرجع إلى أيام الملك العادل. وتقع القلعة على مرتفع من الأرض يمكن الواقف على أعلاها من رؤية قلعة الشقيف (أرنون) وهونين غرباً، وسهل الحولة وقراه غرباً في جنوب، وجباتا الزيت شرقاً. وقد أطلقت الأسطورة المحلية، منذ زمن قديم، على القلعة اسم قلعة نمرود، ذلك لأن ضخامة الحجارة، وعظم البناء، وارتفاع الأبراج، وحصانة الأسوار ـ كل أولئك أقنع الناس منذ أجيال أن هذه القلعة من بناء الجبابرة القدماء لا من عمل الإنسان، فنسبوها إلى بطل الجبابرة نمرود.

أليس في هذه الأماكن متعة تهيىء المرء السائر فيها لقبول ضيافة المساء في جباتا الزيت، إذ يصلها والشمس قد جمعت آخر خيوط لها في الأفق؟ وتقضي بعض المساء في تحدث عن رحلة الغد. نعم إلى قمة جبل الشيخ الواقعة جباتا على طرفه الجنوبي. إن حلم الصبي على وشك أن يتحقق. ويتقدم القوم المجتمعون محاولين إقناعنا بالعدول. فالطريق صعب المرتقى والمسافة طويلة، والماء نزر، ولا سبيل إلى الحصول على دليل يرافقنا. ويرى مضيفنا أننا نسمع كلامه وكلام رجاله، دون أن نقبل نصحهم، ويتأكد من أننا لا بد صاعدان، فيهيىء لنا كل ما نحتاج؛ فثمة دليلان بدل الواحد، وكل منهما يأتي ببغلته معه، على سبيل الاحتياط. والحيطة هذه ظهرت بعد ساعات إذ امتطى كل من الدليلين دابته وسارا يرشداننا إلى الطريق. وهذا مضيفنا الكريم يعد لنا زاداً كثيراً، وماء نحمله في تنكتين، فقد لا نجد عند القمة ثلجاً نذيبه، لأن ذوبان الثلج بدأ مبكراً تلك السنة، ولعله زال كله عن الجبل، وهذا ما لقيناه فعلاً.

كانت الساعة الرابعة صباحاً لما خرجنا من جباتا. وإن أنس لا أنس مختار القرية، وقد رآنا نخرج منها، إذ لحق بنا يحاول في آخر لحظة أن يثنينا عن عزمنا. لقد أقسم بوجود الخطر، ولما يئس منا، بعد أن سايرنا مسافة طويلة، أشهد الفلاحين علينا أنه براء من دمنا، إذا مسّنا ضرّ، فقد أنذرنا ولم نلتفت له، وتركنا صاخباً.

سرنا بين كروم العنب أولاً، لكن هذه لم تلبث أن انقطعت. واستعضنا عن رفقة الكرم بالحمص الأخضر، حتى وصلنا «مرج أبو عبد الله»، وهو آخر الجزء الذي يزرع، ولم نرَ بعد ذلك إلا بقية أعشاب ترعاها الماشية، التي تصطاف هناك مع رعاتها، وترتوي من نبعة «معنون» الباردة. على أن الأعشاب نفسها أخذت تتناقص شيئاً فشيئاً

وتحل محلها نباتات شائكة ذات رائحة زكية.

بعد عشر ساعات من السير وجدنا أنفسنا على قمة جبل الشيخ، على قصر عنتر أو شيبوب، وعلى أنقاض الهيكل القديم المكرس لبعل حرمون. وإن كان الهيكل القديم رمز العبادة الإلهية، وقصر شيبوب رمز البطولة الفذة، فعلى قمة جبل الشيخ أثر صغير هو رمز الآمال العربية. فهناك رأينا قطعة رخام منقوش عليها ذكرى زيارة المغفور له فيصل الأول لقمة جبل الشيخ أيام كان ملكاً لسورية.

لجبل الشيخ ثلاث قمم: قصر عنتر في الجنوب، وأخرى في الشمال، وهما متساويتان في الارتفاع البالغ ٢٧٥٣ متراً، أما الثالثة فتقع في الغرب، وتنخفض عنهما قليلاً. وامتداد جبل الشيخ العام من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وطوله يتجاوز الثلاثين من الكيلومترات.

أما المرة الثانية فقد كان صعودي جبل الشيخ من راشيا، من الغرب. بدأنا السير في العاشرة مساء، وأمامنا الدليل ومعه بغلته تحمل زادنا ودثارنا، فقد أُنبئنا أن البرد يكون في الصباح شديداً. كانت الليلة هادئة، وكان القمر بدراً أو يكاد، وكانت النفس مطمئنة، وكانت السفرة مهيأة، وأراد الله أن يتم نعمته علينا فكان دليلنا رخيم الصوت. ولم نكد نلتحف الوادي، ونطمئن إلى أننا في الطريق الصحيح، حتى أخذت صاحبنا فورة من الطرب، فانطلق يغني غناءه الجبلي القوي العذب، وأخذ الوادي يردد صدى غنائه، فيبعث في نفوسنا رهبة الجبل العظيم، وسرور الطبيعة، وأمل الليل البهيم. (فعتّب) صاحبنا ما شاء له الهوى (وميجن) ما شاءت له الذكرى (ودلعن) ما هاجه غرامه، وهو في كل ذلك جذلان طرب، ونحن معه جذلان طربان.

إنها قرابة خمس ساعات، فإذا الدليل يصيح بأننا على وشك أن نصل. وإذا بالطبيعة تقدم لنا كهفاً يأوي إليه صديقي والدليل، فيعطيان جسديهما حقّهما من الراحة، وآبى أنا على نفسي ذلك. لقد خشيت إن أنا استلقيت أيضاً أن تأخذنا كلنا سنة من النوم، فلا نصحو إلا وقد أضعنا الفرصة. لقد كنت ضنيناً بأن أضيّع هذا الجهد دون أن أرى هذا المنظر الجميل الذي تتعاقب عليه السنون، فلا تبلي جدَّته، ولا تزيل أثره. أبيت على نفسي أن أعطي جسدي حقه، وقمت بدور الحارس. فلما حسبت أنهما اكتفيا، أيقظتهما، وتابعنا السير. ولم نسر إلا نصف ساعة فإذا بنا على قصر عنتر، وإذا بي أقف هناك للمرة الثانية. ولكن هذه المرة في آخر الليل، وكانت المرة الأولى في وضح النهار.

لست أشك، بعد أن وقفت على قمة أكثر الجبال المرتفعة في لبنان وفلسطين وسورية، أن ما يراه المرء من قمة جبل الشيخ أوسع من كل ما يرى من أي جبل آخر. وتنوع المناظر التي تجتليها العين من قمته لا يتيسر في مكان آخر. فأنت إذ تقف على قمة الجبل ـ على أنقاض قصر عنتر أو هيكل بعل حرمون ـ وتمد ببصرك حولك،

تستجلي عينك آفاقاً مترامية، وأبعاداً شاسعة: ففي الغرب يخيل إليك أن البحر، بين جبل الكرمل وصور، يرتمي عند موطىء قدميك، وترى وادي نهر القاسمية يمتد أمامك كأنه يرشد نظرك إلى مغاني الجمال الفاتن. وهذا الوادي نفسه يريك حداً فاصلاً بين لبنان الجنوبي وجبال الجليل، التي تحمي الحولة وطبرية وسهليهما من المكروه، فإذا صوبت نظرك في اتجاه الشمال رأيت الجبل الشرقي. أما في الشمال الشرقي فأنت تطل على دمشق وغوطتها التي تضم كل البقاع الخضراء على سيف البادية. وثمة اللجاة ذات الصخور النارية، وحوران وسهوله الخصبة. وفي الجنوب الشرقي الجولان وفوهاته البركانية. أليس في هذا الاتساع والعلو ما يحملك على احترام شيخ الجبال وسيدها، والاطمئنان إلى العزيمة التي تخلّفها في نفسك الإقامة فوقه ساعات، قلّت أو كثرت!

على أن كل هذا الذي ذكرت لا يعدو جزءاً صغيراً من الحقيقة كما تلمس هناك والتي لا سبيل لي إلى وصفها. بل إن هناك منظراً آخر ينقل ناظره إلى جنات من الخيال ويحمله على أجنحة من الإعجاب لا يستطيع أن يدركها إلا من حمَّل نفسه مؤونة تسلق جبل الشيخ.

كان الليل لا يزال يرخي سدوله الكثيفة على قمة الجبل لما وصلناه في المرة الثانية. وكان القمر رفيقاً بنا في سيرنا، لكنه ازداد بنا رفقاً لما وصلنا، إذ تركنا لما نحن قادمون عليه واختفى في الغرب وعلى فمه ابتسامة من يعرف ما يخبىء القدر لهذه الجماعة الصغيرة من متعة ولذّة، واختفى دون إنذار أو تحذير، حتى كدنا نتعثر في سيرنا في الجزء الأخير من القمة العنترية. وما استقر بنا المقام حتى تدثرنا بالسميك من أحرمتنا واتجهنا نحو الشرق نرتقب الجمال والضياء.

لم يطل انتظارنا. بدت تباشير النور في أشعة فضية باهية، تبين لنا فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. ثم أغدقت هذه الأشعة من نورها على الأفق العريض البعيد، فبدا كله مفضضاً، ثم استحالت فضته ذهباً يخالطه مزيج من الألوان الناشئة عن انعكاس الأشعة على السماء الزرقاء والرمال المنتشرة في عرض الأفق. ولم تلبث الشمس نفسها أن تجاوزت الخط الفاصل بين الأرض والسماء، فبدا كل شيء موشى بنورها ملتحفاً بضيائها. وشعرت آنئذٍ أن الحياة انبعثت في كل ما يرى، من جديد، فظباء الفلاة أخذت تتلفت نحو مصدر الحياة السماوي، ورمال الصحراء أخذت ترقص طرباً وحبوراً، وأزاهير غوطة دمشق وأشجارها نفضت عنها رداء الليل البهيم، ووجهت وجهها نحو الشمس وحنت رؤوسها إجلالاً لها. ملأ قلبي بعض هذه الحياة التي انتشرت في كل شيء فملأت فراغه، وأشاعت فيه امتلاء روحيّاً. ووقفت في مكاني مشدوهاً لا أتحرك ولا أتلفت، حتى كأنني أصبحت جزءاً من جبل الشيخ. وعندها سرت في نفسي شرارة من عزيمته وثباته، فرأيتني أحس بقوة ونشاط عجيبين، وطال

استمتاعي بالمنظر الخلاب، تتبدل فيه الألوان دقيقة بعد دقيقة، وتتوالى فيه الصور مع تبدل الألوان، حتى صاح صديقي «أُنظر». فتلفت إلى حيث أشار فرأيت ظل جبل الشيخ مبسوطاً على سهل البقاع والجبال الواقعة إلى الغرب منه، ثم رأيت هذا الظل المديد يتقلص تباعاً لارتفاع الشمس في الشرق.

هكذا تمت أمنيتي مرتين، فعرفت جبل الشيخ. وانحدرت منه مرة في الليل وأخرى في النهار. فالمرة الأولى كان نزولنا في وادي جنعم الحجري الملتوي، وطال سيرنا فصرفنا أربع ساعات هبوطاً حتى وصلنا شبعا. وكانت الساعة الأخيرة من سيرنا بين بساتين شبعا، لكن الظلام كان حالكاً فلم نتبين منها شيئاً. وأي لذة شعرنا بها، وأي سرور شملنا، لما أوينا إلى فراشنا تلك الليلة بعد صعود استمر عشر ساعات، وهبوط استمر أربع ساعات وكانت غايتنا في السير قمة جبل الشيخ.

أما هبوط النهار فكان عوداً إلى راشيا. وأطبق دليلنا فما يحدِّث ولا يغني. ومن غنى في الليلة المقمرة يصمت في النهار، ومن رأى شروق الشمس من قمة جبل على بادية الشام يطبق جفنيه لتنطبع هذه الصورة في ذهنه. وهذه سنوات تمر على ذلك اليوم، والصورة لا تزال ثابتة في خيالي كأنها وليدة صباحي هذا.

ونحن في انتقالنا من شبعا إلى حاصبيا نجتاز وادي التيم من شرقه إلى غربه، ونعبر نهر الحاصباني وهو ثالث فروع نهر الأردن الكبيرة، ونمرّ بقرية الهبارية، القرية التي استغرب أهلها زيّنا، وكنا نرتدي السراويل القصيرة، وسألونا إن كنا جنوداً فارّين أو بائعي حكمة (أي عقاقير). وأهل الهبارية فخورون بسبيل الماء الذي أنشىء ببلدهم. فقد نقشوا عليه «وجعلنا من الماء كل شيء حي. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. حبذا أهالي الهبارية وحبذا سعيهم المأثور وثباتهم المشكور. بذلوا في سبيل بغيتهم النفائس فباؤوا بنجاح باه باهر أجرى عليهم ماء سلسبيلاً وشراباً طهوراً، فاشرب أيها الوارد وادع بالخير للنزيه الهمام زكي قدري بك الذي بفضل همته الشماء تسنى جر هذا الماء لهذا البلد الطيب فأحيا الزرع والضرع. وهذا من بعض آثاره الكريمة حياه الله وبياه سنة ١٣٣١».

وأنت لو انحدرت إلى الشرق من جبل الشيخ لهبطت إلى الطريق الموصلة بين دمشق وبيت جن الشامية، وهي الطريق التي اجتازها ابن جبير.

هذا، جبل الشيخ. وإن زيارته لأمر حري بأن يقوم بها كل عربي ليرى كيف يثبت الشيخ على عوادي الدهر، لعلنا نتعلم منه درساً في الحياة.

٣. من صنين إلى الأرز

نحن على قمة جبل صنين.

كنا قد وصلنا نبع صنين بعيد الظهر، وكنا قد سرنا إليه من ضهور الشوير، في

طريق وعر لكنه جميل، بين أشجار تتكاثف حيناً وتتباعد حيناً آخر، وبين ينابيع متعددة، وينابيع لبنان كثيرة كريمة. وكان الجوع قد نال منا، وكان الجمال قد نلنا منه، فجئنا النبع القوي العذب، نستمتع بخرير مائه، ونستجلي محاسن وادي بسكنتا (وادي الجماجم) ونلتهم طيبات ما رزقنا الله عند صاحب المنزل القائم فوق العين. وما إن نلنا هذا كله حتى كان النشاط قد عاد إلينا، فرنت أعيننا إلى صنين، وعقدنا النية على التسلق فقال قائل: الوقت متأخر، فلن تصلا إلا والشمس قد آذنت بالمغيب. وأعجبتنا الفكرة التي قصد منها تحذيرنا، فزادتنا شوقاً إلى الصعود. فأشار صاحب المنزل إلى الطريق. لكننا كنا قد اعتزمنا أن لا نسير في طريق ملتوية طويلة سهلة يسيرة، ورأينا أن نجابه الجبل رأساً فنصعد فيه باستقامة. وبلغ الجبل أن اثنين من البشر تحدياه، فضحك في نفسه وتذكر أنه قد قيل في أشباهه:

رسا أصله تحت الثرى وسما به إلى النجم فرع لا ينال طويل

وقد فات الجبل أن الأرض التي تحمل مثله قد أنبتت جيلاً من البشر فيه «شباب تسامى للعلى وكهول».

وأخذنا نصعد فيه، فتبطّنا الوادي، وأدرك الجبل الأشم أن عزمنا قد صح فأخذ يقذفنا بأسلحته الواحد تلو الآخر. فحجارته تتدحرج تحت أقدامنا فنتعثر، وصخوره تغرينا بالدوس عليها ثم تروغ فتزلق أقدامنا وأشواكه تلتف على أرجلنا فتدميها. وقضينا ساعة ونصف الساعة ونحن في هذه المشادة، وكلما حسبنا أننا على وشك الوصول إلى القمة رأينا الجبل يتسامى كأنه يسابقنا.

ولكن أدرك الجبل أخيراً أن زائريه لن يتراجعا فكفّ عن تحديه وهدأت ثائرته واستعاض عن لذع أشواكه برائحتها الزكية، وهشَّ لنا. ووصلنا إلى القمة.

كان صنين شريفاً في خصومته. فما إن رآنا قد بلغنا غايتنا حتى انبسطت أساريره، وضمنا إلى صدره وحنا علينا وغمرنا بهدوئه وجلاله، وملأ نفسينا شعوراً بأننا جزء منه فشعرنا بالشمم والإباء يجريان في عروقنا. ثم طفق الجبل يحدثنا حديث الند للند، فقصَّ علينا قصته في عذوبة ورقة، لكنها عذوبة فيها قوة، ورقة فيها عزم، وهو يهيب بنا أن ندرك سر عظمته. ثم أخذ صوته يخفت حتى صار همساً نكاد لا نتبينه، وأصخنا السمع فإذا بالجبل يشير إلينا أن نصمت ونفتح أعيننا، لأن وقت العبادة قد حان.

خشعنا، واتجهنا إلى حيث أشار، فرأينا الشمس تنحدر بتؤدة ورفق نحو البحر، ورأينا نورها يضعف شيئاً فشيئاً، فيبهت لونها، ويستحيل احمرارها شحوباً واصفراراً، وأنها لتمسّ الماء، فتشعر أن ساعة هلاكها قد دنت، فتعود إليها رغبتها في الحياة وتحاول للمرة الأخيرة أن ترتفع، ولكن الجهد الذي تبذله كبير لا تستطيع أن تتحمله فتخر صريعة وقد تضرجت بدمائها. وتنتشر هذه في الأفق، وترأف غيوم المغرب

بالدماء المراقة فتلمها وتتصبغ بها، فيحمر الأفق الغربي كله إذ آلمه أن يؤول أمر ربة النور إلى مثل هذا. ويسود الكون صمت تحلو معه العبادة، فيردد صنين صلاته، وتنقلها الأودية منه، وتحمل الينابيع صداها إلى البحر. ويقف الزائران مشدوهين. فالجمال أكثر من أن يحيط به وصف، والألم أكبر من أن يحدّ، والهدوء لا يشوبه شيء، فيفزعان إلى الصلاة، وهما على مقربة من السماء. وإذ هما ينظران حولهما، بعد أن ثابا إلى رشدهما، لا يريان شيئاً، فقد ألقى الظلام سدوله الكثيفة على كل شيء، فاستوى الجبل والوادي. ويبدآن النزول في هذا السكون الشامل، ودليلهما عصاً انطوت عليها اليد تتلمس لهما الطريق. ولكن صنين كان رفيقاً بهما في هذا الدور، فما خاصم ولا رمى بحجارته، بل إنه جنبهما الكثير من العثرات. ويقضيان ساعة وبعض الساعة، وإذا بنور النزول يبدو، وإذا بالكلب يعوي فيتمثل صديقي «عوى الكلب فاستأنست بالكلب إذ عوى»، وإنها لدقائق قليلة فإذا نحن عند الجماعة الطيبة، التي أقلقها تأخرنا فأخذت تعد العدة للخروج إلى الجبل تسأله عنا وتحاسبه عما فعل بنا. وتخرج من القوم تحية بالسلامة ممزوجة بالعتب الرقيق.

وهكذا أتيح لي أن أرى ولادة الشمس من قمة جبل الشيخ وهلاكها من قمة صنين.

وكان جسمنا بحاجة إلى الراحة، ولكن من يستطيع أن يترك صوت الماء المتدفق من الصفا وأحاديث أهل لبنان العذبة، ويأوي إلى فراشه. لقد أكسبتنا هذه نشاطاً من جديد فجلسنا إليهم نتحدث حتى مر من الليل شطر كبير، وتفرق السمار فتفرقنا معهم، وأوينا إلى الفراش، لننعم بالراحة، ونحلم.

ودعانا الفجر إليه، فهرعنا إلى الماء نحاول أن نغسل منه أيدينا ووجهنا فما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. لقد كان بارداً. فاكتفينا بما نلنا. وحملنا زاداً كان قد أعد لنا، وسرنا ـ وذكاء بعد لم تجمع كل قوتها ـ نهبط وادياً ونصعد جبلاً، فمررنا بنبع اللبن ونبع العسل. واجتزنا جسر الحجر، وهو جسر طبيعي نحتت منه المياه على توالي الأيام أجزاءه السفلى وتركته معلقاً كما لو أن مهندساً وضع تصميمه ويداً صناعاً بنته، وهو إحدى عجائب الطبيعة الكبرى في لبنان.

مررنا بقوم يحصدون ويزرعون ويعملون في الأرض، ولكن الأرض هناك ضنينة، ذلك لأننا كنا نساير أعلى أجزاء السلسلة الكلسية حيث تسقط المياه وتتسرب إلى طبقات التربة السفلى، فلا ينتفع بها ولا يستفاد منها، إلا حيث تتجمع فتنبع في صدر واد، دان أو قصيّ.

وأشرفنا بعد خمس ساعات على المكان الذي استأثر بمياه الجهة كلها، ذلك أننا انتهينا بعد اجتياز جبل معتدل الارتفاع إلى منابع نهر ابراهيم. فرأينا عجباً من الأمر. ماء يتفجر من صدر كهف اعتلى كتف الوادي، ويعجز الكهف عن حمله فينحدر في شلال صغير إلى بركة يتجمع فيها حيناً إلى أن تجمع قوته ويعود إلى السير. لكن كتف

الجبل التالي يعجز عن حمله فيهبط ثانية. ويتوالى هذا التجمع والهبوط في سلسلة من الشلالات، تغذيها ينابيع أخرى على جانبي النهر، وتغذي المياه بدورها عدوات الوادي وجنباته، فتكتسي بثوب من الخميلة أخضر. وتقع العين على هذا الجمال المتناسق المتسق من مياه تتعثر في سيرها، وأشجار الجوز الوارفة الظل وشجيرات منوعات مزهرة كالدفلة وغيرها، وكلها تتحدث بنعم الخالق.

أوينا إلى ظل شجرة نستريح ونمتع أنفسنا بهذا الذي نرى، وقال صاحبي: «هذا النهر هو نهر ابراهيم، وهو شديد الانحدار إلى الساحل، وقوته المائية كبيرة وقد كان ولا يزال يدير الطواحين في طريقه. ولو أن الكهرباء ولدت منه لكانت قوتها كافية لإنارة الجهة كلها وإدارة عدد كبير من الآلات. أما إبراهيم فاسم أحد الأمراء الذين حكموا هذه البلاد قبل مدة».

وقبلت ما قال صاحبي، فقد كان أعرف مني بجغرافية البلاد وتاريخها، لكن شيئاً من الريبة خالجني حول الاسم، فالنهر أقدم من أمير كان يحكم تلك الجهة، فما هي قصة هذا النهر؟

ولم يطل تساؤلي. فلم نكد ندخل الكهف الأول لنرى انبثاق الماء من الصخرة حتى سمعت صوتاً يسرّ في أذني «أن أصغ إلى قصتي ففيها متعة لك». وحاولت أن أتبين مصدر هذا الهمس فلم أتمكن، لكن الصوت استمر قائلاً «أنا قديمة العهد في هذه البقعة... وقد أعجبت بي الآلهة القديمة عشتاروت فأوت إلى صدري أحنو عليها وأرضعها. وتفيأت ظلال هذا الوادي، تنعم بخيراته خالية البال، حتى بدا لها يوماً شاب وسيم الطلعة جميل الخلقة، فأسر لبَّها، وملك عليها قلبها، فأغرمت به، وأغرم هو بها، وملأ الحب نفسيهما من كؤوسه، وعاشا في غبطة وهناءة. وكان اسم هذا الحبيب تموز، ولم يعرف أحد من أين جاء، ولكنه كان يتحلى بصفات اقتنعت عشتاروت أنه من الآلهة. وكان تموز يغيب عن حبيبته أياماً بلياليها يجوب فيها الآفاق فيوزع على البشر من بذور حبه ما شاء، فتنبت هذه في قلوبهم حباً قوياً، يعصف بهم حيناً، ويملأهم اطمئناناً حيناً آخر. وإذا عاد تموز إلى عشتاروت أحست هذه بأنفاسه تعطر الجو فاستقبلته وفي قلبها أغنية وفي نفسها سرور.

«وطوّف مرة بالآفاق كعادته، وعاد، ولكنه لم يكد يطل على الوادي، حيث تقيم حبيبته، حتى استشعر في وجهها وجلاً وفي نفسها اضطراباً، فأقبل عليها يسألها، فحدثته أن وحشاً قوياً اعتدى على الحي، وأخذ يعيث في الوادي فساداً، وأنه طاردها مرة وكاد ينال منها لولا أن عصمتها الأشجار منه. فطار صواب تموز، وتقلد سلاحه وأخذ يطوف في الوادي صاخباً منذراً، حتى وجدالوحش وقد أسند ظهره إلى صخرة قوية، وتدرّع للقتال. واقترب تموز منه، ونشبت بين الاثنين معركة صال فيها كل وجال، ونال من صاحبه ما شاء له القدر أن ينال. وثار ثائر الوحش فنبت له قرنان من شدة

غضبه، فضرب تموز بأحدهما فبقر بطنه، وخلاه صريعاً يتضرج بدمه، وفرّ هو كمن أصيب بالصرع، ولم يقف له أحد على أثر. وبلغت أنات تموز مسامع عشتاروت فأقبلت على الحبيب تضمد جراحه، وحملته إلى الماء تغسله فيه، لكن الدم الذي نزف كان كثيراً، فلم يقوَ تموز على مغالبة الموت الذي حمله إليه.

«ندبت عشتاروت حبيبها، واتخذت موعد وفاته يوماً تحيي فيه ذكراه. وسمعت النساء بما أصاب عشتاروت فحزنَّ على تموز وشاركنها أساها، وندبنه معها، وأقمن يوماً في السنة يحيين فيه ذكراه، حتى بلغ ذلك مسامع أحد الأنبياء فنهى فتيات بيت المقدس عن البكاء على تموز.

«وسالت دماؤه في النهر، فصبغته، ولا يزال الماء إلى يوم الناس هذا تجري فيه بقية من دماء تموز.

«وتبدل السكان القدماء بسكان جديدين، وعاشت بينهم ذكرى عشتاروت وتموز. لكنهم غيروا الاسم بحيث يتناسب مع لغتهم فقالوا عنهما أفروديت وأدونيس.

«وأنت يا صاح، إن سرت مع هذه المياه التي تنبع من هذا المكان ساعة وبعض الساعة، وصلت إلى أنقاض هيكل أدونيس حيث كان القوم يحيون ذكرى الصراع بين الخير والشر، بين الحياة والموت، وبين المودة والهلاك». وصمت الصوت.

وعاودتني ذكرى مكان آخر تنبثق فيه المياه من الصخر الأصم، وقد أقام الناس فيه هيكلاً لإله آخر. نعم في بانياس، حيث عبد «بان». وقلت في نفسي، ما أقدم الحياة في بلادنا هذه، وما أبعد مدى الفكر فيها. إن هذا يرجع إلى الوقت الذي كان فيه الناس يوزعون الآلهة على كل مكان ويفرقون بين خالق وخالق. نعم لقد كان هذا قبل أن يأتيهم من قال «تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك»، وقد كان هذا قبل من جاءهم برسالة ربه إذ قال «ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين».

فلما جاءهم الرسل بالبينات، عزف الناس عن تموز وعشتاروت وأفروديت وأدونيس، وبقيت أخبارهم أساطير يتندر بها الناس، وتهمس بها الأصوات الخفية في الكهوف النائية.

وانتهى بنا التطواف ذلك اليوم بالعاقورة، فقضينا فيها ليلة ماتعة حقاً، وسرنا مع شروق الشمس في اليوم التالي، فمررنا بعرب اللقلوق، وأقسمت نوخة بنت حسين الآمنة أن لا نبارح طنبها قبل أن نأكل: نذوق العيش والملح.

وتنقلنا من مكان إلى آخر حتى مررنا بوادي الدوير، وكان القوم يحصدون والشمس تلفح وجوههم. وقد انتهى أحدهم من عمله مبكراً، فانتبذ من دون الناس مكاناً قصيّاً، وأوى إلى ظل شجرة تقيه حر الشمس اللافح، وكأن الجو أطربه فأخذ يغني:

لأطلع لراس الجبل وأشرف على الوادي
وأقول يا أهل الجبل نسم هوا بلادي
أيمتى يسيل النهر تيجر الوادي
لحط صدري جسر لتعبر البنيّه

وردد الوادي غناءه، وحمله إلى آذان البنيّة.

وتسلقنا جبل بريصات، وأشرفنا على الوادي، وشعرنا بنسيم المساء يحمل إلينا عبيراً كان جديداً علينا.

أشرفنا من قمة الجبل على وادي قاديشا الذي يرتكز رأسه عند أقدام الأرز الخالد. وقد علا الأرز إلى السماء الزرقاء يطمع في عطفها، فانحنت عليه تقبله، وانهمرت دموع الفرح من عينيها، فأشفق الأرز وجبله على هذه الدموع أن تهدر فجمعها حبة حبة وأودعها قلبه. فلما ضاق صدره عنها، انبثقت ينبوع ماء صاف مقدس، كان له في يوم من الأيام إلهه، الذي زال مع غيره من الآلهة القديمة، واستبدله الناس اليوم بآلات تولد الكهرباء.

إنهما يومان قضيناهما بين صنين والأرز. يومان مليئان بكل ما يؤمله المرء، وما تطمع فيه النفس وما ترتاح إليه العين من معاني الجمال ولطف الأسطورة، ومعنى العبادة، وقيمة الخشوع. إنه جهد حقاً، ولكن الله لا يضيع أجر من يبذل مثل هذا الجهد.

٤. حصن الأكراد

نحن في القطار، وقد غادرنا طرابلس في الساعة السادسة من صباح يوم تبينا فيه حره اللافح من ساعاته الأولى. ولكن المسافر الذي استمتع بما كنا قد استمتعنا به، والذي يأمل ما كنا نؤمل، لا يذكر حراً لافحاً، ولا يعنى بوهج الشمس، وإنما ينصرف إلى ما حوله، فتلتهم عينه الصور التهاماً، وتحاول أن تحتفظ بها ذخيرة للمستقبل وعدة لوقت لا يتاح لها فيه أن ترى مثل هذا الذي يمتد أمامنا مسافات طويلة.

كانت طريقنا تجتاز سهل البقيعة، وهو الوادي العريض الذي يفصل جبال لبنان الشمالية عن جبال النصيرية. يفصل الجبال بعضها عن بعض ليربط السهل الساحلي بالسهل الداخلي، وليربط موانىء البحر المتوسط بموانىء البحر الرملي الممتد إلى الشرق.

كان القطار يخترق السهل ويداور ما فيه من تلال ويروغ من وجه المرتفعات، شأنه في ذلك شأن جيوش القدماء التي كان الملوك يبعثون بها من طرابلس لتحتل حمص. وكنا، ونحن نراقب البلاد التي نمر بها، نسمع في وقت واحد أصواتاً متباينة الأصل مختلفة القوة متشعبة القصد. فصوت القاطرة تخنقه حيناً ضجة تتصاعد من الأرض،

فيها وقع أقدام الخيول وجرس أعنتها وصليل السيوف وأصوات المركبات، وتمتزج بهذه أصوات الباعة وقوافل التجار تنقل البضائع على جانبي الطريق. وكأن هذه كلها تحدثنا عن الناس الذين اجتازوا الطريق قبلنا جماعات ووحدانا، وكلهم له في سيره غرض يخفيه حيناً ويظهره حيناً، وكأنما هم عند قول الشاعر:

كل من في الوجود يطلب صيدا غير أن الشباك مختلفات

وفجأة وقف القطار، وكانت المفاجأة لي، أنا الذي كنت آنئذٍ فريسة هذه الأصوات والصور، التي أخذت تنقلني من عالم إلى عالم نقلاً سريعاً لم يتح لي أن أتابعه. ونزلنا، وكانت قرية تل كلخ نقطة انتقالنا في ذلك اليوم. فتركنا الركوب وعدنا إلى السير، ونحمد الله على أن لنا أقداماً تمكّننا من السير إلى هذه البقاع النائية.

انحرفنا شمالاً، وأخذنا نجوس خلال الأماكن في طرق «قادوميَّة» تنقلنا من الباروحة إلى السنديانة الغربية، وحر النهار يشتد بنا، وسيرنا يتجه في صعود، حتى وقفنا أمام حصن الأكراد ووقفنا نتأمل هذه القلعة الضخمة الفخمة التي مرت عليها ستمائة من السنين أو يزيد منذ أن تخلى عنها آخر فارس كلّف بحراستها، ولا تزال مع ذلك تملي على الناظر إليها إرادتها، وتفرض عليه سلطانها، وتحتم عليه أن يقف وقفة إعجاب وخشوع، وكأنها تشفق عليه أن يؤخذ بالضخامة والعظم فتذكره أنها جميلة مع ذلك، فيتلفت إلى ذلك ويرى هذين السورين المتداخلين، الخارجي منهما أقل ارتفاعاً من الداخلي، تخرج منهما نتوءات ترتفع إلى الجو فتكونّ أبراجاً وحصوناً تسهل على أهلها الدفاع عنها. وتتناوب هذه الأبراج الاستدارة والتربيع فتجعل منها منظراً تقف العين عليه فتعجب بالمهندس الذي أقام قلعة يأوي إليها المحارب ولم يغفل مع ذلك عن إدخال عنصر التناسب فيها فيجعلها جميلة. وهذه الرنوك في أعلاها، والستائر، تقف سداً في وجه من يحاول أن يخترق الجدر ليستطلع خفايا القلعة.

ندخل القلعة ونطوف في أرجائها، فننتقل من سرداب إلى سرداب، ونقاد من قاعة إلى قاعة، وتطالعنا في أنحاء البناء المختلفة روائح هي مزيج من قذارة بعض سكانها الحاليين ومن أريج تاريخها المجيد العاطر. فبعض سكانها أبقار وأغنام وماعز، ذلك لأن القلعة يقطنها نحو ثلثمائة من البشر، ويحتفظون فيها بمواشيهم التي هي مصدر قوتهم ورزقهم[1].

وإننا لننتقل من جزء إلى آخر، نستجلي ما خلفه بُناتها وسكانها الأقدمون، فإذا بنا في قاعة فخمة واسعة عالية الجدر قاتمة اللون مما علق بها من الهباء والدخان. وبينا نحن على هذه الحال إذ بي أرى الجدار ينشق برفق وهدوء، ويخرج منه رجل مجلل بالسواد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وعلى جانبه سيفه. وأكاد أصرخ فزعاً، ولكن إشارة منه تطمئنني، فيزول من نفسي الروع الذي كاد يهزمها، ويشير إليّ الرجل الأسود، أو الفارس الأسود، فقد تبينت الساعة أنه فارس، أن اتبعني، فأتبعه وأنا مسيّر

لا مخيّر. ويسير بي من دهليز إلى دهليز حتى يصل إلى ساحة واسعة، تنتهي بأحد هذه الأبراج التي كنت قد رأيتها من الخارج. وإذ يطمئن إليّ يبدأ بالكلام. ولم أفهم كلامه، فإنه كان رطانة لا عهد لي بها، لكنه يعينني على فهمه بالإشارات الكثيرة. وأُدرك أنه يروي لي قصة، فأُجهد نفسي وأحاول تتبع حركاته وسكناته، وأستخلص منه الكثير من الذي قال. لقد كان أحد فرسان هذه القلعة، وكان من فرقة رجال المستشفى الصليبية، وهذا الصليب الذي يكسو جزءاً من ردائه الأسود علامة على ما يقول. كان أصل فرقته، على ما حدثني، جماعة دينية أنشئت في هذه البلاد ومركزها القدس وغايتها مساعدة الحجاج الأوروبيين، والمرضى والفقراء منهم على الخصوص، ليقوموا بفريضة الحج إلى الأرض المقدسة. وكانوا مطمئنين إلى حياتهم في البلاد في حماية أهلها العرب الكرماء، لا يكدر عليهم صفو عيشهم مكدر، ولا يطمعون هم بغير خدمة المحتاجين والمعوزين من أبناء بلادهم. ثم قال: «ودار في خلد أهل بلادي الأوروبيين أن يأتوا إلى هذه البلاد جماعات كبيرة محاربة، فجاؤوا واحتلوا الأرض المقدسة وما جاورها، وبنوا القلاع للدفاع عن أنفسهم ضد أهل البلاد، واحتاجوا إلى من يعمر هذه القلاع والحصون، فوكلوا أمرها لنا، فانتقلنا من رجال دين نعنى بالبائس إلى رجال دين وسيف نقاتل ونحارب ونجالد ونحمل السيوف ونثخن في خصومنا الجراح دون أن نضمدها. وها نحن يا سيدي نجمع بين النقيضين. فلا يطلع الفجر حتى نكون قد صلينا مرتين، ولا تشرق الشمس حتى نكون قد أخذنا أجسامنا بالتمارين الشاقة، ولا ينتصف النهار حتى نكون قد بحثنا شؤوننا وفصلنا قضايانا وعاقبنا المذنب منا بالحرمان أو الجلد، فإذا جلسنا لنأكل صمتنا كلنا وانفرد منا واحد يقرأ لنا آيات من الإنجيل. فإذا كان العصر امتطينا خيولنا ولعبنا على ظهورها بسلاحنا خشية أن يصدأ وتصدأ معه الأيدي التي تحمله، ودرنا خلال المنطقة نستطلع خبر الخصوم. فإن كان ثمة منهم أحد التقينا واقتتلنا ودارت الدائرة على أحد الفريقين فكان نهب وسبي للفريق المنتصر. ومتى هلكت الشمس صلّينا وأوينا إلى مخادعنا بعد أن أقمنا العسس على الأبراج يحرسها ويتسقط الأخبار فيوقظنا إن ألم بنا طارق».

وهممت بسؤال الفارس الأسود عما آل إليه أمره وأمر أصحابه فلم أجده، وخلت أنني كنت أحلم. ولكنني لمحت غباراً يعلو فجأة أمامي فيغبر منه الأفق، وسمعت جلجلة وصليلاً، ثم انقشع الغبار وظهرت أمامي صورة لم أعهدها في تلك الجهة لما وصلتها. لقد كانت الأرض جبالاً ووهاداً وأودية وسهولاً، لكنها الآن تتحرك وتتنقل. لقد غطت الأرض جيوش قادمة تقصد القلعة، فأحاطت بها من كل جانب، ولم تلبث أن خرجت منها صيحة زعزعت كل ما حولي. لقد كانت الضجة في لغة فهمتها. فزعت إلى صديقي أفتش عنه لأحمل إليه الصورة التي شاهدت، ولأحمله على القدوم إلى حيث أنا، فلم أستطع إلى الاهتداء إليه سبيلاً.

وتلفت حولي، فإذا بي أمام فارس يحمل قوساً ويتزين بسيف جميل ويرتدي جبة واسعة وتعلو رأسه عمامة، وإذا به يحدثني بلغتي، فأفهم كلماته وإشاراته دون عناء أو جهد. فينبئني أن هذا الجيش الذي رأيته يغطي السهل والجبل كان جيش الملك الظاهر، وقد اعتزم الملك أن يحتل به القلعة، وكان قد ضرب عليها حصاراً قبل أيام، فقطع السبل على قاصديها، فاضطر أهلها، أي سكانها من فرسان الإفرنج، إلى التسليم. وقد أخلوها، فعادت إلى أهل البلاد وأصحابها.

وصمت الفارس برهة ثم أشار إليّ أن أتبعه لأرى ماذا حدث في هذه الفترة. فتبعت، وأنا لا ألوي على شيء، وسرت مفتح العين والأذن، أملاً أن أدرك هذا الذي أرى، فإذا القاعة الكبيرة قد غصت بالفرسان الذين كانوا على شاكلة رفيقي هذا، وإذا بهم يتناشدون الأشعار العربية، ويروون الأحاديث. وإذا بهم يخشعون فجأة لأن قارئاً بدأ يرتل القرآن، ويدعوهم إلى الصلاة فيلبون. فإذا فرغوا من صلاتهم، وقد امتلأت قلوبهم خشية لذكر الله، انصرفوا إلى طعامهم ينالون منه، ثم عمدوا إلى خيولهم يمتطونها وقد تقلدوا أسلحتهم وشدوا أزر بعضهم بعضاً. وما إن وصلوا السهل حتى تفرقوا جماعات في أنحائه الواسعة.

قال الفارس وقد علت وجهه ابتسامة الظفر والسرور: «إن القوم بعد أن نالوا حظهم من العبادة، خرجوا إلى الصيد. والصيد يا أخي، رياضة الفارس وسلوته ومجال تمرينه. وهذه الأرض التي تمتد أميالاً إلى الغرب، غنية بالصيد على اختلاف أنواعه، ففيها الغزلان والثعالب والأرانب والحجل والدراج وطير الماء، تحتمي كلها في الأزوار فيتابعها الفرسان بقسيّهم ونشابهم وبزاتهم وصقورهم وكلابهم فينالون منها وتنال منهم، فيصطادونها وتنهكهم. ولكن هذا الجهد الذي يلقونه هو الذي يصون لهم مقدرتهم على حمل السلاح والضرب به متى جدَّ الجد. فنحن في حرب، ونحن أمام خصم اعتدى علينا واستقر في دورنا ونعتزم استعادة أرضنا منه، واسترداد بلادنا. وما نتمكن من ذلك إلا إذا كنا في كل ساعة على أتم الأهبة والاستعداد. فإذا عاد هؤلاء الفرسان من رياضتهم أو حربهم أو لعب الصوالج والأكر، عنوا بخيولهم وهي لهم كالإخوان، ثم اجتمع بعضهم إلى بعض فتذكروا الشعر ورووه وتطارحوا الحديث وقلبوا أفانينه وسمعوا القرآن واتعظوا به واهتدوا بهديه، فكان لهم غذاء روحيّاً فيتم الله نعمته عليهم».

وشعرت بصديقي يلكزني ويهمس في أذني أن أفق: فلا يجوز أن تنام والناس يكرموننا. فأفقت مذعوراً، ولكنني تذكرت الحلم.

وكان الجماعة قد هيأوا لنا خبزاً مصنوعاً من الذرة البيضاء وبيضاً مقلياً فأكلنا منه ما شاء لنا الجوع أن نأكل. وأراد القوم إكرامنا فقدموا لنا شيئاً مصنوعاً من اللبن الرائب المجفف المكسو بطبقة من السعتر وكأنه قد مرت عليه سنون وهو مخزون،

فكرهنا رائحته، ولم نذقه، وحز في نفوسهم أن نرفض إكرامهم إيانا «بالقريش» أو «الشنكليش»، ولكننا لم نستطع إلى إرضائهم سبيلاً.

وخرجنا من القلعة ـ قلعة الحصن ـ وسرنا إلى برج صافيتا. خرجت وأنا أتلفت ما استطعت إلى التلفت سبيلاً، آملاً أن تنطبع صورة القلعة في ذاكرتي كما انطبعت قصة هذين الفارسين: الفارس الذي انكسر وانهزم، والفارس الذي انتصر وأقام، وخلفه في حصنه وبرجه أحفاده وأحفادهم من بعدهم، ولكنهم ليسوا منه إلا في الاسم. واستغربت ذلك، ولكنني أدركت بعد حين ـ بعد زمن طويل ـ أن ذلك الفارس كان يؤمن بحقه فدفعه إيمانه إلى السير إلى الإمام، وأن أحفاده فقدوا إيمانهم بحقهم، فضاع حقهم، ووصلوا إلى ما هم عليه. وقلعة الحصن تمثل الأريج الذي يخرج من بطون التاريخ فيعطر الجو، والرائحة التي تنبعث من سراديب القلعة اليوم فيضيق بها الصدر وتضيق بها النفس.

وسرنا إلى برج صافيتا، ومررنا بدير القديس جريس. دير بناه البزنطيون ولا يزال قائماً إلى الآن، لكنه مثل القلعة، عربي الهوى والفؤاد. ففيه مدرسة لتخريج رجال الدين لكنها مدرسة عربية أنشأها الدكتور أيوب تحت رعاية المغفور له البطريرك غريغوريوس حداد.

ووصلنا إلى برج صافيتا. إنه برج آخر من هذه القلاع العديدة، المختلفة ضخامة وقوة، المنتشرة في هذه المنطقة من البلاد. بناها الحكام للدفاع عن البلاد ضد خصومهم من جيرانهم، فلما زال الخصم الخارجي اتخذها أصحاب النفوذ مراكز للضرب على أيدي من تحدثه نفسه بالثورة أو العصيان ضد رغباتهم.

وكان مساء صافيتا حافلاً بمجموعة من الاختبارات، الحسن منها والسيىء، ولكنها اختبارات توحي إلى المرء الكثير من الخير، وتبعث في نفسه رغبة في أن يفتش عن سبيل للإصلاح.

وأويت إلى فراشي، وأمامي صورة قلعة الحصن وما رأيت فيها وما سمعت ولا تزال الصورة أمامي، ولا أزال كلما أذكرها أردد قول الشاعر:

والحق والإيمان ان صبا على برد ففيه كتيبة خرساء

وآمل أن يأتي اليوم الذي أرى فيه أبناء قومي يؤمنون بحقهم ليكون منهم خير لأنفسهم ولبلادهم وقومهم.

٥ ـ في بلاد المعري

خلّفنا حلب وراءنا. وكان اليوم حاراً، والأرض جافة والطريق صيفية، والسيارة مضطربة عصبية. ولم تكن تنهب الأرض نهباً، بل كانت تسير سيراً عادياً. فإن السيارات، في تلك الأيام، وقد بعد بسفرتنا تلك العهد، لم تكن تستطيع أكثر من طي

تلك السهول طياً عاديّاً. وما كان أكثر تعريجها على أحياء الناس. فثمة حاجة إلى الماء، وثمة حاجة إلى إراحتها، فقد اشتدت الحرارة فيها، وثمة حاجة إلى إصلاح مجرى الزيت. وكل تلك أمور تثير الأعصاب وتجعل السفر أمراً صعباً. لكن لماذا تثور أعصابنا ولماذا نكره السفر؟ ألم تكن المدة التي قضيناها في حلب، على قصرها، كافية لتزويدنا بما نفكر به فننسى غبار الطريق وشتائم السائق وصخب بقية المسافرين؟ أليست قلعة حلب بضخامتها واستيلائها على مركز البلد وإشرافها على شؤونه، أمراً يذكره المرء مدة طويلة؟ أليس في هذه المدينة ما يذكر المرء بأيامها الماضية لما كانت مركزاً رئيساً للاتجار الداخلي؟ ألم يقل عنها ابن جبير إن أسواقها كانت مليئة بالتجارات والصناعات، بحيث تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى، وكل ذلك مرتب منظم؟ بل أليست حلب مقر سيف الدولة وعاصمة إمارته؟ وسيف الدولة هذا صاحب المتنبي، ومن يتذكر حلب ولا يربط اسمها بهذين الرجلين الفذين: صاحب السيف ومالك عنان الشعر؟

وتنقّلت بي أفكاري ونحن نجتاز هذه البقاع، فحامت حول هذه الطرق ومن اجتازها قبلي من الأمم والأفراد، وتذكرت الجيوش التي جاءت وحاربت وهدمت ودمرت، والناس الذين عمروا وزرعوا وأحيوا الأرض. وقارنت التدمير بالتعمير والقتل بالإحياء. ومرت برأسي أخبار الأمم التي سكنت هذه الجهات منذ أن عمر الناس الأرض التي أورثهم الله، وترددت في نفسي الأساطير التي خلقها الناس ليفسروا أسماء البلاد والمدن. قالوا حلب، من حلب إبراهيم لنعاجه فيها، وقالوا غير ذلك. وانفتحت أمام ناظري هذه الآفاق الواسعة من التاريخ الذي أوجدني وأوجد البلاد التي أجتازها. فرأيتني أقع في ذاكرتي التاريخية على أمم وشعوب ذات لغات مختلفة، تعمر هذه الرقعة من العالم، فتنشر لغتها، وتنشر ثقافتها، وتنشر علمها، وتنشر شرعها، وتنشىء المدن لتجعل منها مراكز لنشر كل هذا. ولكن علمها وحضارتها ولغتها تقتصر على المدينة، ولا تنفذ إلى أعماق القلوب خارجها. حتى تأتي جماعة أخرى، لها من أيمانها دافع، ولها من يقينها باعث، ولها من اقتناعها وازع ولها من خلقها رادع، فتنشر عنصرها العربي، وتنشر لغتها العربية وينتشر إيمانها في الربوع كلها، وتلحق به اللغة أو تجاريه. فتصبح لدى كل الناس، أميرهم وغنيهم وفقيرهم وتاجرهم وصانعهم وراعيهم وزارعهم. وتصبح في جميع المنازل: المدينة والقرية والقصر والكوخ والقلعة ـ تصبح لهذه كلها لغة واحدة، يتاجر فيها الناس ويتعلمون ويصلّون ويخشعون ويحبون. وعندها تتوحد الحياة التي كانت متشعبة التفكير، ويصقل الفكر الذي كان متباين الغايات مشعث الأهداف. ويخرج من هذا كله هذا الرجل الذي يسميه الناس المتنبي، والذي ينشد بيتاً من الشعر في مصر فتردده دجلة ويتغرب لا مستعظماً غير نفسه، ولا قابلاً إلا لخالقه حكماً، فيؤمن على قوله أولئك الذين يرون نفوسهم لا تطيق اللحم والعظما، فيحقرون الدنيا ويزيدون في كرائهها قدماً.

وأنا في هذه الأفكار، إذا بالسيارة تقف أمام بيوت عدة، لا هي بالقليلة فتكون قرية ولا هي بالكثيرة فتكون مدينة، ولكنها أمر بين الأمرين. وحسبت أن السيارة أوقفت لتعالج. لكنني لم ألبث أن أدركت خطأي، لما ذكر الركب أنها المعرة ـ معرة النعمان. فعدت إلى دنيا الناس، وعجبت لهذه الحياة التي تنقلك من عالم الفكر مع المتنبي، فتجد نفسك في عالم الناس ولكن في بلدة المعري.

كدنا لا نعرف أنفسنا. فقد كان الغبار قد تراكم على وجوهنا فصبغها بلون التربة الحمراء. ولم يكن من المتيسر إزالتها البتة، فاكتفينا بإزالة القليل منها على النحو الذي تيسر لنا، وسرنا نحاول التعرف إلى الجو الذي عاش فيه أبو العلاء. فكان أول ما طالعنا منه قبر نور الدين الشهيد، في مكان يعرف باسم مدرسة أبي العلاء. والمدرسة هذه كتاب في مكان قديم متهدم. ونور الدين الذي أحيا من دنيا الإسلام يوم أن تصدعت ما أحيا، ينظر الناس إلى قبره فلا يعرفون أقبر شخص عادي هو أم قبر هذا الذي هيأ لصلاح الدين أن يضرب الصليبيين.

كان بي شوق إلى قبر المعري. فقد أعجبني من قبل ذلك الذي تساوى عنده صوت النعيّ وصوت البشير، فذهبنا لزيارة «مولانا أبو العلا». مولانا؟ نعم لقد أصبح المعري في بلده وليّاً من أولياء الله، يعلو مثواه خشب بقماش أخضر، وتعلو مكان الرأس منه عمة، ويتقرب الناس إلى الله بقراءة الفاتحة في مقامه، ويربط قطع من القماش البالي على باب المكان الصغير وطاقاته. وكأن رهين المحبسين في حياته أبى إلا أن يكون له بعد وفاته محبس ثالث، فاقتصر قبره على هذه الغرفة الصغيرة المظلمة. وقد تلطف أحد الناس فكتب على ورقة علقت على جدار الغرفة بيتين من الشعر هما:

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة نقية صاغها المولى من النطف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها فأرجعها رحمة منه إلى الصدف

هذه حالة قبر أبي العلاء[٢]. وإن الأمر لمؤسف حقاً. وقد تذكرت هذه الحالة مرات لما زرت قبور عظماء الأمم الأخرى. فرأيتهم قد جعلوا قبر الواحد منهم ومثواه مكاناً يعبر عن حياته. فثمة متحف صغير يحوي آثاره أو مكتبة تحوي نسخاً مختلفة من الكتب التي ألفها أو غير ذلك من آثاره في حياته.

خرجت من قبر أبي العلاء ناقماً ساخطاً، وقضيت ساعات في المعرة بعد ذلك وأنا ناقم ساخط، وتناولنا بعض الطعام في شبه مطعم أبى أن يبذ قبر المعري في نوره ونظافته، حتى إنه لولا جوع شديد لما جلس المرء فيه ولا أكل.

كنت أفكر بالمعري، لما عدنا إلى السيارة لنستأنف السير إلى حماة. وجلسنا فيها، وعادت إلى شنشنتها، تسير حيناً وتقف حيناً وتصرخ مرة وتعوي مرة. وكان الجهد والسخط قد نالا مني، فلم ألبث أن أخذتني سنة من النوم، نقلتني من عالم القيود إلى عالم الحرية، ومن دنيا الواقع إلى دنيا الأحلام، فرأيت رجلاً شيخاً صغير الجسم

قاعداً على سجادة لبد، وهو مجدر الوجه نحيف الجسم، وأنه ليتحدث إلى الناس فيعلمهم اللغة وآدابها، فإذا انصرفوا من عنده، وانفضّوا من حوله، انصرف هو إلى عدسه وتينه، يأكل منها ما تيسر له، وعاد إلى كتبه يقرأ له فيها، وإلى تفكيره وبحثه. فإذا وقع على المعنى الجيد في نفسه وصاغه شعراً أو نثراً أملاه على من كان عنده، ليكون من بعده ذخراً لنا، نحن الذين نقرأ شعر أبي العلاء فنجد فيه غذاء روحيّاً ومتعة فكرية ولذة نفسية. وسمعت هذا الشيخ يردد هذين البيتين من الشعر:

أراني في الثلاثة من سجوني ... فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي ... وكون النفس في الجسم الخبيث

وسمعت المعري يقص على من كان حوله أخبار تنقّله في طلب العلم. فما كانت المعرة على ثراها وجاهها، وعلى ما كان في بيت الرجل وآله من علم وفضل، لتكفي أبا العلاء أو تشبع ما فيه من ميل للعلم. فذهب إلى طرابلس، وسافر إلى اللاذقية وانتقل إلى بغداد، وهذه كانت عواصم الفكر في أيام صاحبنا في القرن الثالث للهجرة والقرن التاسع للميلاد. وأقام المعري في بغداد سنة وبعض السنة ثم رحل عنها، إذ إنه لقي بعض الشر من أصحاب النفوذ فيها. وكان سبب الخصومة بينهم وبينه تعصبه للمتنبي ونقمتهم عليه. واشتد شوقه إلى أمه وهو ببغداد، وشعر بفقره، فودع بغداد وأهلها ورحل رغم أن أهل بغداد حاولوا أن يثنوه عن عزمه، وحاولوا أن يغروه بالبقاء لما عرفوا من علمه وأدبه.

وكأني سمعت المعري يذكر شوقه إلى بلده فيقول:

وكم همَّ نضو أن يطير مع الصبا ... إلى الشام، لولا حبسه بعقال
فيا برق ليس الكرخ داري وإنما ... رماني إليه الدهر منذ ليالي
فهل فيك من ماء المعرة قطرة ... تغيث بها ظمآن ليس بسال

هذا، وماء المعرة ماء آبار، وماء بغداد ماء دجلة العذب.

وصان المعري في بغداد ماء وجهه، فأشار إلى ذلك في تشوّقه إلى الشام فقال:

أنبئكم أني على العهد سالم ... ووجهي لما يبتذل بسؤال
وأني تيممت العراق لغير ما ... تيممه غيلان عند بلال
فأصبحت محسوداً بفضلي وحده ... على بعد أنصاري وقلة مالي

ثم يروي هذا الشيخ الصغير الجالس على اللبد أبياتاً أخرى يخاطب فيها أهل وطنه:

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة ... تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
فأذهل أني بالعراق على شفا ... رزيّ الأماني لا أنيس ولا مال
وماء بلادي كان أنجع مشرباً ... ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال
فيا وطني إن فاتني بك سابق ... من الدهر فلينعم لساكنك البال

لكن موجة من الأسى تمر بذلك الوجه الحزين، إذ يروي لي، وقد خلت أنه يروي لي وحدي، أن الشوق إلى بغداد عاوده فقال:

يا لهف نفسي على أني رجعت إلى هذي البلاد ولم أهلك ببغـداذا
إذا رأيـت أمـوراً لا توافقنـي قلت الإيـاب إلى الأوطـان أدّى ذا

ولما ودَّع أهل بغداد قال لمودعيه:

أودّعكم يا أهل بغـداد، والحشـا على زفـرات ما ينين مـن اللـذع
وداع ضنـيّ لـم يستقـل وإنمـا تحامل من بعد العثار على ظلـع
ألا زودونـي شربـة ولـو أننـي قدرت إذا أفنيت دجلـة بالجـرع
أظـن الليالي وهي خون غـوادر بردّي إلى بغـداد، ضيقـة الـذرع
وكان اختياري أن أموت لديكـم حميداً، فما ألفيت ذلك في الوسع

سمعت هذا كله من أبي العلاء، فقلت في نفسي: هو المعري يرى في كل بلد وطناً له، فإذا أُوذي في نفسه ونقم مرة، فإنما النقمة هذه أمر يسير لا يلبث أن يذهب ويبقى هذا الشعور العام لوطنه، وهذا الوعي القومي نحو جماعته.

وتلفت حولي فرأيت في زاوية الغرفة التي كنت فيها رجلاً كله آذان، يسمع ما يقال ويلتهمه، فاقتربت منه وسألته إذا كان هذا الرجل الذي يسمي نفسه رهين المحبسين، قد نجح في اعتزال الناس وانصرافه عنهم. فقال الرجل، وهو يهمس همساً خفيفاً كأنه يخشى أن يسمعه المعري فيغضب: «لا يا أخي. وكيف يستطيع من له شعره ونثره، ومن له درايته وخبرته، أن يعتزل الناس، وهل يتركه الناس لو تركهم؟ وكيف يجوز لهم أن يتركوه؟ أليس من حقهم أن يفيدوا من علمه، وأن يرووا شعره وأن يتعلموا نثره؟ أليس من واجبه أن يعلم أولادهم وشبابهم؟ إن أبا العلاء حملته على العزلة رقة في حسه. ولكن هذه الرقة والشعور بواجبه حملاه على أن يفعل هذا الذي ترى. فنحن في كل يوم لنا منه مدرسة لطلاب العلم ومدرسة لطلاب اللذة العقلية. فهو ينبوع فيّاض نغترف منه ولكننا لا نستطيع أن نفنيه. إنه لنا دجلتنا، كما أن لبغداد دجلة».

وصمت محدثي قليلاً، لكنه عاد يقصّ عليّ قصة جرت للمعرة وكان أبو العلاء مشاركاً فيها. قال: جاءت امرأة اسمها جامع يوم الجمعة إلى مسجد المعرة فشكت إلى الناس أن أناساً تعرَّضوا لها وأرادوها بمكروه، فانتصر الناس لها، وهدموا البيت، وأتلفوا ما فيه، فقال أبو العلاء في ذلك من قصيدة طويلة:

أتت جامع يـوم العروبـة جامعـاً تقص على الشهاد بالمصر أمرهـا
فلو لم يقوموا ناصريـن لصوتهـا لخلت سماء الله تمطـر جمرهـا
فهدّوا بنـاء كـان يـؤوي فنـاؤه فواجر ألقت للفواحش خمرهـا

لكن صالح بن مرداس صاحب حلب سخط على أهل المعرة ونقم عليهم. فجاء المعرة وخيم بظاهرها سنة ٤١٧هـ، واعتقل من أعيانها سبعين رجلاً. ففزع أهل المعرة

إلى أبي العلاء وسألوه تلافي الأمر. فخرج هذا الشيخ القصير الذي ترى إلى صالح، فلما مثل بين يديه سلم عليه وقال: «الأمير أطال الله بقاءه كالنهار المائع، قاظ وسطه وطاب إبراده، أو كالسيف القاطع لان متنه وخشن حدّاه (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)». فقال صالح: «لا تثريب عليكم اليوم. قد وهبت لك المعرة وأهلها». وقوّض خيامه ورحل. فقال أبو العلاء:

نجى المعرة منـ براثن صالح ... رب يفرج كل أمر معضل
ما كان لي فيها جناح بعوضة ... الله ألحفهم جناح تفضل

وصمت محدثي لحظة ثم قال: هذا المعري الذي يكره السياسة العامة، والذي رفض دعوات الحكام والأمراء، لم يتخلف عن أن يكون شفيعاً إلى صالح لما دعاه قومه وأهله. وقد أشار فيما بعد إلى هذه الشفاعة في شعره فقال:

فلما مضى العمر إلا الأقل ... وحمَّ لروحي فراق الجد
بعثت شفيعاً إلى صالح ... وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام ... وأسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبني هذا النفاق ... فكم نفقت محنة ما كسد

وأحسست كأن الأرض قد زلزلت بي، ورأيتني كأنني رفعت من مكاني وقذف بي من حالق، فصحوت وأخذت أتحسس نفسي، فإذا بالسيارة قد وقفت إحدى وقفاتها بعد أن صدمت حجارة اعترضتها بالطريق، وإذا بالسائق يصخب ويلعن. فالتفت إلي صاحبي، صاحب الرحلة، وقال أين كنت يا هذا، فقد عودتني أن تفتح عينيك لترى ما حولك. فأخبرته أنني كنت مع أبي العلاء، فقال ومن أجل ذلك كنت تردد:

صاح، هذي قبورنا تملأ الرحـ ... ـب فأين القبور من عهد عاد
سر إن اسطعت في الهواء رويداً ... لا اختيالاً على رفات العباد

فابتسمت وسألت أين نحن فقال: أُنظر إلى يمينك وأمامك تعرف أين أنت، فنظرت حيث أشار فرأيت شيزر على يميني، وحماة تنبسط أمامي. فقلت لصاحبي، هناك ولد أسامة بن منقذ، وهنا يرقد ياقوت وأبو الفداء.

وهكذا في يوم واحد مررنا بلاداً غنية بالذكرى، غنية بالعظمة الخالدة وإنما تحتاج إلى من يتذكر فيعيد بعض هذه العظمة. وأي شيء أحق بالذكر من سيف الدولة والمتنبي والمعري وابن منقذ وأبي الفداء؟

٦. في الطريق إلى جرش

ألقى الرفاق نظرة أخيرة على المدرج الروماني الجميل الذي تزدان به عمان، واتخذوا مقاعدهم في السيارة الصغيرة التي كانت ترابط عند أقدام التمثال المحطم الرأس، وقال قائلهم: «إلى جرش». وسارت السيارة الصغيرة تطوي الجزء من الطريق

بعد الآخر، والأصحاب الثلاثة صامتون إلا من ملاحظة عن مكان أو غير ذلك. فلما اطمأنوا إلى أن الطريق خير مما وصف الواصفون ودون ما هوّل الناس، انطلقت ألسنتهم من عقالها وتمتعوا بجمال هذا الوادي الذي بدأوا يقبلون عليه - وادي الزرقاء. ونشر أحدهم بين يديه كتاباً وتناول الثاني خارطة أخذ يتقرى فيها أسماء الأماكن التي كانوا يجتازون، بينما شغل الثالث نفسه بقيادة السيارة.

وتحدثوا ملياً وذكروا فيما ذكروه أن ذلك الجزء من ديار الشام المعروف يومها باسم شرقي الأردن، كان في القرن السابق للمسيح عرضة لنهب الناهب وسلب السالب. فقد كانت قبائل البدو تشن عليه الغارة تلو الغارة، وتحمل ما حوته مدنه من كنوز إلى منازلها المتنقلة. وكانت دولة الأنباط في البتراء تقود عليه الحملة إثر الحملة فتحتله أو بعض أجزاء، فإذا انسحبت منه عادت قبائل البدو إلى أعمالها في أنحائه. وبذلك تخربت تلك المدن التي كان اليونان قد أنشأوها وتعهدوها في ربوعه والتي كانت مشرقة المباني، جميلة الهياكل، فأصبحت وكأنها أطلال تنعي بُناتها.

وأشار الرفاق في حديثهم إلى أن هذه الحال دامت حتى جاء الرومان البلاد، واحتلوها؛ وامتد سلطانهم إلى سيف البادية، فأعادوا إلى شرقي الأردن طمأنينتها وأمنها، وعادت المدن إلى الازدهار. وذكر أحدهم أن السر في أن الغالب على بناء هذه المدن نزعة الفن الرومانية، مع أنها أنشئت لأول مرة في عهد اليونان، يرجع إلى هذا الدور الذي مرت به البلاد قبل احتلال الرومان لها.

عني الرومان بتنظيم الإدارة في سورية وبحماية البلاد من هجمات البادية؛ وفي سبيل الوصول إلى هذين الغرضين أنشأ الرومان عدداً من القلاع والحصون تمتد من جنوب عمان إلى درعا فتدمر فالفرات، وأعادوا إلى كثير من المدن المهملة قيمتها وعمروا مبانيها، فتقاطر إليها الناس واتخذوها مقراً لهم من جديد. فكانت زيزياء وعمان (فيلادلفيا) وجرش وفحل وبيسان ودرعا مما عمروه. وأدرك الرومان أن الجيش في البلاد هو عدتهم في المحافظة عليها، وأن سرعة انتقاله عامل مهم في ذلك، فبنوا الطرق التي كانت تصل بين هذه المدن، وبينها وبين مدن الساحل. فكانت عكا (بطلمايوس) وبيروت وما بينهما تتصل مع بيسان وفحل وجدارا وجرش ودمشق اتصالاً مباشراً على طرق مبنية من قطع كبيرة من الحجر كالتي كان يستعملها الناس في بعض مدن سورية إلى عهد قريب لتبليط عرصات الدور الكبيرة. وكان ثمة طريق تمتد من دمشق إلى فحل أو درعا، ثم يمر بجرش فعمان جنوباً. ولما احتل تراجان البتراء في أوائل القرن الثاني للميلاد وضمها إلى الأمبراطورية أتم الطريق بحيث أصبحت تصل إليها. وبذلك ارتبطت كل أجزاء البلاد بشبكة من الطرق يسرت نقل الجنود من مكان إلى آخر.

لكن الطريق متى أنشئت لا يقتصر استعمالها على الجيوش، سيما إذا كانت تجتاز

بلاداً جعلتها الطبيعة طريقاً للتجارة. فإن موقع شرقي الأردن بين الحجاز جنوباً وبقية سورية غرباً وشمالاً، والعراق شرقاً، جعلها بحكم الطبيعة من أقدم الأزمنة طريقاً للقوافل التي كانت تحمل متاجر اليمن والحجاز ونجد إلى تيماء والبتراء وغزة ودمشق. فلما انتشر الأمن والنظام على أيدي الرومان لمدى ثلاثة قرون، عاد إلى المدن نشاطها التجاري وأصبحت أسواقاً لكل أنواع المتاجر ومركزاً لكل القوافل. فازدهرت حياتها الاقتصادية، ونمت ثروتها، وزاد سكانها، وعادت إليها المباني المشرقة، والهياكل الجميلة، ونشطت مجالسها المحلية لتجميلها. وعني حكامها بتحسينها، فبقيت لنا من جراء هذه العناية وذلك النشاط، هذه الآثار الخالدة التي يشاهدها المرء في كل ناحية من نواحي البلاد.

فأنت واجد في كل مدينة من مدنها الكبيرة مدرجاً يتسع لأربعة آلاف أو أكثر من المتفرجين، كانوا يجتمعون فيه ليشاهدوا تمثيل الروايات لتي كتبها أبناء البلاد أو نقلوها عن اليونان. وأنت ملاق في كل مدينة ساحة ندوة كان الرومان يسمونها «الفورم» حيث كان يلبي أحرار المدينة دعوة رئيسها لاجتماع عام يقرر فيه من الأمور هامها. وأنت عاثر في كل منها على بقايا دار المشيخة حيث كان يجتمع مجلس المدينة لإدارتها.

وقد تأثرت هذه المدن بالنزعة الهندسية التي عرفت بها المدن اليونانية الهلينية؛ ذلك أن شوارعها كانت تتقاطع على زوايا قوائم، وتسير على خطوط مستقيمة، وكانت المياه العذبة الصالحة للشرب تنقل إليها من مسافات بعيدة. فقد نقلت مياه الشرب إلى درعا من مسافة خمسة عشرة كيلومتراً. كما عني المهندسون بالمجاري للتخفيف عن المدينة.

رافق هذا الاطمئنان والإثراء نهضة فنية قوامها أهل البلاد أنفسهم، فبدت آثارها في تزيين أرض البيوت والهياكل بالفسيفساء الجميلة التي تحوي أشكالاً ورسوماً بديعة. ولما كانت النصرانية قد أخذت تنتشر في تلك البلاد في هذه الأثناء، اهتم الناس ببناء الكنائس، ورُصِّعت أرضها بالفسيفساء التي شملت صور القديسين ومناظر من الكتاب المقدس. وثمة خارطة لفلسطين وبيت المقدس وفيها كنيسة القيامة، يمكن مشاهدتها إلى الآن في مادبا وغيرها من مدن شرقي الأردن.

وكان الرفاق قد شاهدوا الكثير من هذه الآثار التي تحدثوا عنها في مادبا وعمان، وزاد شوقهم الآن إلى جرش. ولم يقطع حديثهم إلا إشرافهم على وادي الزرقاء العميق. فأخذ سائق السيارة ينحدر في الطريق المؤدي إلى الجسر بحذر، حتى وصله. وهناك وقفوا وتأملوا المنظر الجميل، ورأوا الوادي الذي يفصل البلقاء عن عجلون والذي يصب ماؤه في الأردن أخيراً.

كانت الشمس قد آذنت بالمغيب لما بدأت السيارة تصعد في الجهة الأخرى من

الوادي إلى سفوح جبال عجلون المكسوة بغابات الصنوبر والبلوط والسرو، فكان هذا يزيد شعورهم بالغبطة والسرور. وغربت الشمس وهم في الطريق فازداد تأثرهم بمداعبة هواء الصيف للأشجار وبأصوات العصافير وهي تأوي إلى الأغصان، وخرير مياه الينابيع التي كانت تباغتهم على جنبات الطريق.

وفجأة رأوا باباً كبيراً كل ما بقي منه ركناه وتاجه، فعرفوا أنهم وصلوا إلى جرش. فمروا به محيين إلى البلدة الحديثة الصغيرة. ونعموا ليلة في جرش بضيافة أخ كريم، أهل بهم ورحب، وفتح لهم بيته وصدره، فاستمتعوا بكرمه وحديثه، ورافقهم في الصباح لزيارة جرش القديمة.

دخلوا من الباب، واتجهوا إلى اليسار فتسلقوا المسرح المدرج، وأشرفوا منه على الآثار التي كشفت أيدي المنقبين والباحثين القناع الترابي عن أكثرها، فانبسطت أمامهم ساحة الندوة البيضاوية الشكل والتي لا تزال أرضها المبلطة كما كانت عليه قبل ألف وستمائة من السنين، وحول هذه الندوة يقوم الآن نحو سبعين من الأعمدة الكورنثية الجميلة، غير الذي تهدم بفعل الزلازل على توالي القرون.

وإذ نزل القوم إلى الساحة واجتازوها، انتقلوا إلى الشارع الرئيسي الذي كان يخترق المدينة من جنوبها إلى شمالها، وهو مكون من طريق للمركبات عرضه نحو ستة أمتار في الوسط، يحيط به رصيفان مرتفعان للمارة. وعلى جانبي هذا الشارع، كانت تقوم الحوانيت والمتاجر الكبيرة، فضلاً عن ساحة الندوة التي كانت سوقاً للتجارة.

ويمر السائر في هذا الشارع بحوض منحوت من الصخر الأحمر الجميل، تعلوه مصاب للماء، أغلب الظن أن آلهة الشعراء كانت تسبح فيه إذا ما جنَّ الليل، وهجع الناس إلا أهل الأحلام.

ورأى الرفاق بقايا هيكل أرطميس. وهذا الهيكل كان فيه مئتان وستون من الأعمدة الكورنثية، لا يزال قائماً منها ثلاثة عشر، وقد كانت الشمس تعبد في هذا الهيكل، كما كانت تعبد في طرابلس وبعلبك وغيرهما. ذلك أن الوثنية في القرن الثالث الميلادي كانت قد نظمت شؤونها على أيدي كهنتها الذين تأثروا بعلم الفلك والتنجيم البابليين، ودخلتها أساطير النجوم، فاتجهت نحو اعتبار الشمس قلب الكون النابض، ومصدر النور الخالق العالم. وبذلك عبد أهل سورية الشمس على أنها أكبر الآلهة. ومن هذه البلاد أخذت عبادة الشمس تنتشر في العالم الروماني، بتأثير هؤلاء الكهنة الذين اهتموا بتفسيرها وشرحها للناس. حتى إن الأمبراطور أورليان رفع «الشمس التي لا تغلب» إلى مقام أسمى إله في الأمبراطورية.

وزار القوم ما تبقى من الكنائس التي تحوي صوراً من الفسيفساء تمثل استشهاد بعض القديسين في أيام الاضطهاد الديني القديم.

وبينما هم يهمون بالخروج من المدينة من الجهة الشمالية، لفت أحدهم نظرهم إلى

الحمام وإلى عين الماء الصافية التي تنبع بقربه، وتنساب إلى وادي جرش المكسوة جنباته بالغياض الوارفة الظلال.

ركب الرفاق السيارة، فانطلقت بهم تقطع ما تبقى من جبال عجلون، منحدرة تدريجاً إلى إربد. إنهم يتحدثون ثانية عما رأوا في جرش، بعد أن تحدثوا في اليوم السابق عما سيرون، وإذا بخط أسود يظهر فجأة على الأفق البعيد فيتساءلون ماذا عساه أن يكون؟

إنه خط يفصل جبال عجلون الكلسية عن هضاب حوران والجولان البركانية. إنه وادي اليرموك. ولكنهم إذ وصلوا إربد انحرفوا غرباً في وادي العرب، ولم يلتقوا باليرموك إلا حيث يصب في الأردن وقد مروا على مقربة من فحل وبيسان. وهكذا قضوا يومين في الطريق إلى جرش ومنها.

٧. في ديار الأنباط

تحرك بنا القطار من محطة عمان واتجه نحو الجنوب. وكان الركب مختلطاً، ففيهم التجار الذين يحملون ما جمعوا من حوانيت دمشق وعمان لينقلوه إلى من يحتاجه من أهل الكرك ومعان. وفيهم بدو عائدون إلى مضاربهم بعد أن قضوا لبانتهم من مباهج العاصمة وغيرها. وفيهم جنود راجعون إلى العقبة. وفيهم قلة من طلاب اللذة خارج المدينة حيث تكثر الآثار القديمة. وسار القطار يطوي البيد طياً رفيقاً، إذ لم يكن باستطاعته أن ينهبها نهباً. وبدت على التجار الذين يجتازون هذا الطريق مرات في العام الواحد أمارات الملل، أما أنا فكنت أتطلع إلى كل جزء من الأرض أحاول التعرف إليه شبراً شبراً. هذا وأنا أعرف أنني لن أجد فيها تنوعاً. فنحن نسير على سيف البادية وليس هناك من مظاهر الحياة إلا هذه الخيام التي تبدو للعيان بين حين وآخر، وإلا هذه الأرض القفراء. فقد كان الوقت أواخر الصيف ولا سبيل لحياة نباتية تطالعنا في تلك الجهات. ولكن من اعتاد أن يحب بلاده وإن جارت عليه، وأن يحب أهله وإن ضنوا عليه، رأى بلاده عزيزة ورأى أهله كراماً. وهذا الركب لا تكاد تمر عليه ساعة وبعض الساعة حتى تربطهم اللغة بعضهم ببعض فيتحدثون حديث إخوان وخلان، ويتشاكون شكوى أصدقاء أعزاء. يروي الواحد قصته فيضحكون حيناً ويألمون حيناً، حتى إن الدخيل بينهم يحسب أنهم أفراد أسرة واحدة فرّقت بينهم الأيام ثم جمعتهم، فإذا المياه تعود إلى مجاريها. وكان أبو شام التاجر الدمشقي المقيم بالكرك، سلوة الركاب فيما قص عليهم من طرف اختباراته في الاتجار والسفر، حتى إنه لما تركهم في القطراني أسفوا لذلك، وودوا لو أنه يقصد معان ليتم سرورهم به.

يمر القطار بهذه المحطات القائمة في طريقه، وأكثرها يتكون من بيت لناظر المحطة ومكتب له. وفي بعضها بنايتان أو أكثر لخزن غلات المنطقة المتجمعة فيها

تمهيداً لشحنها. هذه زيزياء وبركتها التي بنيت لجمع الماء، فأكثر هذه الأماكن خالية من الينابيع. وسكان المحطات أنفسهم يحمل إليهم القطار الماء من عمان فيودعونه في صهاريج بنيت لذلك، ويستعملونه إلى أن يحين الموعد التالي لمجيء القطار فيأتي لهم بكمية جديدة من الماء.

ويحدثك أحد الركاب إذ تطل على زيزياء فيقول: إلى يمينك، إلى الغرب تقع مادبا وإلى يسارك، إلى الشرق، يقع قصر المشتى. وأتذكر أنا زيارة سابقة لهذين المكانين، فتعود إلى نفسي ذكرى هذه القطع الجميلة من الفسيفساء التي هي من مفاخر الفن السوري قبيل الفتح العربي لهذه البلاد. أذكر كيف دخلنا بيتاً أو أكثر من مادبا أهله يرفعون الحصير الذي يكسو الأرض فتظهر تحته هذه القطع الفنية. بعضها يمثل أبراج الشمس الإثني عشر وبعضها يظهر الفصول، والبعض الآخر فيه زهور وطيور واضحة التفاصيل ظاهرة الأجزاء. وأتذكر زيارة لقصر المشتى. وهو قصر يعود إلى أوائل عهد الأمويين. وهو واحد من هذه القصور الصحراوية التي بناها الخلفاء ليخلصوا من ضوضاء دمشق، ويستمتعوا بهواء الصحراء النقي. وإنك لتدخل ما تبقى من المشتى، فتقف فيه حائراً دهشاً لأن القوم صنعوا شيئاً لم يعرفه الشرق منذ أيامهم. وكانت هذه الأماكن تحوي من لوازم الرفاهية ومقتضيات العيش الهنيء ما لم يكن الحصول عليه سهلاً في المدينة، بله قصراً في الصحراء.

تذكرت هذا، وتذكرت غيره، وأنا أقلب ناظري في هذه الأماكن. ألم يحمل مد سكة الحديد هنا بعض البدو على تغيير طراز معيشتهم والانتقال إلى حياة مستقرة حضرية؟ وانتقل تفكيري إلى عبد الحميد، عبد الحميد الثاني سلطان تركية، صاحب فكرة هذا الخط. لقد أعيت السلطان هذه الثورات التي كانت كثيرة الحدوث في بلاد العرب، من الحجاز إلى اليمن. وعقد النية على التخفيف من حدتها، إن لم يكن على القضاء عليها. فرأى أن يصل اليمن بسورية بخط حديدي يمكنه من السيطرة على الطريق وإرسال الجيوش متى احتاج إلى ذلك. لكن نفقات مثل هذا الأمر كبيرة، وخزانة السلطان لا تتحملها، وإذن فلتتعاون قريحة السلطان الوقادة، وذكاء وزيره الأول شوكت باشا على إيجاد حل لهذه المشكلة. وتوفق الرجلان إلى فكرة لم يلبثا أن أبرزاها إلى حيز العمل.

إن هذا الخط سيجعل أداء فريضة الحج أسهل على المسلمين متناولاً، وسيجعلهم هذا الخط بما يقوم على حراسته من الجند، في مأمن من اعتداء القبائل على قوافل التجار، وسيقصر المدة اللازمة للقيام بالحج. وإذن فليشترك المسلمون في بناء الخط. ودعا عبد الحميد العالم الإسلامي إلى ذلك، فلبيت الدعوة وتدفقت التبرعات، ودفع موظفو الدولة العثمانية كلهم مرتباتهم لشهر واحد لمساعدة المشروع، وأمر الجيش بالعمل فيه. فكان في ذلك كله ما فتح للفكرة المجال فصارت عملاً. ودفعت العمل همة عبد الحميد التي لم تكن تعرف الملل أو التعب فسار سيراً سريعاً، ولم يلبث أن وصل

أول قطار إلى المـدينة سنة ١٩٠٨ آتيـاً من دمـشق. وبذلك تم الجـزء الأول من خطة السلطان الجـريء. ووقف عند هذا الحـد لأن السلطان انتـهى أمـره، ولأن خلفـاءه في السلطة شغلتهم عن تتميم الخط شواغل أخرى.

الوقت الذي كان علينا أن نقضيه في القطار طويل ـ نهار كامل من عمان إلى معان. والحـديث، مـهـمـا حـلا وعـذب، قـد يمله الناس إذا طال، ولكن المـسـافـر الحـريص يصطحب رفقاء لا يملهم ولا يملونه. وكنت قد حملت معي كتاباً أو أكثر فعكفت على القراءة بعض الوقت. لكن هذه القراءة كانت تقطعها علي رغبتي في أن أرقب الأرض. وكان صاحـبي يصرخ آناً بعد آخـر لافتاً نظري إلى قطيع صغير من الغـزلان ينفر إذ يسمع صفير القطار أو دويه فيذكرك ببيت شوقي:

تلفتت ظبية الوادي فقلـــت لهـــا لا اللحظ فاتك من ليلى ولا الجيد

ساءلت نفسي: أكانت هذه البلاد دائماً قاحلة على هذا النحو؟ لكن الجواب جاءني من مصادر مختلفة بأن ذلك لم يكن. فقد كانت ثمة بقاع تكسوها الغابات، لكن عدا عليها الزمن فاجتثت ولم يغرس مكانها غيرها. وأشار صاحبي إلى قرب وادي الحسا وقال: إن المنطقة الواقعة إلى الغرب كانت مكسوة بالأشجار في أوائل القرن الحالي، حتى إن الحكومة التركية رأت أنها تستحق أن يمدَّ فرع من سكة الحديد إليها لتنظيم شحن الأخشاب منها. فقلت في نفسي أما الخط فمدّ، وأما التنظيم فلم يكن، لذلك اقتطعت الأخشاب وماتت الأشجار، فإنني لما مررت بتلك البقعة بعد أيام،رأيت فيها بضع شجرات حيث كانت غابات واسعة قبلاً.

وكنت وأنا في هذه الطريق أذكر الغساسنة. لقد عمَّر هؤلاء مشارف الشام وكانت لهم فيـها دولة وكانوا عرباً خلصاً من الذين جذبتهم المدنية إليها فاستوطنوها وأعجبتهم الحضارة فاستمرأوها، لكنهم، مع ذلك، لم يتركوا فضائل العروبة وإباءها وشممها، وإليهم يرجع الفضل في تعريب شرقي سورية قبل الفتح الإسلامي.

همّت الشمس بالغروب، فأخذ الأفق الغربي يكتسي بأثواب مختلفة الوشي متباينة الألوان تتعاقب عليه دقيقة إثر الأخرى. وفي كل حالة كانت تنبعث في نفسي موجة من الإعجاب لا تكاد تهدأ حتى تعقبها أخرى، وبينا نحن في هذا الطرب النفسي وقف القطار وصاح صاحبي: «هذه معان» فنزلنا.

استضافنا في المدينة صديق لصاحبي رافقنا كل الطريق وأقسم إلا نزلنا عنده. وكان أول ما قدَّم من الطعام تمر مقلو بالسمن. فقد كنا في رمضان، وسنة الإفطار أن يبدأ بالتمر. وإتباع السنة عند أهل معان متيسر. وقضينا أمسية وليلة في ضيافة عربية بعيدة عن الكلفة. وكانت أولى عدد من الضيافات استمتعنا بها في تلك الربوع.

اعتزمنا أمرنا على أن نزور البتراء، والبتراء غاية الزائر في جنوب شرقي الأردن. وسرنا عصر يوم قاظ وسطه وطاب مساؤه، ووصلنا مقر بوليس وادي موسى قبيل

المغرب. ووقفت على المكان المرتفع وألقيت بنظرة كلها شوق إلى الغرب، إلى المكان الذي تتوسطه البتراء، دون أن ترى. وكانت الألوان التي تنعكس من الجبال الرملية، إذ تلقي عليها الشمس أشعتها الباهتة المريضة، لا تعدُّ ولا تحصى. فهي ورد أصناف، ودماء مهراقة كأنها نزفت ممن صرعه بالكثيب البهر. وهي إلى ذلك كله قوة في رقة، وصلابة في لين، تدعوك إليها دون أن تتزلف، وتفتح لك قلبها دون أن تتبذل وتحملك على تقبيلها دون أن ترمي بنفسها بين يديك.

كانت الشمس لم تظهر بعد على الأفق الشرقي لما وجدتني أسير وصاحبي في طريقنا إلى البتراء. وكان «السير» الضيق منفذنا الوحيد إلى خزنة فرعون. فوقفنا أمامها وقد تدلت من فوقنا بوادر أشعة الشمس فجعلت هذه الواجهة المنحوتة في الصخر الوردي المصفر آية من آيات الفن التي تتحد الطبيعة ويد الإنسان على إخراجها في تلك البقعة. وما أكثر الأماكن التي يتمثل فيها هذا التعاون بين القوتين، فإنك واجد في كل ناحية من نواحي البتراء عشرات من هذه الآيات.

ولست أريد أن أزعجك أيها القارىء الكريم فأنقل إليك هذه الصور مشوهة. فالحق أن كل ما كنت قد قرأته عن البتراء تضاءل شأنه لما وصلت إلى هناك ورأيت هذا الشيء الغريب. ووجه الغرابة في الأمر ليس نحت بضعة بيوت أو معابد في الصخر الأصم، ولكن وجه الغرابة هو أن يفرض الأنباط على الناس أن يأتوا لمدينتهم مرتين: المرة الأولى يوم جاؤوها للاتجار، وقد كان الأنباط العرب سادة التجارة في تلك المنطقة؛ والمرة الثانية بعد ذلك بنحو عشرين قرناً إذ فرضوا عليهم أن يزوروها ليستمتعوا بها آية فنية. ولن يمكنك، يا أخي، أن تلم بهذين الأمرين إلا إذا زرت البتراء، فاذهب.

وما قولك بشعب يحتل هذه الأصقاع في القرن الخامس قبل الميلاد، وقد كانت فيها حضارة تقوم حول الكرك وعمان، وكانت فيها صناعة تتمركز في وادي العربة والعقبة، فيتخير هذه البقعة الصخرية الجافة ليحفر فيها عاصمته ويجعلها مركزاً للاتجار، ثم هو يحمل القوافل على أن تتجه إليها ويحمل التجار على الاجتماع بها فلا تلبث أن تصبح السوق الرئيسية لمتاجر بلاد العرب ومصر وسورية الداخلية والساحلية. ولا تلبث أن تمتد أبنية العاصمة ومحفوراتها وتنتشر على الآكام التي تحيط بوادي البتراء الرئيسي، فتبدو البقعة الجافة وقد أينعت لأن أهلها أرادوا لها ذلك، وتظهر المدينة الصخرية وقد اكتست بالورد والخز والديباج لأن سكانها أرادوا لها ذلك.

ويسيطر الأنباط أو تسيطر البتراء على طرق التجارة كلها، وتنشر، مع تجارتها، حضارتها. فنرى الأسلحة تصنع في الشمال على شكل نبطي، ونرى المعادن تستخرج على نحو ما يريد الأنباط، ونرى آلهتهم تعبد على نحو ما يعبدونها.

ونقضي يوماً في البتراء. ويشتد الحر، فنقيل عند نبع ماء يكاد ينبثق من الصخر، لكن بعض الأتربة التي تتحرر من ربقة الصخور، تتجمع فتظهر حولها شجيرات الدفلة، وهذه تحمل زهوراً جميلة، فتقع العين على شيء يتم جمال هذه الصخور الملونة.

وعدنا من زيارة اليوم، وكانت السيارة تنتظرنا، فقطعنا فيها قرابة أربعين من الكيلومترات لنطل على الشوبك. وهي قلعة حصينة في جنوبي البلاد، بناها الصليبيون لما استولوا على تلك الجهة. فلما خرجوا استولى عليها الأيوبيون واستمرت بعدهم لأهل البلاد. وقد تخلى عنها الفارس للفلاح والراعي، لكن الفلاح والراعي متى خطر لهما أن يثورا اتخذا من جدرها وحصونها الكاملية ترساً يختبئون خلفه، ويرمون الجند المهاجم بالسلاح والحجارة. فقلعتهم تقوم على قمة رابية تحيط بها ثلاثة أودية تتحد على درء الخطر عنها، ولا يمكن الاقتراب منها إلا من فوق جسر واحد إلى شمالها الغربي.

عدنا من الشوبك إلى معان، وأدركنا المغرب في الطريق. وأوقفت السيارة لإصلاح عطب طرأ عليها، فاغتنم ركابها تلك الفرصة، وأوقعوا ببعض التين الذي كان «عطا الله» يحمله هدية إلى أهله. ولكن من حق الصائم أن يفضل على صاحب الهدية. وأتم عطا الله كرمه بأن أقسم إلا تناول الجميع عنده طعام الإفطار تلك الليلة. وكان له ذلك.

وفي صباح اليوم التالي أقلنا القطار من معان إلى القطراني. فقد كانت الكرك وجهتنا هذه المرة، وكنت أحسب أنني رأيت كل شيء في الطريق، فلا يكون ثمة من جديد. لكنني أخطأت الحساب. فما كدنا نقضي ساعة في الطريق حتى دعاني صاحبي إليه، وأشار إلى شيء بعيد في الأفق. إنه السراب. نعم هذا الذي يحسبه الظمآن ماء فيتجه نحوه، ويشدد العزم، وهو في واقع الأمر يسعى خلف انعكاس الشمس على حرات الأرض. نعم، لقد كانت الأرض هناك بركانية، وهذا شعاع الشمس ينعكس عليها، فيخيل إليك أنك ترى الماء، والماء عنك بعيد.

راقبت السراب هذا، وجلست بعدها في القطار أحدث نفسي وأستمتع بتدخين غليوني، وطال بي التحدث إلى نفسي، وخرجت منه وأنا أردد: الأنباط، الغساسنة، الفتح العربي، اليرموك. نعم لقد كانت كل كلمة من هذه تمثل خطوة من تلك الخطوات المباركة التي انتهت بصيرورة هذه البلاد عربية. ولئن كانت البتراء وبصرى محطات للاتجار، ولئن كان المشتى قصراً للنزهة، فقد كانت كل هذه محطات انتشرت منها اللغة العربية، ومراكز انتشر منها العنصر العربي، واتحدت معها الحيرة وتدمر والبصرة والكوفة وواسط ودمشق والرملة وحلب وكل مدينة أخرى. وجماع هذا الجهد الذي شمل هذه الرقعة الواسعة، وامتد كل هذا الزمن، هو أن أصبحت هذه البلاد عربية، وبت

أشعر أنني في وطني حيث نزلت وأنّى ارتحلت.

٨. ذكريات شامية

وأخيراً عدت إلى زيارة دمشق.

عدت لأستعيد ذكرى طفولة عذبة قضيتها في ربوع هذه المدينة، ثم انقطعت عنها سنوات طويلة. تركتها وقد لعبت مع صبيتها وتسكعت في أزقتها وركضت في متنزهاتها. وعدت إليها لأستعيد تلك الذكرى فأستمتع منها بساعات عذاب. وعدت إليها كذلك شاباً ملأ بردي رغبة في استطلاع معالمها واستنطاق آثارها واستقصاء أنبائها. عدت وكلي شوق إلى ذلك، فبلّت دمشق شوقي وأطفأت حر ظمأي وأشبعت بعض نهمي. فهذه الحارات التي لعبت فيها، وهذه الأزقة التي قضيت فيها ساعات بدون قصد أو غاية وهذه، إلى جانب تلك، معالم التاريخ تنادي بأعلى صوتها مشيرة إلى الدور الذي مثلته دمشق على مسرح التاريخ الإنساني، فرددت قول شوقي:

وذكرى عن خواطرها لقلبي إليك تلفت أبداً وخفق

وكيف لا يخفق القلب عند ذكر دمشق!

هذه دمشق تعود إلى العصور المتوغلة في القدم، مدلة بأنها أعتق مدينة على وجه البسيطة، استمرت فيها الحياة منذ إنشائها حتى اليوم! هذه دمشق تنظر إلى سورية الوسطى والجنوبية مدلة بفضلها، ذاكرة دورها في الدفاع عن أخواتها من مدن تلك الجهات وقراها، فإن أنكر عليها منكر ذلك ذكّرته بأنها منذ القرن الحادي عشر إلى القرن الثامن قبل الميلاد كانت دمشق تصد عن بلادنا عادية الآشوريين، يوم أن كانت أرامية سامية تنقل المتاجر شرقاً وغرباً، بين البحر الرملي الصحراوي والبحر المتوسط. فإذا عدا عليها أو على جوارها عاد، تركت الميزان وحملت السيف، ورمت الحمل وتكبت القوس، وأغلقت السوق وفتحت الحصن. فلا تلبث أن ترد العادية وتبعد المصيبة وتقصي النكبة، فإذا الناس في سلام وأمن واطمئنان، فيعود السيف إلى غمده والقوس إلى مأواها والحصن إلى إغلاق أبوابه، ويعود الميزان والسوق والحمل إلى العمل. لكن دمشق هذه لما تألب عليها خصومها الأقوياء واستعانوا عليها بالسذج من أعوانها، واستمالوا إليهم الخائنين من أنصارها، عجزت عن المقاومة وقتاً، فاحتلت ودكت أسوارها وهدمت حصونها وعطلت أسواقها. وكان سقوطها سقوط الجوار كله، مدناً وقرى، أسواقاً ومزارع، مصانع وبساتين. ولما انتبه السذج والخونة إلى ما حاق بهم ندموا ولات ساعة مندم.

وجاء الإسكندر الكبير، ثم توالى على البلاد خلفاؤه وبعدهم الرومان. وكل من كان له شأن في هذه الجهات أدرك الأثر الذي يمكن دمشق أن تؤثره في الناس والبلاد. فليس من السهل على بلد يشرف على طريق الداخل إلى الساحل، وتجتمع فيه تجارة العرب من الحجاز إلى نجد إلى العراق ويتوسط مركز الاتصال بحمص وحماة

وفلسطين وبيروت ـ ليس من السهل على بلد هذا شأنه أن يهمل. وإن أهمل فإنه قائم وفارض إرادته على أصحاب الأمر. وهذا ما حدث مراراً في تاريخ دمشق. تحطم وترغم على الإخلاد إلى السكينة، ولكن لا يطول بها الزمن. فنشاط أهلها، ونشاط البلدة ونشاط الموقع ونشاط الزمن، كل أولئك يحفزها إلى القيام فتقوم وتفوز بما تريد.

وهكذا فازت دمشق بما تريد أيام كان الرومان يعنون بهذه البلاد.

ثم جاء دمشق من عرف قيمتها قبل أن تفرض هي إرادتها عليه. جاءها معاوية بن أبي سفيان.

فقد اتخذها معاوية عاصمة للدولة الأموية، وعرفت بذلك دمشق عزاً لا مثيل له. فقد كانت عاصمة لملك يمتد من الهند إلى أسبانية، فكانت مقر الخليفة وأمراء الدولة ورجال الحل والعقد. منها كانت تدار الولايات، وفيها كانت تعقد المشاورات، وإليها كانت ترفع الشكايات، وفيها كانت تنظر الظلامات.

وبنى فيها معاوية القبة الخضراء وأنشأ فيها الوليد جامع بني أمية وعقد فيها عبد الملك مجالسه. وتعربت دمشق في عهدهم فصارت العربية لغة شعرها وأدبها ولغة مجلسها وديوانها ولغة سوقها وحاراتها. ذكرت هذا كله وأنا أتنقل بين معالم المدينة الأموية فتذكرت قول شوقي:

لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت ببني العباس بغدان

في هذه الفترة كانت دمشق تتقدم وتنمو وتزدحم بالسكان، فتمتد شمالاً، ويعنى بتوزيع الماء على أجزائها البعيدة، ولذلك نجد نهر يزيد يشق فيها ليوصل الماء إلى أجزائها ونواحيها الجديدة. وفي هذه الفترة تعود الأسواق الرومانية إلى الظهور، وهي بعد أوسع نطاقاً وأحفل بالخيرات وأعمر بالمتاجر، فقيسارياتها كثيرة وأسواقها مليئة. وتستمر هذه الحركة فيها ولو أنها تأخرت قليلاً، فتصل دمشق إلى عزها التجاري في أيام الأيوبيين والمماليك، هذا مع أنها ترى سلطانها السياسي ينحسر فيقتصر على سورية الوسطى والجنوبية بعد أن كان يشمل العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه. وكأنها عوضت بتجارتها وثروتها بعض ما خسرته من عز وسلطان، فتراها تفرض صناعاتها على أهل الشرق ومتاجرها على أهل الغرب. فسيوفها ورماحها وجلودها وحريرها يبتاعه أهل البلاد، وما فيها من الأفاويه والتوابل والمنتوجات الهندية ينقل منها غرباً. كما أنها استكثرت المدارس والرباطات والزوايا والمستشفيات. فكان لها في ذلك كله فضل، أي فضل وشرف، أي شرف! ونحن واجدون ذلك كله واضحاً فيما رواه الرّحالون الذين زاروها في تلك العصور. فهذا بنيامين الإسباني يقول: «يخترق دمشق نهر أبانا الذي تحمل مياهه إلى دور كبار الناس فيها، في أنابيب كما تنقلها القني إلى الشوارع والأسواق. وتجارتها واسعة ويقيم بها تجار من جميع الأقطار،

وجامعها قلما يساويه بناء آخر في فخامته». وهذا ابن جبير يحدثنا عن المدارس والمستشفيات، فمدارسها عشرون وبها مستشفيان جرايتهما في اليوم ثلاثون ديناراً والأطباء يبكرون كل يوم فيتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلح من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل منهم. والمدرسة التي لفتت نظر ابن جبير هي المدرسة النورية التي أنشأها نور الدين.

أما تجارة دمشق وقيمتها الاقتصادية في تلك العصور، فقد رسم لها الرّحالون صوراً كثيرة لعل من أوضحها تلك الصورة التي خلّفها لنا فون سوخم. فقد قال عنها: «دمشق عظيمة فخمة جميلة وغنية بكل أنواع المتاجر، وفي كل ناحية منها شيء مبهج. فالطعام فيها كثير وكذلك التوابل والحجارة الكريمة والحرير واللآلىء والأقمشة المقصبة والطيوب من الهند وبلاد التتار ومصر وسورية وأوروبة، وكل ما يشتهيه المرء يجده فيها. وهي كثيرة السكان إلى حد لا يصدق.

«وتقوم صناعاتها المختلفة في كل حي خاص. وكل صانع يتخذ أمام بيته مكاناً يعرض فيه مصنوعاته عرضاً يلفت النظر ويغري بالشراء. وكذلك يصنع التجار بسلعهم. وكل ما يصنع بدمشق متقن، والتجار الأغنياء يحتفظون بالطيور في أقفاص أمام بيوتهم. ومع أن المدينة مزدحمة بالسكان، ومع أن البضائع تترك في الشوارع دون حراسة، فليس ثمة من يذكر أن أحداً قتل في دمشق. وقلما تسرق فيها السلع المعروضة للبيع».

ولعل من أروع الأبنية التي ترجع إلى هذا العهد في دمشق قلعتها. فهي على شكل مستطيل فسيح طوله ٢٢٠ متراً وعرضه ١٦٠ متراً، لها مدخلان كبيران ويدور بها ثلاثة عشر برجاً. والقلعة على شكلها الحالي ترجع إلى سنة ١٢٠٦ ميلادية، وإن كانت قد بنيت قبل ذلك بمدة يسيرة. وكانت القلعة في ذلك الوقت تشغلها حصون الدفاع ودار صاحب السلطان الخاصة، وفيها الإيوان الرسمي الكبير، والإدارات العسكرية والمدنية، وبرج الحمام يأوي إليه الحمام الزاجل، وثكنات الحرس، ومخازن السلاح، وبيت المال، ودار سك النقود والسجن. فهذه القلعة كانت مدينة داخل مدينة.

في أيام المماليك صارت دمشق مركزاً لسورية وفيها مقام نائب السلطنة. وعناية المماليك العسكرية بها كبيرة. وتظهر آثارهم في المنشآت العسكرية الكثيرة وفي إنشاء الميادين التي تتطلبها الكثرة المطلقة من الفرسان. فميدان للسباق وميدان للعب بالكرة. وهناك سوق للخيل وللسروجيين وهكذا.

على أن دمشق شقيت بعد هذا الثراء. فقد تناوبتها أحداث أقضّت مضاجع أهلها حتى خيف عليها وعلى جاراتها. ففي السنة ١٤٠٠ ميلادية هاجمها تيمور التتاري وفرض عليها غرامة كبيرة ثم انتزع ألفين من صنّاعها ومهندسيها وحملهم إلى سمرقند

ليبنوا له عاصمته. وفي أواخر القرن الخامس عشر بدأ تحول التجارة عن سورية ومصر إلى طريق جنوب أفريقية، فقلت البضائع الواردة إلى دمشق وتناقص عدد البائعين والمشترين. وفي أوائل القرن السادس عشر احتل العثمانيون سورية. فكان ذلك الانتقال مؤذناً بتغير في حالها.

لكن دمشق قوية على أحداث الدهر ومصائبه. فهي لا تكاد تقع حتى تنهض. وعلى هذا فنحن نجدها في القرن السابع عشر ثم في القرن الثامن عشر تعود إلى ما كانت عليه. فتمتلىء أسواقها وتعمر حوانيتها وتعمل مصانعها ويعود البائعون والمشترون من الشرق ومن الغرب فيتنافسون في سبيل بضائعها.

عدت إلى دمشق، وقضيت فيها أياماً أستعيد ذكريات الطفولة وأستنطق معالم التاريخ، فأنبأتني المعالم بالكثير، ونطقت الآثار بالكثير.

وخرجت من دمشق وأنا أردد أبيات شوقي:

ألست دمشق للإسلام ظئراً ... ومرضعة الأبوة لا تعق
صلاح الدين تاجك لم يجمل ... ولم يوسم بأزين منه فرق
سماؤك من حلى الماضي كتاب ... وأرضك من حلى التاريخ رق
بنيت الدولة الكبرى وملكا ... غبار حضارتيه لا يشق
له بالشام أعلام وعرس ... بشائره بأندلس تدقّ

الهوامش

(١) أُخرج السكان من القلعة وأصبحت الآن من الآثار المحافظ عليها.

(٢) زائر المعرة اليوم يشاهد قبراً لأبي العلاء فيه فخامة.

أندلسيات

١ . حائك وادي آش

التأم مجلس الملك سرجيس في طليطلة واكتمل عقده في قاعة الاحتفالات الصغرى. فقد كان من عادة سمار الملك ونصحائه ومشيريه وأصحابه، أن يحيطوا به كل مساء بعد طعام العشاء، فيتحدثوا في شؤون الدولة العامة ويتداولوا أخبار الناس خاصهم وعامهم. وكان قد هبط المدينة في ذلك اليوم شاعر مغن، فجيء به إلى مجلس الأنس هذا ليطرب القوم. ودارت الأحاديث في كل ناحية ثم أذن الملك للشاعر بالإنشاد. فتقدم وقد حمل قيثارته، وقص على القوم، في صوت عذب حنون، أخبار من غبر من الفرسان، وقصص حبهم وغرامهم، وروى كيف دافع الأقدمون عن البلاد لما غزاهم أهل البر الإفريقي في سالف العصر والأوان، وعظّم فضائلهم ورسم بموسيقاه وغنائه صوراً خلاّبة براقة لهم، فأصاب في كل ما فعل وتراً حساساً من جميع السامعين وأثار في نفوسهم ما كمن من لواعجها.

كان هذا الإنشاد خاتمة المطاف في تلك الليلة، فانفض السامر، وأوى كل امرىء منهم إلى مضجعه وداعب الكرى أجفانهم، ولم يلبثوا أن استسلموا للنوم، الذي حمل أرواحهم إلى عالم الأحلام. فتراءت لهم الدنيا قصائد تغنى ومجالس أنس تعقد ووقائع حب وغرام ومعارك فرسان. لكن شخصاً واحداً حرم عليه النوم تلك الليلة. كان ذلك الرجل الملك نفسه. فالكرى لم يجد طريقاً إلى عينيه، والراحة لم تعرف سبيلاً إلى فؤاده، وظل ساعات يتقلب على فراشه. أقضّت مضجعه هذه الذكريات التي أثارها الشاعر من مكمنها، ذكريات غزو أهل البر الأفريقي لبلاده، وقوى وساوسه ما بلغه قبل أيام من استعداد أهل تلك الجهات للهجوم على أسبانية، طمعاً في خصبها وثروتها وجمالها.

حرم الملك الكرى، وتعب من فراشه، فتركه وجلس في قوس النافذة وحدق في السماء الصافية ونجومها اللامعة وكأنه يحاول استطلاع ما تخفيه النجوم خلف هذا البريق. وألقى بنظرة على المدينة المحيطة بقصره وما حولها من حدائق غناء وجنان فيحاء، وملأ صدره أريج الزهور الذي حمله إليه نسيم الليل وكأنه يخشى أن يسلب هذا الوطن إذا هو لم يعدَّ للأمر عدته، وقلّب الأمر على وجهه فلم يوفق لحل قط.

قام الملك من مجلسه، وارتدى بعض ثيابه وخرج، وتحسس طريقه في ممرات

قصره الكبير، متجنباً إزعاج النيام، حتى أتى حجرة مشيره العزيز عليه. فطرق الباب طرقاً خفيفاً، ففزع الرجل من نومه، وفتح الباب، وكاد يصعق إذا رأى مليكه على الباب. فأشار الملك أن اصمت ودخل، وهدأ روع صاحبه. فلما عاد إليه رشده، حدَّثه الملك بجلية أمره وما يشغل باله. وصمت الاثنان برهة، ثم تكلم الصاحب قائلاً: «أيها الملك! إن مملكتنا على غناها صغيرة، ومواردها محدودة، وجيشها على شجاعة جنوده لا قبل له بمقاومة الغزاة إن حدثتهم نفوسهم أن يعبروا إلينا. والملوك الذين حولنا قد لا نأمن جانبهم، فهم يحسدوننا ويحاولون الإيقاع بنا. والرأي عندي هو أن نحصل على طلسم يحمينا من أولئك القوم، ويقوي ساعد جندنا إذا جد الجد. وقد بلغني أنه يقيم في وادي آش حائك يستطيع أن يصنع الطلاسم فلنجربه».

وكأن الملك كان ينتظر مثل هذا الرأي من جليسه، فلم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى أجابه: «سأرحل إليه الساعة، وسأذهب منفرداً. وعليك أنت أن تدير المملكة في غيابي، ويتحتم عليك أن تخفي قصدي ووجهتي عن الناس كلهم». ونهض الملك ولم يزد.

كانت أشعة الفجر الفضية قد ظهرت بوادرها في الأفق الشرقي لما خرج الملك على جواده، وقد تلثم بحيث لا يُعرف. فلما أشرقت الشمس كان قد وصل إلى أطراف مملكته. وأغذ السير، فما يقف إلا ليتبلغ، حتى وصل وادي آش في مساء اليوم التالي. فما أضاع وقتاً، ولا فوَّت فرصة، فإنه ما كاد يهبط الوادي الجميل، ويسير في ظلال أشجاره الوارفة، ويستنشق رياه العطر، حتى اطمأن إلى أنه واجد بغيته. وما كان من الصعب عليه أن يهتدي إلى الحائك المتنسك. فقد كان هذا يقيم في شجرة قسطل ضخمة اتخذ منها له مسكناً.

اقترب منه الملك وحياه، فرد الحائك التحية ونظر إليه، والابتسامة تملأ وجهه بشراً وقال: «هوِّن عليك فقد وجدت ضالتك». ثم دعاه إلى مشاركته في خبز وبقل كان يأكله. وكأن هذا الاطمئنان الذي كان يستمتع به الحائك قد سرى إلى نفس الملك فأحس بالجوع وجلس إلى الحائك، والتهم ما استطاع إلى التهامه سبيلاً. فلما فرغا انصرف الحائك إلى صلاة قصيرة قالها ثم التفت إلى الملك وقال: «سأهيىء لك الطلسم الذي تريد، ليحمي بلدك من الغزاة، فنم الساعة وستجده جاهزاً متى صحوت». فالتحف الملك بردائه، واتخذ له بجانب شجرة القسطل مكاناً أوى إليه، فلم يلبث أن انتقل إلى عالم الأحلام ليرى الحياة طلاسم تحمي الملك.

وطال نومه، فلما استيقظ كان قد نام ثلاثة أيام كاملة، ووجد إلى جانبه صندوقاً صغيراً من الرخام، محكم الأقفال وكتاباً فضه فقرأ فيه: «احمل هذا الصندوق إلى عاصمة ملكك، فإذا وصلت إليها، فاختر غرفة في قصرك متينة البنيان سميكة الجدر، وأودع فيها هذا الصندوق، وضع معه المائدة الثمينة التي في كنيسة البلدة، ثم أقفل

الغرفة إقفالاً محكماً. وأوص خلفاءك من بعدك أنه متى ولي الحكم منهم واحد فليضف إلى أقفال الغرفة قفلاً. لا تفتح الصندوق، وإلا هلكت أنت وقومك ولم تقم لكم بعدها قائمة. واعلم أن هذا الطلسم يصلح ما دام الاعتقاد بقوته موجوداً، فإذا شككتم به فقد أثره».

ولم يعثر الملك للحائك على أثر، فحمل الصندوق، وعاد إلى طليطلة بمثل السرعة التي جاء بها، فوصلها والليل مخيم عليها، فدخل قصره سراً، وقصد غرفة مشيره النصوح، فولجها وأيقظه وأخبره بأمره، واستودعه الله إلى الصباح.

أعدَّ الملك العدة للعمل بوصية الحائك. فاختار الغرفة الصالحة وأحضر المائدة من الكنيسة ودعا كبار القوم ورجال الدين للاحتفال بإيداعها مع الصندوق في الغرفة. وتم ذلك مع مراسيم فخمة. ثم أقفلت الغرفة وانصرف الناس إلى أعمالهم وقد أمنوا الشر الذي كان يقضّ مضاجعهم.

وتتابع خلفاء الملك سرجيس على عرش طليطلة، وكان كل واحد منهم في أول يوم من اعتلائه العرش ينزل إلى الغرفة ومعه كبار رجال الحاشية ورجال الدين فيضيف قفلاً كبيراً متيناً إلى هذه الأقفال التي كثر عددها على الباب فإذا تم له ذلك انصرف إلى حفلة التتويج الرسمية، كان وضع القفل هو أول عمل رسمي يقوم به الملك الجديد.

وبلغ عدد الأقفال ستة وعشرين، ومات آخر ملك وهو الملك السادس والعشرون، وخلف أولاداً صغاراً فتقدم أحد القواد وتولى الوصاية عليهم، ثم لم يلبث أن اغتصب العرش، وهمَّ بتتويج نفسه ملكاً باسم رودريك أو لذريق.

وتقدم الناس إليه، وقد رضوا بحكمه مكرهين، وطلبوا إليه أن يسير على خطة أسلافه العظام، فيضيف قفلاً إلى هذه الأقفال التي تحرس الباب. فأبى لذريق ذلك واعتزم أن يفتح الغرفة ليرى ما فيها ثم يعود فيحكم إقفالها. وبلغ أهل المدينة ما عزم عليه الملك، فتقدموا إليه ضارعين أن لا يفعل. لكنه رفض ضراعتهم وضرب برغبتهم عرض الحائط، واتعد القوم اليوم الأول من حكمه لكسر الأقفال.

نزل الملك إلى الغرفة، ومعه جلادوه وجنده يحملون الفؤوس القوية تلوح بها زنودهم المفتولة. وتقدم إليه أثرياء المدينة للمرة الأخيرة ورجوه أن يترك الأقفال على حالها، وقال له قائلهم: «أيها الملك! لقد درج الأسلاف على الاحتفاظ بسر هذه الغرفة، وقد نقل لنا آباؤنا وأجدادنا أن هذا هو الذي سلم بلادنا كلها من غزو العدو، ونحن على يقين بأن ما فيها لا يستحق الفتح. ولكن إن كانت لك رغبة في فتحها ظناً منك بأن بها كنوزاً قيِّمة، فقدر قيمتها ونحن مستعدون لأن ندفع لك هذا الذي تريد». فاستشاط الملك غيظاً وكاد يقتل المتكلم لولا صيحات القوم. وأمر به فدفع إلى خارج القصر، ثم التفت إلى المحيطين به، وقال والشرر يقدح من عينيه: «أنا الذي أدفع عنكم عادية الغزاة، ولا بدّ لي من فتح هذه الغرفة». ثم أمر رجاله بفتح الأقفال واحداً واحداً، وكان

كل قفل مفتاحه معلق به، وكان كلما فتح قفلاً صعدت من الجماعة أنة ألم وصيحة امتعاض، لكنها لم تلق من الملك لذريق التفاتاً. فلما تم فتح الأقفال الستة والعشرين، أمر بالباب نفسه فكسر. ودخل الغرفة فوجد المائدة المصنوعة من الذهب الخالص والمحلاة بالجواهر، فطفح وجهه سروراً لأنه عثر على هذا الكنز الثمين.

ثم تناول الصندوق المقفل وقلّبه بين يديه وحاول أن يهتدي إلى طريقة لفتحه، وعندها علت من الجمهور صيحة رجاء بأن يبقي الملك على الصندوق كما هو، لكن لذريق كان قد صمم على فتحه، فلم يعر رجاءهم أذناً صاغية، وأمر به فكسر لأنه عجز عن الاهتداء إلى وسيلة لزحزحة الغطاء.

انكسر الصندوق الرخامي، وانهلعت لانكساره أفئدة الواقفين قرب الملك والمنتظرين خارج القصر. فبانت على جوانبه في الداخل رسوم فرسان عليهم العمائم وتحتهم خيول عراب وهم متقلدو السيوف متنكبو القسي ورافعو الرايات على الرماح، فتبينوا الصور، فإذا هي صور فرسان العرب. وفتش لذريق عن شيء آخر يشفي غلته فلم يجد. ولكن أحد الرجال الواقفين حوله لمح في طرف الصندوق من الجهة الأخرى كتابة حاول الموجودون قراءتها فلم يستطيعوا، فاستدعي العارفون في البلد، والملك وجماعته وقوف بالمكان، فجاء هؤلاء، وتمكن أحدهم من حلها فإذا فيها: «إذا كسرت الأقفال عن هذا البيت وفتح هذا الصندوق فظهر ما فيه من الصور فإن هذه الأمة المصورة في هذه الشقة تدخل الأندلس فتغلب عليها وتملكها». فوجم لذريق وندم على ما فعل وعظم غمه وغم من معه وأمر برد الأقفال وإقرار الحراس على البيت.

خيم الليل على طليطلة والناس في هم وغم والملك في حيرة من أمره، ومشيروه لا يدرون ما يقولون وما ينصحون. وعند شجرة القسطل في وادي آش جلس الحائك يأكل خبزه وبقله، ثم صلى ولف نفسه بكسائه الرقيق وأطلق نفسه للنوم. وحمل إلى عالم الأحلام، فرأى فيما يرى النائم أن جماعة من فرسان العرب ينزلون من سفنهم ويركبون خيولهم العراب وهم متقلدو السيوف متنكبو القسي يحملون الرايات المرفوعة على الرماح. ثم رأى النار يندفع لهيبها في السفن فتحرقها عن آخرها. ثم خيل إليه أنه سمع قائدهم ذا الوجه الأسمر البادي القسمات الواضح المعالم يقول لهم في صوت كأنه جلجلة الرعد القاصف تشوبه الثقة بالنفس والإيمان القوي، سمعه يقول لهم «أيها الناس أين المفر!! البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر». والتفت الحائك إلى الجهة الأخرى فرأى لذريق مهموماً مغموماً وأمامه صورة الصندوق المحطم فأدرك ما حدث.

هبَّ لذريق من مجلسه بين قومه وتناول سيفه وركب جواده وأغذ السير إلى وادي آش، إلى شجرة القسطل ليسترشد برأي الحائك، فوصل إلى الوادي والشمس قد برزت فوق الأفق، فترجل ونادى فلم يسمع مجيباً ودار بالشجرة فوجد النول الذي كان الحائك

يستعمله وقد وقع وتكسر وتقطعت الخيوط التي كانت فيه، ثم وجد الحائك ملتفاً بردائه وقد فارقت روحه جسمه.

حانت من لذريق التفاتة فأبصر الغصون تميل على ماء النهر إيماء. فوقف يتأمل ذلك، فخيل إليه أنه سمع صوتاً لم يتبين مصدره يدوي في أذنه «إذا كسرت الأقفال عن هذا البيت وفتح هذا الصندوق فظهر ما فيه من الصور، فإن هذه الأمة المصورة في هذه الشقة تدخل الأندلس فتغلب عليها وتملكها؛ أيها الناس أين المفر!! البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم والله إلا الصدق والصبر».

فأيقن لذريق أن الصوت هو صوت النذير. وتبينه بعد مدة، يوم أن قاتله طارق بن زياد فغلبه، وانتزع منه ملك الأندلس.

٢. سفارات

عرفت الأندلس، بين عصورها الزاهرة، عصرين في أيام العرب بلغت فيهما حياتها السياسية والأدبية والعلمية والاقتصادية الذروة. أولهما، عصر الحكم وابنه عبد الرحمن الأوسط: وثانيهما، عصر عبد الرحمن الناصر. ومن غرائب المصادفات أن يتميز العصر بتبادل الوفود بين القسطنطينية وقرطبة. ولعل الوفود تبادلتهما العاصمتان في غير هاتين المناسبتين، كما تعددت الوفود إلى قرطبة من عواصم أخرى كثيرة، لكن وفادة رسل ملوك بزنطية في ذينك العصرين عني بها الرواة فدونوا أخبارها، لأنها، على ما يظهر، كانت لها عندهم دلالة خاصة، أو لأن أحداثاً أدبية فرضتها عليهم. هذا إلى قيمتها السياسية من حيث إنها مبعث فخر للسلطان أن يبادئه الملوك بإرسال الهدايا والرسل وطلب عقد المحالفات معه.

كان قيصر البزنطيين في أواسط القرن التاسع للميلاد وأوائل القرن الثالث للهجرة ثيوفيلوس، وكانت بزنطية قد لقيت الأمرّين في حرب العباسيين على يد المأمون وأخيه المعتصم. هذا فضلاً عن أن غارات أخرى كانت تشن على بلادها من جهات أخرى. ورأى ثيوفيلوس أن لا قبل له بمواجهة كل هذه القوى، فخطر له أن يستنجد بالقوى الغربية. وكان عبد الرحمن الأوسط آنئذٍ أمير الأندلس، فبدا للقيصر أن يعقد معه محالفة ويحرضه بالهجوم على العباسيين بحراً وبراً. وكان قصد ثيوفيلوس أن تشتغل قوى بغداد برد قوى قرطبة فيخف الضغط على حدوده الجنوبية.

أرسل ثيوفيلوس سفارته إلى أمير الأندلس ومع سفيره هدية فخمة. فوصل الرسول سنة ٢٢٥ هجرية (٨٤٠ ميلادية) يحمل الهدية وكتاباً من القيصر يذكّر فيه الأمير عبد الرحمن بالود القديم، الذي كان بين أسلافه في الشام وبين ملوك بزنطية، ويتذمر فيه من أعمال المأمون والمعتصم، ويشكو من احتلال أهل البحر الأندلسيين لجزيرة أقريطش (كريت الحديثة). ثم يطلب إليه تجديد الصداقة القديمة بين البيتين المالكين، ويُرغّبه في ملك الشرق ويستثيره لمناهضة العباسيين ويعده بالعون من جانبه

إن هو أقدم.

ولم يكن عبد الرحمن يفكر بأمر مثل هذا. فلم يثره كتاب ثيوفيلوس، لكنه رأى من الحكمة أن يرد على سفارة القيصر بما يليق بها. فاختار يحيى الغزال كاتبه ومشيره رئيساً للوفد، وكان الغزال قد تجاوز الخمسين لكنه ما زال نشيطاً. وكانت ثقافته وحنكته وكياسته تؤهله لمثل هذه المهمة، فضلاً عن ثقة الأمير به. وغادر قرطبة برفقة السفير البزنطي يحمل إلى القيصر كتاب أميره وهديته. والظاهر أن رحلته كانت شاقة جداً، تخللتها العواصف وتعرض فيها لأمواج البحر. وقد واتته شاعريته في وصف الموج إذ قال:

قال لي يحيى، وصرنا ... بين موج كالجبال
وتولتنا رياح ... من دبور وشمال
شقت القلعين وأنبتت ... عرى تلك الحبال
وتمطى ملك الموت ... إلينا عن حيال
فرأينا الموت رأي ... العين حالاً بعد حال

وقدم يحيى الغزال كتاب الأمير عبد الرحمن إلى قيصر بزنطية وفيه رد الأمير اللطيف على كل ما أشار إليه القيصر. فصداقته مقبولة، وسخطه على العباسيين مشاطر فيه، أما استرداد الملك بالمشرق فأمر مرغوب فيه لكن الأحوال لا تسمح به، فإذا ما جهز الأسطول وقوي قام الأمير بواجبه نحو صديقه وسليل أصدقاء آبائه.

وسحر الغزال لب البلاط البزنطي. فقد كان ذلق اللسان ظريفاً أنيس المعشر لطيفه، فأعجب به الجميع وفي مقدمتهم القيصر. وخف حديث يحيى على قلبه فطلب منه أن ينادمه لكنه اعتذر بتحريم الخمر. وكان يوماً جالساً عنده فدخلت الأمبراطورة ثيودورا وعليها زينتها فجعل الغزال لا يميل طرفه عنها وجعل الملك يحدثه وهو لاه عن حديثه. فأنكر ذلك عليه وسأله عن السبب فلم يكتمه بل ذكر له أن صورتها الحسنة ومنظرها الأنيق وطلعتها البهية شغلته عن حديث الملك. فأعجب هذا الكلام الملكين، وخصته ثيودورا بعطفها وروي أنها أهدته بعضاً من اللآلىء النادرة ليجهز بناته.

عاد الغزال إلى قرطبة بعد رحلة دامت عدة أشهر، وقد نجح في توطيد العلاقات الودية بين قرطبة وبزنطية وأوجد جواً مشبعاً بالثقة والعطف.

أما الوفادة الثانية فقد كانت في زمن عبد الرحمن الناصر، الذي يمثل ملكه العصر الذهبي في الأندلس. فقد وفدت عليه في السنة ٣٣٨ هجرية (٩٤٩ميلادية) رسل قسطنطين ملك بزنطية. وأراد الناصر أن يظهر للرسل أبهة ملكه وعظمة دولته فأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه، وأحسن قبول وأكرمه.

فلما وصلوا بجاية أخرج إلى لقائهم من يعتمد عليه لخدمة أسباب الطريق. فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة خرج إلى لقائهم القواد في العدد والعدة والتعبئة

فتلقوهم قائداً قائداً. ثم خرج الفتيان الكبيران. ثم أمر بهم الناصر فأنزلوا بقصر يخص ولي العهد بعدوة قرطبة في الربض.

ولعله داخل الناصر بعض الشيء من ناحيتهم، ورابه مجيئهم وأمرهم وخشي أن يكونوا عيوناً جاؤوا يتعرفون عورات الملك، فرأى أن يمنعوا من لقاء الخاصة والعامة جملة، ومن ملابسة الناس طراً. ورتب لحجابتهم رجالاً اختيروا من خاص الحراس.

وزين القصر الخلافي بأنواع الزينة. فبسط عتاق ودرانك كرائم تغطي صحنه، وظلل الديباج ورفيع الستور تظلل أبواب الدار وحناياها، والسرير الخلافي يتوسط المجلس. فلما تمت الاستعدادات كلها انتقل الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لدخول وفود ملك بزنطية عليه. فقعد لهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، في بهو المجلس الزاهر. وكانت الهيئة كاملة. فقد جلس عن يمين الناصر ولي عهده ثم بقية أبنائه عن يمينه ويساره، وحضر الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً ووقف الحجاب من أهل الخدمة وأبناء الوزراء والوكلاء.

تقدم رسل ملك الروم، وقد بهرهم ما رأوه وحيّرهم ما أحاط بهم، فدفعوا كتاب صاحب القسطنطينية، وكان الكتاب في رق مصبوغ لوناً سماوياً، مكتوباً بالذهب بالخط الإغريقي، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط إغريقي فيها وصف هدية الملك. وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل: على الوجه الواحد منه صورة المسيح وعلى الوجه الآخر صورة الملك قسطنطين. أما الكتاب فكان داخل درج فضة منقوش وعليه صورة مصنوعة من الزجاج الملون البديع. والدرج نفسه كان موضوعاً في جعبة ملبسة بالديباج.

كانت غاية قسطنطين من إرسال هذا الوفد، التقرب من الناصر والحصول على وصف صادق لعظمة بلاط قرطبة لكثرة ما تحدث الناس عنه، وقد نال ما أراد. فمما لا ريب فيه أن الوفد عاد إلى القسطنطينية وقد زود بكل ما طلب منه وعرف صدق ما نقله الرواة عن البلاط الأندلسي.

وكان الناصر قد أمر أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه أمام الوفد ليذكروا جلالة مقعده وعظيم سلطانه ويصفوا ما تهيأ له من توطيد الأمر في دولته، وكان قد عهد لولي العهد بإعداد ذلك. فرأى هذا أن يكون الأمر إلى أبي علي القالي البغدادي ضيف الخليفة وأمير الكلام وبحر اللغة. فلما دنا الوقت قام هذا وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم بهت ووقف ساكناً مفكراً. فلما رأى ذلك منذر بن سعيد، ولم يكن له من الأمر شيء، عندها، قام ووصل الافتتاح بكلام عجيب بهر السامعين، جاء فيه «.. وإني أذكركم بأيام الله عندكم، وتلا فيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم وأمنت سربكم ورفعت قوتكم... واستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء.. ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب

أحوالها؟... فلانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها.. وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم.. فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه، واسألوه المزيد من نعمائه، فقد أصبحتم في خلافة أمير المؤمنين، أحسن الناس حالاً وأنعمهم بالاً وأعزّهم قراراً وأمنعهم داراً».

بمثل هذا الاحتفال المهيب استقبل الناصر وفد القسطنطينية، وهو كما رأينا، أفخم من احتفال سلفه الأمير عبد الرحمن الأوسط. وقد كان هذا طبيعياً، فزمن الناصر أفخم جاهاً، وأكثر ثروة، وأنضج حضارة، من أي زمن آخر في تاريخ الأندلس العربية.

سرح الناصر الوفد بمثل الحفاوة التي استقبل بها، ورافقه حجاب الخليفة حتى خرج من بلاده.

والذي نستطيع أن نتبينه من دراسة هذه السفارات وغيرها أن الاتصال الدبلوماسي الذي يلجأ إليه أهل العصور الحديثة لحل بعض مشاكلهم وعرض وجهات نظرهم في المسائل المعلقة بين الدول، كان معروفاً في تلك العصور البعيدة. وقد ساهم أجدادنا فيه، مثلما فعلوا في نواحي التطور الأخرى، السياسية منها والفكرية.

٣. في مجالس الأنس

احتل العرب الأندلس وعمَّروها واختلطوا بأهلها، فتأثروا بالبلاد، واعتنى الملوك والخلفاء بثروة القطر فتيسر لهم من ذلك ما تحتاجه حياة الترف والبذخ. فنشأت في ديار الأندلس العربية حضارة قوامها العلم الأصيل والأدب الراقي والحياة المدنية الرفيعة.

وقد تجلت هذه النواحي كلها في مجالس الأنس التي كان أهل البلاد يعقدونها ويروِّحون بها عن نفوسهم. ولم تقتصر هذه المجالس على جماعة دون أخرى، بل شملت طبقات الشعب كلها، ولم تكن مجالس اللهو تعتبر سبة يتجنبها النابهون وأولو الشأن في الأندلس. فمجالس الغناء غصت بها المحافل وشغلت الشعراء في أوقاتهم الكثيرة، وفتحت على المتأدبين أبواباً من التفنن الشعري لم تكن معروفة قبلاً، حتى عزا بعض المشتغلين بتاريخ الأدب نشوء الموشحات إلى هذه المجالس. واشترك حتى في الغناء كثير من كبار القوم مثل عبد الوهاب بن حسين الحاجب.

وقد كان أثر المرأة في حياة الأندلس الأدبية والفنية كبيراً. فالشواعر والراقصات والمغنيات كن زينة هذه المجالس. فقد كان يؤتى بهنَّ من أصقاع العالم المختلفة. ومقام المرأة كان محترماً. ومن ثم كان أثرها الكبير في تنشئة الذوق الفني في الأدباء والشعراء. فاحترموها وأشادوا بذكرها. فقد كان لعبد الرحمن الناصر جارية حسنة

الخط راوية للشعر حافظة للأخبار عالمة بضروب الأدب. ومثلها جارية المعتمد، فقد كانت لها معرفة واسعة باللغة والشعر حتى عدّت بين علماء أشبيلية. ومن كبيرات المغنيات فضل المدنية وقمر البغدادية.

والحياة الأدبية الأندلسية بجدها وهزلها، والحياة العقلية بعمقها، والحياة الاجتماعية بآدابها وقيودها ـ كل أولئك كانت تظهر بأجلى مظاهرها في هذه المجالس. وأكثر ما يعبر عنها بالشعر الذي كان في الأندلس غناء الراقص وزاجر النفوس، وسلوة عن الفقر، ومعزة لمن يحب أن يفخر به.

فهذا عبد الوهاب بن حسين الحاجب يصفه لنا صاحب نفح الطيب بقوله: «كان واحد عصره في الغناء الرائق والأدب الرائع والشعر الرقيق واللفظ الأنيق ورقة الطبع وإصابة النادر والتشبيه المصيب والبديهة التي لا يلحق فيها. وكان أعلم الناس بضرب العود وصنعة اللحون». ويحدثنا المؤلف بأنه كان إذا لم يزره أحد من إخوانه أحضر مائدته عشرة من أهل بيته، بينهم ولده وكلهم يغني فيجيد الغناء. فلا يزالون يغنون بين يديه حتى يطرب فيدعو بالعود ويغني لنفسه. وكان له زامر من حذاق زمرة المشرق. وإذا هبط عليه زائر أكرمه وجدد له كرامته كل يوم حتى يأخذ منه ما معه من صوت مطرب أو حكاية لطيفة. روي أنه زاره يوماً ضيف فأمر بإدخاله، فإذا رجل أسمر رث الهيئة فسلم عليه فقال: أين بلد الرجل؟ قال: البصرة. فرحب به وأمره بالجلوس فجلس مع الغلمان في صفه وأتي بطعام فأكل وسقي أقداحاً ودار الغناء في المجلس حتى انتهى إلى آخرهم. فلما سكتوا اندفع يغني بصوت ندي وطبع حسن:

ألا يا دار ما الهجر ... لسكانك من شأني
سقيت الغيث من دار ... وإن هيجت أشجاني
ولو شئت لما استس ... قيت غيثاً غير أجفاني
بنفسي حل أهلوك ... وإن بانوا بسلواني
وما الدهر بمأمون ... على تشتيت خلان

فطرب عبد الوهاب وصاح وتبين الحذق في إشارته والطيب في طبعه. فقال يا غلام خذ بيده إلى الحمام وعجل علي به. فأدخل الحمام ونظف ثم دعا له بخلعة من ثيابه فألقيت عليه، ورفعه فأجلسه عن يساره وأقبل عليه فغنى له ثلاثاً ثم وصله وأحسن إليه.

وكان من شعراء الأندلس المجيدين أبو عامر بن شهيد فحضر ليلة عند المظفر بقرطبة، فقامت على سقايتهم وصيفة عجيبة صغيرة الخلق. ولم تزل تسهر على خدمتهم إلى أن همَّ جند الليل بالانهزام، وكانت تسمى أسيماء، فعجب الحاضرون من مكابدتها السهر طول ليلتها فسأل المظفر أبا عامر أن يصفها فصنع ارتجالاً:

أفدي أسيماء من نديم ... ملازم للكؤوس راتب

قد عجبوا في السهاد منها وهي لعمري من العجائب
قالوا تجافى الرقاد عنها فقلت لا ترقد الكواكب

وكانت تدور في مجالس الأنس هذه مناظرات ومساجلات بين الشعراء. فقد روي أن ابن العريف دخل على المنصور وعنده صاعد البغدادي فأنشده، وهو بالموضع المعروف بالعامرية:

فالعامرية تزهى على جميع المباني
وأنت فيها كسيف قد حل في غمدان

فقام صاعد وكان مناقضاً له فقال: أسعد الله المنصور ومكّن سلطانه. هذا الشعر الذي قاله قد أعده وأنا أقول أحسن منه ارتجالاً. فأذن له المنصور فقال:

يا أيها الحاجب المسـ تعلي على كيوان
ومن به قد تناهى فخار كل يماني
العامرية أضحت كجنة الرضوان
فريدة ـ لفريد ما بين أهل الزمان

إلى أن قال:

أُنظر إلى النهر فيها ينساب كالثعبان
والطير يخطب شكراً على ذرى الأغصان
والقضب تلتف سكرا بميس القضبان
والروض يفتر زهوا عن مبسم الأقحوان
والنرجس الغض يرنو بوجنة النعمان
فدم مدى الدهر فيها في غبطة وأمان

وهذه ولاّدة بنت المستكفي بالله كانت ماجنة، بارعة في الجمال، أديبة، شاعرة ذات مكانة رفيعة بين الأدباء. فقد كانت مجالسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر. فكان الشعراء والكتاب يتهالكون على حلاوة عشرتها فكانت تفاضلهم وتساجلهم، وكانت لها صنعة الغناء، وكان ابن زيدون ممن نال رضاها ووقع من نفسها كما وقعت من نفسه، وفيها قال بعد جلسة معها:

ودع الصبر محب ودعك حافظ من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطى إذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنى حفظ الله زمانا أطلعك
إن يطل بعدك ليلي فلكم بت أشكو قصر الليل معك

وابن خفاجة الأندلسي حضر مجلساً كان الساقي فيه رجلاً أسود أحدب فقال يصف المجلس والساقي:

رب ابن ليل سقانا والشمس تطلع غره

فظل يسود لونا والكأس تسطع خمره
كأنه كيس فحم قد أوقدت فيه جمره
وللمدام مدير يشب جمرة خمره
تضاحكت عن حباب يقبل الماء ثغره
ظللت آخذ ياقو ته وأصرف درّه
حتى تثيت غصناً واصفرت الشمس نقره
وارتد للشمس طرف به من السقم فتره
يحول للغيم كحل فيه وللقطر عبره

ومن حكايات أهل الأندلس في الطرب والظرف ما يروونه عن أبي بكر بن عمار وابن زيدون وابن خلدون أنهم خرجوا من اشبيلية إلى منظرة لبني عباد تحف بها مروج مشرقة الأنوار مبتسمة عن تعقد النوّار. وكان الزمان ربيعاً، فالأرض سقتها السحب، فتجلت في أبهى ملبسها وأجمل حليها. وقد نووا الانفراد للهو والتنزه في الروض والتذاكر في الأدب وسماع الغناء، وبعثوا صاحباً لهم اسمه خليفة ليأتيهم بشراب. فلما رأوه مقبلاً بادروا إلى لقائه، واتفق أن فارساً من الجند ركض فرسه فصدمه ووطىء عليه فهشم عظامه وكسر قمعال النبيذ وتوارى عنهم. فتأسفوا على ما حدث وقال ابن زيدون:

أنلهو والحتوف بنا مطيفه ونأمن والمنون لنا مخيفه

فقال ابن خلدون:

وفي اليوم وما أدراك يوم مضى قمعالنا ومضى خليفه

فقال ابن عمار:

هما فخارتا راح وروح تكسرتا فأشقاف وجيفه

ولعل قصة زرياب المغني وما لقيه من الحفاوة في البلاط الأندلسي خير ما يدلنا على عناية العرب هناك بالأنس الراقي والغناء الأنيق.

وزرياب كان تلميذ إسحق الموصلي ببغداد، فتلقف أغانيه ووهب من فهم الصناعة وصدق العقل مع طيب الصوت ما فاق به معلمه وهذا لا يشعر بذلك. وجرى يوماً لهرون الرشيد حديث مع إسحق اقترح فيه الخليفة عليه أن يأتيه بمغن جديد. فذكر له تلميذه زرياب فأمر بإحضاره. فلما جيء به حدثه الرشيد فأعجب بحديثه ثم سأله عن الغناء فقال له إنه يجيد من الغناء ما لا يصلح إلا للرشيد، واستأذن في الغناء فدعا الرشيد بعود أستاذه إسحق فوقف زرياب عن تناوله واستأذن الرشيد في أن يدخل عوده الخاص به. فلما أدخل لم يجد الرشيد فرقاً بين العودين فسأله عن السبب في امتناعه عن عود أستاذه، فقال زرياب: إن كان مولاي يرغب في غناء أستاذي غنيته بعوده، وإن كان يرغب في غنائي فلا بد لي من عودي. ثم بيّن للرشيد فضل عوده من

حيث صنعته وجودة أوتاره فاستبرع وصفه وأمره بالغناء. فجس عوده ثم اندفع وغناه، فطار الرشيد طرباً ثم أمر اسحق بالعناية بشأنه حتى يفرغ الخليفة له.

وانصرف الأستاذ والتلميذ من عندالرشيد، وقد غُلب إسحق على أمره، فلما انفرد بزرياب قال له: «إن الحسد أقدم الأدواء، والدنيا فتانة، والشركة في الصناعة عداوة... وعن قليل تسقط منزلتي وترتقي أنت فوقي وهذا ما لا أصاحبك عليه ولو أنك ولدي. فتخير في اثنتين إما أن تذهب عني في الأرض العريضة لا أسمع لك خبراً، وإما أن تقيم على كرهي ورغمي مستهدفاً إليّ فلست والله أبقي عليك». فخرج زرياب واختار الفرار، فأعانه اسحق على ذلك وراش جناحه فرحل عنه ومضى به مغرب الشمس. ولما تذكره الرشيد بعد فراغه من شغله وطلبه قال له اسحق: «ومن لي به يا أمير المؤمنين، ذاك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه، وقد رحل لما استبطأ جائزة أمير المؤمنين». أما زرياب فمضى إلى المغرب وسمت به همته فكتب إلى أمير الأندلس الحكم يعلمه مكانه من الصناعة التي ينتحلها ويسأله الإذن في الوصول إليه. فسر الحكم بكتابه، وأظهر له من الرغبة فيه والتطلع إليه وإجمال الموعد ما تمناه. فسار زرياب نحوه وركب البحر إلى الجزيرة الخضراء، وهناك توالت عليه الأخبار بوفاة الحكم فهمَّ بالرجوع إلى أفريقية. لكن المنصور المغني، رسول الحكم إليه، ثناه عن ذلك ورغبه في قصد عبد الرحمن الأوسط ولد الحكم. وكتب إليه بخبر زرياب فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطلعه إليه والسرور بقدومه عليه، وكتب إلى عماله على البلاد أن يحسنوا إليه وأن يوصلوه إلى قرطبة، وأمر خصياً من أكابر خصيانه أن يتلقاه ببغال وآلات حسنة. فدخل هو وأهله البلد ليلاً صيانة للحرم. وأنزله في دار من أحسن الدور وحمل إليها جميع ما يحتاج إليه وخلع عليه. وبعد ثلاثة أيام استدعاه وكتب له في كل شهر بمائتي دينار راتباً وأن يُجرى على بنيه الأربعة عشرون ديناراً لكل واحد منهم كل شهر، وأن يُجرى على زرياب من المصروف العام ثلاثة آلاف دينار كل عام في العيدين والموسمين، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوّم بأربعين ألف دينار. فلما قضى له سؤاله وأنجز موعوده وعلم أن قد أرضاه وملك نفسه، استدعاه فبدأ بمجالسته وسماع غنائه فما هو إلا أن سمعه فاستهواه واطرح كل غناء سواه وأحبه حباً شديداً وقدّمه على جميع المغنين.

ولما خلا به ذاكره في أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء، فحرّك منه بحراً زخر عليه مده، فأعجب الأمير به وراقه وشرّفه بالأكل معه. ثم فتح له باباً خاصاً يستدعيه منه متى أراده.

وزرياب هذا إنما أعجب الأمير لا لإجادته الغناء فحسب، ولكن لأنه كان يمثل ما يطلبه الأمير في نديمه في مجالس أنسه. فقد كان يريد المغني عالماً بالأخبار، عارفاً بالشعر، متذوقاً له، واسع المعرفة في شؤون العالم. وهكذا كان زرياب. فهو فضلاً عن

حفظه عشرة آلاف قطعة مغناة وإجادته لها، كان عالماً بالنجوم وقسمة الأقاليم السبعة واختلاف طبائعها وأهويتها وتصنيف بلادها وسكانها. وكان قد جمع إلى ذلك الاشتراك في كثير من ضروب الظرف وفنون الأدب ولطف المعاشرة. فإذا أضفنا إلى ذلك أنه استحدث في الموسيقى جديداً إذ أضاف وتراً خامساً للعود واخترع مضراب العود من قوادم النسر، لم نستغرب سر احتفاء عبد الرحمن بمغنيه الجديد.

وقد كانت مجالس الأنس هذه سبلاً لنشر الآراء الجديدة والأزياء الحديثة على الناس. فقد كان الحاضرون ينقلون ما يرون فيها وغيرهم يقلدهم. وقد بلغ إعجاب أهل الأندلس بزرياب أنهم قبلوا ما أدخله لهم في الفن وآدابه وما سنه في المجالسة والمنادمة ونقلوا عنه ما استحسنه من أطعمته وحلواه وما استعمله من آنية أو لباس وما اختطه من طرق لتعليم الغناء واختيار المطبوعين منهم.

والقصص التي تدور حول مجالس الأنس أكثر من أن يكفيها حديث. فنفح الطيب والإحاطة والذخيرة والمغرب والعقد الفريد مليئة بها. فمن رغب في الزيادة فعليه بها.

٤. صلات علمية بين الأندلس وأوروبة

في أواسط القرن السابع للميلاد، أي قبل احتلال العرب للأندلس بنحو نصف قرن، كان يعيش في مدينة إشبيلية الإسبانية عالم أسباني اسمه إيزيدور. وقد ألف ايزيدور هذا كتاباً في عشرين مجلداً سماه «الأصول» جمع فيه خلاصة للمعرفة والعلم، كما كان المتعلمون في تلك الأحقاب البعيدة يفهمون هذين الأمرين. ولم يلبث هذا الكتاب أن انتشر في أسبانية نفسها ثم تخطى البرانيز إلى أوروبة، فقبِلَه الناس ثم أصبح المرجع الرئيس لكل من حدثته نفسه بطلب العلم. كان الكتاب باللغة اللاتينية، لغة العلم والدين في تلك العصور، ولقد لقي هوى في نفوس الأوروبيين لأنهم وجدوه يحوي كل نواحي المعرفة. ولأنه كان مبوباً كثير الجداول والخلاصات، وفيه الأشياء الخارقة والأمور الغريبة، فوافق عصراً اعتمد أهله على ذاكرتهم في شؤون الفكر. والمهم في هذه المسألة هو أن انتشار هذا الكتاب يدلنا على الدرجة التي انحطت إليها أوروبة الغربية بعد تحطم الأمبراطورية الرومانية وغزوات البرابرة. وحتى في القرن التاسع الميلادي كان كتاب ايزيدور مرجعاً رئيساً للمتعلمين في أوروبة.

على أنه بالإضافة إلى هذا النوع من الكتب، كان في أوروبة نوع آخر من الدرس والبحث. ذلك هو درس الأمور الدينية والمسيحية، وخاصة في الأديرة. ويجدر بنا أن نذكر مدرسة القصر التي أنشأها شارلمان في عاصمة ملكه لتعليم أبنائه وأبناء الأمراء.

وبينما كانت أوروبة تتخبط في هذا الظلام العلمي الحالك، كانت ثمة نواح في العالم قد أشرق عليها نور الحضارة والمعرفة فأخذت تنبعث منها حركات علمية لم

تلبث أن أضاءت البقاع المجاورة لها تدريجاً. ومن هذه الأماكن بغداد والقاهرة في المشرق ومدن صقلية والأندلس في المغرب.

ولسنا نريد في هذا الحديث أن نعرض للحضارة العربية ونواحي الإجادة فيها، كما أننا لا نرمي إلى بيان تأثيرها في العالم، ولكننا نريد أن نتحدث عن هذه الصلات العلمية التي كانت سبباً لنقل ما كان عند عرب الأندلس من معرفة إلى الأوروبيين.

ويجدر بنا أن نذكر بادىء ذي بدء بضعة أمور تسهل علينا تتبع هذه الصلات. وأول ما يترتب علينا الإشارة إليه، هو أن أوروبة هذه التي كانت على ما ذكرنا، عرَتها هزة في القرن الحادي عشر نبهت ما فيها من عناصر النشاط، وفتحت عيونها إلى النور المنبعث حولها، فحاولت أن تستفيد من كل مكان فيه للفائدة مجال. نشطت مدنها للتجارة وأديرتها وكنائسها للإصلاح وعلماؤها للدرس ورحّالوها للأسفار وأمراؤها للحرب في أسبانية وفي المشرق في الحملات الصليبية.

والأمر الثاني الذي يجب أن نذكره هو أن الإمارات الأسبانية التي لم يقض عليها العرب لما فتحوا الأندلس والتي جمعت جموعها في القرن التاسع والعاشر، أخذت تهاجم العرب وتحتل مدنهم تدريجاً، ولا شك في أن احتلال طليطلة سنة ١٠٨٥ كان حادثاً هاماً في حياة العرب السياسية في الأندلس، لكنه كان من جهة أخرى حادثاً هاماً في تاريخ الحياة الإسبانية لأنه كان مدعاة للاحتكاك المباشر بالعلماء العرب والمتعربين.

وثالث ما يجب أن نشير إليه هو أن الاتصال العلمي والمدني بين أوروبة ومراكز الحضارة العربية لم تستقل به الأندلس، بل كان في ديار الشام وكان في صقلية أيضاً. ولكن اتصال أوروبة بالحضارة العربية في المشرق تناول النواحي المادية للمدنية كالبناء والزراعة والتجارة، وأغفل فيه نتاج العقل البحت. فإن الجيوش الزاحفة ومن رافقها لم تعنَ بالناحية الفكرية عناية تتفق والدورالذي شغلته الحملات الصليبية في التاريخ العسكري والاقتصادي والديني. وليس أدل على هذا الذي ذهبنا إليه من أنه لم يكن بين المشتغلين بترجمة الكتب العربية العلمية في ديار الشام سوى اثنين في هذه الفترة الطويلة: أولهما اسطفان البيزي الذي عاش في أوائل القرن الثاني عشر، وثانيهما فيليب الطرابلسي الذي جاء بعده بقرن تقريباً.

أما صقلية والأندلس فقد كان الاتصال فيهما شاملاً للنواحي المختلفة العقلية والمادية والأدبية والفنية كلها. والظاهرة الطريفة في هذا الاتصال أنه كان في اتجاه واحد ـ فقد أخذ الغرب عن العرب علومهم وآدابهم، سواء في ذلك ما أنتجوه بأنفسهم، وما نقلوه عن اليونان. والذي يجدر بنا ذكره هو أنه قد عمل في ترجمة الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية وغيرها من لغات أوروبة قرابة ثلاثمائة مترجم، عاش كثيرون منهم في أسبانية.

أما المراكز التي عنيت بنقل آثار العرب العلمية إلى الغرب، فقد انتشرت في المدن الأسبانية مثل إشبيلية وبرشلونة وتراغونة وسراغوسة، وفي مدن فرنسة مثل طولوز ومرسيليا ونربون ومونبليه، إذ تقدمت الدراسات الطبية في هذه المدينة الأخيرة تحت تأثير الأطباء العرب المباشر وغير المباشر، وفي مدن إيطالية في سلرنو وبولونيا.

ولم تقتصر الترجمة على فرع من فروع المعرفة دون آخر، بل تناولت كل النواحي: فقد نقلت كتب الرياضيات والفلك والتنجيم والموسيقى والطب والطبيعة والكيمياء والجغرافيا والتاريخ الطبيعي. لكن الكتب التي نالت عناية خاصة كانت كتب الفلسفة. ذلك لأن اتجاه التفكير الأوروبي في تلك العصور كان أساسه معالجة المشاكل الدينية والفلسفية فنقلوا ما يساعدهم على فهم هذه المسائل وتوضيحها من كتب الفلسفة والمنطق.

ومن أغرب ما وصل إلينا من الاتصال العلمي والتعاون في سبيل الترجمة، خبر المدرسة التي أنشأها ألفونسو الحكيم في طليطلة في القرن الثالث عشر للميلاد. كان ألفونسو هذا يقدِّر الثقافة العربية حق قدرها، ويدرك قيمتها للمتعلمين في أنحاء مملكته، ففتح في عاصمة ملكه مدرسة جعل على رأسها أبا بكر الريقوتي، العالم العربي المسلم. وكان تلاميذ الريقوتي الأسبانيون يتلقون على يديه علوم العرب باللغة العربية. فمتى تم لهم حذق مادة العلم ولغته نقلوا الكتاب إلى اللغة الأسبانية أو اللاتينية. فكانت هذه المدرسة داراً للعلم والترجمة فذاع صيتها وأمّها طلاب العلم من مختلف أنحاء أسبانيا النصرانية وأوروبة.

وقبل أن ننتقل إلى تعداد نماذج من التراجم التي تمت في تلك العصور النائية، نريد أن نشير إلى مدى تأثر الأسبان باللغة العربية وآدابها، حتى قبل الوقت الذي أشرنا إليه قبلاً. فقد نقل دوزي المستشرق الهولاندي، بهذه المناسبة، أن أهل أسبانية، هجروا اللاتينية واشتغلوا باللغة العربية وآدابها حتى شكا أحد أساقفتهم من انصراف قومه إلى قراءة الشعر والقصص العربية ودراسة المسائل الدينية والفلسفة باللغة العربية، حتى إن قراءة الكتب المقدسة باللغة اللاتينية أهملت بالمرة. وأشار العالم نفسه إلى أن كثيرين من الأسبانيين كانوا يجيدون الكتابة بالعربية، مع أنه قد لا يوجد واحد في الألف يستطيع أن يكتب كتاباً باللاتينية. وقد رأى أحد قسوس إشبيلية أن يعالج الأمر بالحكمة فنقل أسفار الكتاب المقدس إلى اللغة العربية ليتمكن نصارى الأندلس من قراءة كتبهم الدينية. وحتى بعد أن احتل الأسبان طليطلة، ظلت قراءة الكتب الدينية باللغة العربية أمراً مألوفاً. وعلى هذا فليس من المستغرب أن نجد في طليطلة، مدرسة الريقوتي التي أشرنا إليها.

كان قسطنطين الأفريقي من أهل القرن الحادي عشر، أول من نقل إلى اللاتينية الطب العربي. وقسطنطين هذا ولد في قرطاجنة، والتحق بكلية الطب في سلرنو وعمل

على نقل كتاب الملكي الطبي، وأتمه تلميذه يوحنا الشرقي. ثم عمل جرارد الكريموني على نقل كتاب التصريف للزهراوي، والمنصوري للرازي، والقانون للرئيس ابن سينا. ثم نقل فرج بن سالم الصقلي كتاب الحاوي للرازي وتقويم الأبدان لابن جزلة. وهكذا نقلت البذور الرئيسة للطب العربي إلى أوروبة، وانتقلت معها التعابير الطبية والاصطلاحات الكيماوية العربية مثل الجلاب والرب والشراب والصودا والكحول والأنبيق والقلي والأثمد والتوتيا.

وفي طليطلة، حتى قبل أيام الريقوتي، كان الأسقف ريموند قد بدأ بنقل بعض الكتب العربية، ثم تبعه غيره من الذين جذبتهم المدنية العربية إليها. وقد كان بينهم من علماء الإنكليز روبرت تشستر، الذي ترجم كتاب الجبر للخوارزمي، ثم عمل مع هرمن على نقل معاني القرآن الكريم إلى اللاتينية. وعقب ذلك إنشاء مدرسة للعلوم الشرقية في طليطلة.

ولا يجوز لمن يتناول أمر الاتصال العلمي هذا أن يغفل أمر إدلارد الإنكليزي. كان أصله من باث في انكلترا، وقد ساح في ديار الشام وصقلية وزار أسبانية في أوائل القرن الثاني عشر. وادلارد هو الذي ترجم الجداول الفلكية للمجريطي أثناء إقامته في أسبانية.

وممن وفد على طليطلة ميخائيل الأيقوسي وهناك عني بنقل ابن رشد إلى اللاتينية. كما نقل كتاب الهيأة للبطروجي وكتاب الكون والفساد لأرسطو مع شروح ابن رشد. ولما انتقل ميخائيل إلى صقلية تابع عمله في الترجمة تحت رعاية فردرك الثاني ملك صقلية، فتم هناك على يديه ترجمة كتاب ابن سينا المبني على كتاب الحيوان لأرسطو.

وقد أشرنا قبلاً إلى ما نقله جيرار الكريموني من كتب طبية، لكن ترجمته شملت، فضلاً عن ذلك المجسطي لبطليموس وشرح الفارابي لأرسطو وكتاب المبادىء في الهندسة لأقليدس. وقد بلغت الكتب التي ترجمها جيرار واحداً وسبعين كتاباً.

ونود أن نذكر القارىء الكريم بأن هذه الترجمات التي أوردناها إنما هي نماذج، وما كان لنا في هذه الصفحات المعدودة، أن نفعل أكثر من هذا.

وجدير بنا أن نشير إلى هذه الاتصالات العلمية في أوروبة. وقد لخص رنان الفرنسي ذلك بقوله: «إن نقل المؤلفات العربية إلى أوروبة غيَّر الاتجاه الفكري فيها. فبعد أن كانت أوروبة تعتمد على خلاصات مبوبة وبقايا جزئية مما خلّفته المدنية الرومانية من أمثال كتب ازيدور وبيد، أصبحت أوروبة، وقد عاد إليها العلم، بعد أن هذبته شروح المؤلفين العرب وإضافاتهم».

على أن الاتصال العلمي لم يقتصر على عصر السيادة العربية بل تعداها إلى أوائل العصر الحديث، حتى في أسبانية التي اشتدت في مقاومة الأثر العربي فيها حيناً من

الدهر. ومما يوضح لنا هذه الناحية حكاية مكتبة الأسكوريال. فقد اهتم فيليب الثاني في القرن السادس عشر للميلاد وبعض خلفائه في جمع ما تبقى من الكتب العربية القيِّمة فتجمع لديهم قرابة ألفي مجلد فجعلوها في دير الأسكوريال بالقرب من مدريد. وفي القرن السابع عشر أضيف إليها نحو أربعة آلاف مجلد أخرى. وحكاية هذه أن الشريف زيدان، سلطان مراكش، هرب من عاصمته وحمل معه مكتبته العربية الثمينة. لكن ربان السفينة أبى أن يسلمه الكتب لأنه لم يدفع له الأجر. وفيما كانت السفينة في طريقها إلى مرسيليا أحاط بها القراصنة الأسبان ونهبوها وأهدوا الكتب للملك فأمر هذا بأن تضاف هذه إلى مكتبة الأسكوريال. وبذلك أصبحت هذه المكتبة غنية جداً بالمخطوطات، ومركزاً رئيساً لدرس تراث العرب الفكري في الأندلس.

٥. صلات أدبية بين الأندلس والمشرق

لما كان العالم العربي وحدة سياسية، كان من اليسير على الناس أن يرحلوا فيه ويتنقلوا دون أن تعترضهم صعوبة ما. ولما توزعته دول رئيسة ثلاث: العباسية في المشرق، والأموية في المغرب، والفاطمية فيما بينهما، كانت قد احتفظت في أنحاء العالم العربي باللغة العربية وبالإسلام. وهذان يسرا للناس أن يستمروا على ما كانوا قد اعتادوه من الرحلة والسفر. بل إن انتقالهم في هذه العصور ازداد عما كان قبلاً. وكان الحج وطلب العلم والتجارة الدوافع الرئيسة للتنقل. على أننا يجب أن نضيف إلى ذلك الوفود الرسمية التي كانت تحمل رسائل ملوك الشرق إلى الغرب وبالعكس. فهذا التميمي يرحل من المشرق إلى المغرب يحمل رسالة من الخليفة العباسي القائم بأمر الله إلى ابن باديس، ومثله الموصلي الذي وفد على الأندلس رسولاً لملك مصر. على أننا عندما نتحدث عن بواعث السفر والتنقل يجب أن نشير إلى أن كثيرين من أهل المشرق رحلوا إلى الأندلس لينالوا حظوة في عيون ملوكه وأمرائه، لما بلغهم من أخبار البذخ والترف والإكرام في البلاط الأندلسي. وأكثرهم لم يخب ظنهم. وفي مقدمة أولئك عدد كبير من المغنين والمغنيات والشعراء والأدباء كزرياب وقمر والقالي وصاعد البغدادي.

حفظت لنا كتب الأدب والتاريخ أسماء مئات من رجال العلم والدين والأدب رحلوا من المغرب إلى المشرق في طلب العلم والتفقه. وهذا «نفح الطيب» يشغل ذكر هؤلاء العلماء نحو ثلثه. ونحن إذا قلبنا صفحاته ووقفنا أمام بعض المترجم لهم فيه، استطعنا أن نتبين أموراً كثيرة فيها متعة فكرية ولذة عقلية وفوائد تاريخية وطرائف أدبية. فمما نقع عليه هناك أن الرجال الذين كانوا يرحلون إلى مراكز العلم الشرقية كانوا يسمعون التفسير والحديث والفقه في القاهرة والإسكندرية ومكة ودمشق وبيت المقدس وبغداد. وكان المألوف أن يقيم هؤلاء العلماء في أربطة خاصة بهم. ورباط أبي سعيد

ببغداد كان في مقدمتها وكان بجوار المدرسة النظامية التي كانت دار علم ودرس. وفي بيت المقدس نجد أنهم كانوا يسمعون في المسجد الأقصى. هذا فضلاً عن عدد كبير من المدارس كان منتشراً في مدن الشرق.

وقد تولى كثير من المغاربة مناصب رفيعة في الشرق كالقضاء وغيره. فهذا ابن مالك صاحب الألفية يتصدر بحماة، وهذا ابن خلدون يتولى القضاء بمصر، وغيرهما كثير.

وقد لفتت أنظار الأندلسيين الراحلين إلى الشرق شؤون كثيرة تركوا لها ذكراً في نثرهم وشعرهم. فإن القاضي ابن العربي، من أهل القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) حكى أنه دخل بدمشق بيوت بعض الأكابر فرأى فيه النهر جارياً إلى موضع جلوسهم، ثم يعود من ناحية أخرى. فاستغرب ذلك ولم يفهم له معنى، حتى جاءت موائد الطعام في النهر المقبل إليهم فأخذها الخدم ووضعوها بين أيديهم. فلما فرغوا منها ألقى الخدم الأواني وما معها في النهر الراجع فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخدم تلك الناحية، فعلم عندها السر.

وابن العربي هذا رحل إلى بغداد حيث قرأ على الإمام الغزالي وسمع له في المدرسة النظامية. أما في بيت المقدس فقد تذاكر مع الطرطوشي في المسجد الأقصى.

وابن سعيد يهبط مصر ويترك لأحوالها الاجتماعية وصفاً طريفاً، ويؤثر فيه منظر النيل بعد الفيضان فيقول فيه:

نزلنا من الفسطاط أحسن منـــزل بحيث امتداد النيل قد دار كالعقـد
وقد جمعت فيـه المراكـب سحـرة كسرب قطا أضحى يرف علـى ورد
وأصبح يطفو المـوج فيـه ويرتمـي ويطـرب أحيانـاً ويلعـب بالنـرد
حلا مـاؤه كالريـق ممـن أحبـه فمدّت عليه حلة مـن حلـى الخـد
وقد كان مثل النهـر من قبـل مـده فأصبـح لمـا زاده المـد كالـورد

وقد وفد ابن سعيد هذا على الناصر صاحب حلب فأنشده قصيدة أولها:

جد لي بما لقي الخيال من الكرى لا بد للضيف الملم من القرى

فاستجلبه السلطان وسأله عن بلاده فروى له ابن سعيد ما حمله على الإعجاب به. ثم إن السلطان قال له إنه اختار له اسم البلبل لحسن صوته وإيراده للشعر الجميل، وكانت من عادة شعراء بلاط الناصر أن يلقبوا بأسماء الطيور، فرضي ابن سعيد شاكراً. ثم قال له السلطان يداعبه اختر يا هذا واحدة من ثلاث: فإما الضيافة التي ذكرتها في أول شعرك، وإما جائزة القصيد، وإما حق الاسم. فقال ابن سعيد «يا خوند المملوك مما لا يختنق بعشر لقم لأنه مغربي أكول فكيف بثلاث!». فطرب السلطان وقال هذا المغربي ظريف ثم أتبعه من الخلع والدنانير والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف.

ولقي بحضرته جماعة من العلماء فتناظروا وتباحثوا وتبادلوا الفوائد. وأعانه السلطان على الوصول إلى خزائن العلم في مملكته.

وممن لقي بالمشرق حفاوة كبيرة ابن مالك صاحب الألفية. وقد ذكرنا قبلاً خبر تصدّره بحماة. وقد تتلمذ عليه الشيخ النووي القاضي المشهور وغيره. وابن مالك كان كثير المطالعة سريع المراجعة لا يكتب شيئاً من محفوظه حتى يراجعه في محله، وهذه حالة المشايخ الثقات والعلماء الإثبات. ولا يُرى إلا وهو يصلي أو يصنف أو يقرأ. وقد كان إمام المدرسة العادلية بدمشق، وكان إذا صلى فيها شيعه قاضي القضاة ابن خلكان إلى بيته تعظيماً له.

وقد اشمأز العبدري المغربي من التفتيش الدقيق الذي اجتازه هو وجماعته على أيدي موظفي جمرك الإسكندرية لما زارها في أواخر القرن السابع للهجرة فقال يصف ذلك: «ومن الأمر المستغرب أنهم يعترضون الحجاج ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج، ويأخذون على وفدهم الطرق الفجاج، ويبحثون الركب، يوم ورودنا عليهم، جاءت شرذمة من الحرس فمدوا في الحجاج أيديهم وفتشوا الرجال والنساء وألزموهم أنواعاً من المظالم، وأذاقوهم ألواناً من الهوان ثم استحلفوهم وراء ذلك كله».

وقد كان هؤلاء الناس تدركهم وهم بالمشرق وحشة فيشعرون بألم الغربة ويعبرون عنه تعبيراً رقيقاً فيّاضاً بالشعور. فمن ذلك قول أحدهم يقابل فيه المشرق بالمغرب:

هذه مصر فأيــن المغــرب ... مذ نأى عني فعيني تسكب
فارقته النفس جـهلاً إنمـا ... يعرف الشيء إذا ما يذهب
أين حمص أين أيامـي بهـا ... بعدها لم ألق شيئاً يعجـب
بلــدة طابــت ورب غافــر ... ليتني ما زلت فيها أذنـــب
أين حسن النيل من نهر بها ... كل نغمـات لديــه تطــرب
ملعب للهــو مــذ فارقتــه ... ما ثناني نحو لهو ملعـــب
هذه حالــي وأمــا حالتــي ... في ذرى مصر ففكر متعب
سوف أثني راجعاً لا غرَّبي ... بعدما جربت بـــرق خلــب

وقد أشرنا قبلاً إلى بعض من رحل إلى الأندلس من أهل المشرق. فأما زرياب المغني فقد عرضنا له في حديث سابق، ولذلك سندعه الآن وشأنه. وأما أبو علي القالي فقد كان وحيد عصره معرفة في اللغة والأدب، وكتابه الأمالي هو ما أملاه على طلابه وتلامذته في جامع قرطبة أو جامعتها. فقد سمع عنه من قبل بالموصل وبغداد، حيث أقام خمساً وعشرين سنة. ثم خرج من العراق قاصداً الأندلس ودخلها في أيام الناصر وصنف له ولولده الحكم وبث علومه هناك. وفي قرطبة اجتمع بابن القوطية أحد أئمة اللغة في الأندلس. وكان ابن القوطية على سعة علمه، من العباد النساك. وروي أن القالي توجه يوماً إلى ضيعة له بسفح جبل قرطبة فصادف ابن القوطية

صادراً عن بقعة من بقاع الأرض الطيبة، فلما رآه عرّج عليه فقال القالي مداعباً:

من أين قد جئت يا من لا شبيه له ومن هو الشمس والدنيا له فلك

فتبسم وأجاب بسرعة:

من منزل تعجب النساك خلوته وفيه ستر على الفتاك إن فتكوا

وإذا كان عصر الناصر قد ازدهى بورود القالي من المشرق، فإن أيام المنصور الحاجب ابن عامر قد ازدهرت بقدوم صاعد البغدادي صاحب كتاب الفصوص. وصاعد موصلي الأصل. وكان المنصور يأمل أن يكون محله في بلاطه مثل محل القالي في بلاط الناصر، لكن صاعداً لم يصل إلى درجة سلفه. فمع أنه كان واسع المعرفة في الغريب من أمور اللغة ورواياتها وآدابها، فقد كان عريض الدعوى، فأعان مناوئيه على نفسه. ولعل هؤلاء المناوئين حسدوه على نعمته فأخذوا بملاحقته ومضايقته فعددوا عليه أنفاسه، وهذا ضيق عليه الخناق. وقد كان من خصومه ابن العريف وفاتن غلام المنصور وأبو مروان الكاتب. وكثيراً ما بلغت الأمور بينهم حد المهاترة ووصلت إلى الإقذاع في الهجاء. وقد كان المنصور الحاجب يحب صاعداً، لكنه كان يرغب في رؤية خصومه من أهل الأندلس منتصرين عليه. ومن ذلك أنه وقع صاعد مرة في بركة في مجلس المنصور وأخرج منها، وقد كاد البرد أن يأتي عليه. فسأله المنصور إن كان قد حضره شيء فقال بيتاً من الشعر استبرده أبو مروان وقال: هلا قلت:

سروري بغرتك المشرقه وديمة راحتك المغدقه

ثاني نشوان حتى غرقت في لجة البركة المطبقه

لئن ظل عبدك فيها الغريق فجودك من قبل قد أغرقه

فطرب المنصور لذلك وقال له «لله درك يا أبا مروان. قسناك بأهل بغداد ففضلتهم، فبمن نقيسك بعد؟».

وفي هذه القصة نلاحظ أمرين: الأول سرور المنصور بتفوق الأندلسي على البغدادي، والثاني المنزلة التي كانت لبغداد في نفس الناس. فقد اعتبر المنصور نهاية الرفعة الأدبية أن يقابل أبو مروان بأهل بغداد فيفضلهم.

وقد عرَّض الأدباء الأندلسيون بصاعد كثيراً فاتهموه بسرقة الشعر وهدم معانيه القديمة ونحلها نفسه. وقد روى صاحب النفح كثيراً من ذلك. فإن ابن العريف سمع صاعداً يرتجل بيتين من الشعر في حضرة المنصور فاتهمه بالسرقة وخرج من ساعته إلى صديق له شاعر نظم له قصيدة ضمنها البيتين ثم كتبها على رق مغبر بخط قديم وحملها إلى المنصور ليثبت اختلاس صاعد.

ومع ذلك فقد أعجب الأندلسيون بظرف صاعد وبارع نكتته وجميل شعره فأحلوه صدور مجالسهم، ووهبه المنصور مالاً جزيلاً وخلع عليه فقضى بقية حياته في نعمة ورغد عيش.

من هذا العرض الموجز لبعض أخبار من تنقل بين أطراف العالم الإسلامي نستطيع أن نخلص إلى أن التعاون الثقافي كان وثيقاً بين مراكز الحضارة الإسلامية في المشرق والمغرب، فكانت بغداد ودمشق والقاهرة وبيت المقدس على اتصال بتونس وفاس ومراكش وقرطبة وإشبيلية وغرناطة. وإن هذا التعاون لم تؤثر فيه الخصومات السياسية أو توزع ثلاث قوى رئيسية لعالم بغدادي يعتبر نفسه غريباً في قرطبة، أو أندلسي غريباً في الإسكندرية.

ولسنا نشك في أن هذا التعاون الفكري يرجع إليه الفضل في أن الحضارة العربية كانت جمة النشاط تنبض بالحياة، شاملة عامة. وهذا من عناصر الخلود فيها.

ونحن الذين نرى أنفسنا على أبواب عصر جديد في حياتنا السياسية والفكرية والروحية حري بنا أن نتعرف إلى الوسائل التي اتبعها أسلافنا في سبيل التعاون على أنواعه المختلفة لعلنا نستفيد منهم هدياً ورشداً.

رغبة في نفس فيلبس الذي كان يرى نفسه أحق بالأمر من غورديان. ولم يكن في تفكير ذلك العصر السياسي والخلقي ما يمنع ذلك. ألم تكن هذه هي الطريقة التي سار عليها الأكثرية من الأباطرة للوصول إلى العرش؟ ألم يكن الجيش هو الذي يخلع الأمبراطور أو يرفعه؟ ألم يصل غورديان نفسه إلى العرش بهذه الواسطة؟ إذن فليجعل الجند فيلبس إمبراطوراً.

وهذا ما حدث. ائتمر الجند بغورديان فخلعوه ونادوا بفيلبس إمبراطوراً سنة ٢٤٤ وأبدى غورديان الكثير من الخوف والجزع ورجا الجند أن يبقوا عليه وليسمحوا له أن يكون تابعاً لفيلبس يأتمر بأمره. ولكن منطق الجند في ذلك العصر لم يكن يسمح بذلك. فالأمبراطور المخلوع لا يؤتمن، وإذن فيجب أن يقتل. وتم ذلك في شمال العراق، في مكان يسميه المؤرخون زيتا، يقع بين قرقيسيا والصالحية. كان الجند يحيطون بالأمبراطور السابق كأنهم يحرسونه خشية أن يهرب، لكن نفراً منهم كانوا قليلي صبر اغتالوه في غفلة من الحرس.

اتهم بعض المؤرخين فيلبس بأنه هو الذي دبر قتل غورديان. وليس في الوثائق التاريخية التي بين أيدينا ما يثبت ذلك، بل إن منطق الحوادث يكاد يثبت عكس ذلك. فإن فيلبس كان من أتباع الفلسفة الرواقية التي لم يعرف عن تلاميذها مثل هذا. ثم إن فيلبس لم يلجأ إلى الاغتيال للتخلص من خصومه فيما بعد. وحتى لما ظهر له منافس على العرش لم يلجأ فيلبس إلى الحيلة في قتله أو اغتياله، بل قاد جيشاً لمحاربته، مع أنه كان يعرف أن ثمة خطراً في مواجهة خصمه، وكانت النتيجة أن دارت الدائرة على فيلبس فقتل في تلك المعركة. ولنضف إلى ذلك أن فيلبس احتفل بذكرى غورديان بعد عودته إلى رومة وحمل المشيخة على تأليه الأمبراطور المتوفى.

نودي بفيلبس أمبراطوراً والجيش بعد في الشرق. ولم يكن يكفي أن يقبل جيشه به حتى تقبل به جنود الأمبراطورية. ولكن كان من حسن حظه أن جيشه كان أكبر الجيوش آنئذ وأكثرها نظاماً وترتيباً، ذلك لأنه كان مهيئاً للقضاء على الأمبراطورية الساسانية. وكان فيلبس يعرف أن الحرب بين الرومان والساسانيين انتحار لا مبرر له. فالرومان لا يستطيعون القضاء على تلك الدولة ولا يمكن أن يحتلوا من بلادها شيئاً يستحق كل هذا الذي ينفق من المال والرجال، لذلك كان أول ما فعله هو عقد صلح مع سابور الأول الساساني. وبحكم مواد هذا الصلح احتفظ الرومان بأرمينية الصغرى، وهي حول أضنة ومرسين الحالية، وظلت لهم الجزيرة العراقية، أي الجزء الشمالي من العراق، ومثل هذا الصلح كان في مصلحة رومة بقدر ما كان في صالح المدائن.

وبعد تنظيم شؤون الشرق عاد فيلبس إلى رومة، عاصمة أمبراطوريته، ليديرها من هناك.

حكم فيلبس قرابة خمس سنوات. وكانت هذه المدة، على قصرها، على غاية من الأهمية في أواسط القرن الثالث للميلاد في تاريخ رومة.

وخاصة في الشرق. فالدولة الساسانية كانت حديثة عهد بالإحياء الذي تم سنة ٢٢٦م. وكانت تطمع في توسيع حدودها غرباً على نحو ما كانت عليه الأمبراطورية الفرتية والأمبراطورية الفارسية من قبل. وقبائل الدانوب كانت تتحين الفرص بالأمبراطورية الرومانية فلا تلمح فترة انشغال أو حرب أو ثورة إلا وتهاجم الحدود لتغنم أو تفتح أو تنهب. فالحروب بين الساسانيين والرومان أتاحت لهذه القبائل الفرصة لتجديد غزواتها.

كان الأمبراطور الروماني سنة ٢٤٠م غورديان، وقد وصل هذا إلى العرش بعد معارك دموية وحروب أهلية أزهقت فيها أرواح الألوف من الناس. وإنما اختار أصحاب الشأن غورديان لأنه كان فتى صغيراً فيسهل ذلك لهم تسييره على الشكل الذي يريدون. لكن غورديان قيّض له الحظ معيناً مخلصاً أميناً في شخص ثيميزيتوس الذي كان رئيس الحرس البريتوري. ومعنى ذلك أنه كان صاحب أقوى منصب في الأمبراطورية بعد الأمبراطور نفسه. وصرف الاثنان همهما نحو قبائل الدانوب وقوى الأمبراطورية الساسانية. فتغلبا على الأولى ثم اتجها إلى الشرق. ولقيت قواهما النصر في سورية. فقد أنقذت أنطاكية واستردت نصيبين وكسر الجيش الساساني في رأس العين، في شمال الجزيرة. وصرف الأمبراطور وصاحبه بعض الوقت في ترتيب البلاد التي استخلصاها من الساسانيين، ثم هيىء الجيش للحملة ضد المدائن عاصمة الساسانيين، للقضاء على الدولة. لكن التاريخ كان قد احتفظ باحتلال المدائن والقضاء على الدولة الساسانية لقوم آخرين، فلم تتم رغبة غورديان. ذلك أن معينه ثيميزيتوس توفي في شتاء ٢٤٣م.

وقع اختيار غورديان على فيلبس العربي ليخلف ثيميزيتوس، فأصبح رئيس الحرس البريتوري. وفيلبس هذا عربي من اللجاة، في شرق سورية. كان أبوه شيخاً من شيوخ بلاده، فنشأ فيلبس فارساً مغواراً شجاعاً كريماً. وبحكم ما كان بين عرب مشارف الشام والرومان من صلات ومعاهدات، التحق فيلبس بالجيش الروماني. وعرف رؤساؤه فيه مقدرته واكتسب بشجاعته وقوة شخصيته احترامهم فترقى بسرعة كبيرة. والظاهر أن فيلبس كان يجمع إلى الصفات الحربية والخلقية المتينة إحاطة تامة بالحياة الفكرية، وخاصة الفلسفية منها، التي كانت تشغل بال المتعلمين في ذلك الوقت. فلم يكن غريباً والحالة هذه أن يكسب فيلبس احترام رؤسائه ومرؤوسيه. وكان طبيعياً أن يبلغ منصب المساعد لرئيس الحرس البريتوري. فلما مات الرئيس اختار غورديان فيلبس ليخلفه. وكان فيلبس آنئذٍ في الخامسة والأربعين، في سن الطموح والقوة والنضج.

ولما ولي فيلبس الأمر تغيرت وجهة نظر الجند في الأمبراطور، فهو شاب بعد، ولم يعرف عنه أنه برز في عمل خاص، وهذا صاحب جنده فارس كريم شجاع مفكر. فلماذا لا يحل الرجل المجرّب المحبب مكان الشاب الغر؟ هذا ما فكر به الجند. ووافق هذا

فيلسوف أثيني زار رومة نائباً عن مدينته وقدم للأمبراطور مطالب مدينته. وقد أعجب السفير بالأمبراطور ومعرفته وسعة اطلاعه، وقبل الأمبراطور كثيراً من مطاليب أثينا إكراماً لسفيرها الفيلسوف.

لكن لدينا ما هو أثمن من هذه، فهنالك خطاب محفوظ عندنا ألقاه أرسيتدس في أيام فيلبس سماه «إلى الملك». يتحدث أرسيتدس فيه عن الملك الصالح والحاكم المثالي. فيشير إلى أنه هو الذي يكون عادلاً مؤمناً بفلسفة الرواقيين غير النفعية. ويريد أرسيتدس هذا الحاكم أن يكون مستنيراً ولو مستبداً. ويجب أن يكون الأمبراطور خير رجل يمكن العثور عليه في حدود الدولة. ويترتب على الملك أن يكون سيد الجند لا خادمهم. والمؤرخون متفقون على أن خطاب أرسيتدس هذا يصور فيلبس وشخصيته بحيث لا يعدو الحقيقة كثيراً.

كان فيلبس بحكم هذه النظرية الواسعة بعيداً عن التعصب، فلم يضطهد النصارى على نحو ما عرف قبله وبعده، بل عاملهم معاملة فيها الكثير من الحلم وسعة الصدر. وكان في ذلك الوقت أحد آباء الكنيسة المسمى أوريغون يعيش في سورية فكتب إلى فيلبس وزوجه رسائل حول النصرانية يفسرها ويشرحها فتقبلها الأمبراطور منه. وهذا ما حمل بعض المؤرخين على القول بأن فيلبس تنصر. ولكن الواقع أن الأمبراطور لم يعتنق النصرانية.

ولم يخل حكم فيلبس من ثورات ضده. فادعى العرش ثلاثة وثارت قبائل الدانوب. وفكر فيلبس في اعتزال الحكم حسماً للنزاع. لكن لما أصبح المنافسون له ثلاثة رأى أن يهدىء الأمور قبل ترك العرش، وقد أعانه جند اثنين من الثائرين على زعيميهم فقتلوهما، وأرسل فيلبس جيشاً بقيادة ديسيوس لقمع ثورة الدانوب، فلما نجح القائد أجبره جنده على أن يكون أمبراطوراً.

والتقى فيلبس بديسيوس في معركة دارت فيها الدائرة على الأمبراطور العربي فقتل سنة ٢٤٨م.

هذا هو العربي الذي حكم الأمبراطورية الرومانية في ذلك العصر المضطرب وأدارها إدارة حكيم حازم. والمؤرخون مجمعون على أنه من خير من تولى العرش في أثناء هذه الأزمة العصيبة في حياة رومة.

٢. يوم مؤتة

أغذ صاحباي السير، وكانا يجيدان ركوب الخيل وقد نشآ عليها، وتبعتهما حذراً يقظاً، فما أنا من أهل الطراد إذا ثارت ثائرة الفرس. لكنهما ترفقا بي فلم يعرضاني إلى ما لا تحمد عقباه. وكانت الشمس قد قطعت من قوس نهارها جزءاً كبيراً لما بدت لنا قبتا مقام جعفر في قرية البزار. وكنت قد منيت نفسي بزيارة هذا المكان سنوات طويلة، وها هي أمنية الصبا تتحقق اليوم، وها نحن فوق الأرض التي شربت دماء

عاد فيلبس إلى رومة بتاج بعد أن غادرها ضابطاً كبيراً فقط. وانصرف عندها بكليته إلى مشاكل الأمبراطورية وواجباته نحوها يصرفها بما عنده من خبرة وحكمة واتزان. فكان أول ما فعله هو أن أعلن العفو العام عن جميع المنفيين والمسجونين لأمور سياسية أو بسبب وشايات أصحاب المراكز العليا والسلطان. ثم نظم طريقة الاستئناف إلى الأمبراطور ومجلسه. فبعد أن كانت كل الأحكام تستأنف إلى الأمبراطور شخصياً، فصل فيلبس بين ما يجب أن يحمل إليه وبين ما يجب أن تنظر فيه المحاكم. فالقرارات التي يصدرها مندوبو الأمبراطور الشخصيون تستأنف إليه، أما القضايا الأخرى فتنظر فيها المحاكم المختصة. وحدد فيلبس واجبات المجلس الأمبراطوري وحقوقه بحيث لا يسمح له أن يفتات على حقوق المشيخة أو المحاكم. وكانت شرور الإدارة المالية السيئة قد وصل أثرها إلى جميع أنحاء الأمبراطورية، فوضع فيلبس حداً لتصرف رجال الخزينة وحدد واجبات الناس من الضرائب. ولكن كان أهل الأمبراطورية، على ما يظهر، يأملون أن يُعفوا من كثير من الضرائب التي كانت مصاريف الدولة تحتاجها، فخاب أملهم.

وعني فيلبس ببناء الطرق لأنه كان جندياً يعرف قيمة الطرق الصالحة للجيش، وكان يدرك الفائدة التي تعود على التجار والتجارة من الطرق الآمنة المحروسة. كذلك اهتم ببناء الحصون وترميم ما تصدع منها في الحدود الدانوبية، لأن تلك الجهة كانت مصدر خطر كبير على رومة.

وكان من الطبيعي أن يهتم فيلبس بالجزء العربي من أمبراطوريته، وهو الجزء الذي ولد فيه وشب، والذي يسكن فيه أهله وعشيرته وقومه. فنحن نعرف أن فيلبس بنى في اللجاة مدينة في المكان الذي ولد فيه سماها فيليبوبوليس أي مدينة فيليب. كما أنه رفع درجة بصرى إلى «مدينة رومانية» ومنح نصيبين وسنجر ألقاب الشرف وعمّر مدينة نابلس. وكم كنا نحب لو أن مؤرخاً سورياً عاش في أيام فيليبوس وأرّخ له ولعصره ولعنايته بسورية.

شاء القدر أن تحتفل رومة بعيدها الألفي أيام كان فيلبس العربي على عرشها، وقد احتفى الأمبراطور احتفاء كبيراً في سنة ٢٤٧م. فأقيمت حفلات الألعاب في قاعة السرك الكبرى، وكانت ألعاب المجالدة والمصارعة من أجملها. ذلك أن غورديان كان قد جمع حيوانات كثيرة تحضيراً للاحتفاء بانتصاره على الساسانيين فاستخدمها فيلبوس في الذكرى الألفية لرومة. وكان فيلبوس أنفق في هذه المناسبة ما ادخره في مناسبات أخرى، فنال أهل رومة شيئاً كثيراً من الولائم والمآدب وتمثيل الروايات. فخرج الناس بعد أيام من السرور الشامل وهم يلهجون بذكر الأمبراطور الذي يسر لهم مثل هذه النعم والخيرات.

وقد أشرنا من قبل إلى أن فيلبس كان بين كبار مفكري ذلك العصر، وأن ثقافته كانت واسعة منوعة. وكان أثر ذلك بادياً في حكمه وإدارته. فنحن عندنا وثيقة من

المسلمون في معان ليلتين يتشاورون في أمرهم، وخطر لهم أن يكتبوا إلى النبي يطلبون رأيه، ويرجون منه المدد والمعونة. لكن عبد الله بن رواحة خطب فيهم قائلاً «والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة. ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة». فأمن الناس على قوله ومضوا وقد زاولتهم الريبة وعاد إليهم إيمانهم. وقد قال ابن رواحة في ذلك:

جلبنا الخيل من أجأ وفرع ... تغر من الحشيش لها العكوم
حذوناها من الصوان سبتا ... أزل كأن صفحته أديم
أقامت ليلتين على معان ... فأعقب بعد فترتها جموم
فرحنا والجياد مسومات ... تنفس في مناخرها السموم
فلا وأبي مآب لنأتينها ... وإن كانت بها عرب وروم

وظاهر الأمر، مما أورده مؤرخو العرب وجغرافيوهم، أن الروم كانوا في اللجون، وهو حصن روماني الأصل أو أقدم، يقع شمال الطريق الممتدة من الكرك إلى القطرانة. فتحرك الجيش الرومي جنوباً وتحرك المسلمون شمالاً من معان، فالتقى الجمعان في هذا السهل الفسيح المحيط بمؤتة، والذي يمتد البصر فيه مسافات شاسعة. وانحاز الجيش العربي إلى مؤتة متخذاً من التل الذي يرتفع جنوبها درعاً يقيه التفاف الروم. وعبئت هذه الآلاف الثلاثة، وكان زيد على القلب، وقطبة العذري على الميمنة، وعبادة الأنصاري على الميسرة. وهجموا وزيد يحمل راية النبي فاقتتل الناس فقاتل زيد حتى هلك في رماح القوم، فتقدم جعفر إلى الراية فقاتل بها، فلما ألحمه القتال ترجل عن فرسه الشقراء وقاتل وقطعت يمينه وكان يحمل اللواء بها، فأخذ عبد الله بن رواحة اللواء وتقدم به وهو على فرسه وقال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلي فعلهما هديت

وتقدم فقاتل حتى قتل.

وجاء ثابت بن أرقم فتناول الراية وطلب إلى المسلمين أن يختاروا رجلاً منهم يتولى أمرهم، فلما رفض هو اصطلحوا على خالد بن الوليد.

كانت مهمة خالد شاقة جداً. فالجيش الكبير قد كاد يفتك بالجماعة الصغيرة، وأدرك هذا الرجل أنه يتحتم عليه أن ينقذ جماعته من وسط هذا العراك الذي لا تناسب فيه، فنظم قومه ودافع العدو وتحاشى الاتصال به، فأنقذ من بقي وانصرف بهم.

وبلغ خبر مؤتة النبي وأهل المدينة، فكان وقعه عليهم شديداً، وإن اختلف أثره في الناس. أما النبي فقد حزن على الذين استشهدوا هناك حزناً شديداً، فقد روي أنه دخل على أسماء زوج جعفر وقد عجنت عجينها وغسلت بنيها ودهنتهم ونظفتهم فطلب

جماعة من كرام المسلمين يوم أن جاؤوا ليقاتلوا الروم في معركة مؤتة.

وخفق قلبي طرباً لزيارة المكان، ولم ألبث أن تمثلت أمامي المعركة بتفاصيلها وبدت لعيني التضحية التي يقوم بها المؤمن بالمثل الأعلى الذي يدافع عنه وهو يعرف بأنه قادم على خطر أقل ما ينشأ عنه الموت، ولكنه الإيمان والحق صبّا في قلوب القوم فكان منهم شهداء مؤتة.

عادت بي الذكرى، ونحن ننتقل بين قبور الشهداء الأبرار، ثلاثة عشر قرناً وأزيد إلى الوراء، فرأيتني أذكر أخبار هذه الحملة. جهزها النبي في جمادى الأولى من سنة ثمان للهجرة، واختار لها رجالاً من خيرة جماعته من الأنصار والمهاجرين. فقد رأى أن الشام ومشارفه طريق رسالته إلى العالم الخارجي، فأراد أن يتعرف إلى هذه الطريق، وليس من تثريب عليه أن يؤمن لجيوشه هذه السيوف المشرفية التي كانت تصنع في تلك الربوع. على أن أمراً آخر كان في نفس الرسول لما جهز هذا البعث: ذلك أن رسولاً للنبي إلى صاحب بصرى كان قد قتل في تلك الجهات فأراد أن يثأر له ويؤدّب المعتدين عليه.

تجهز القوم وكانوا ثلاثة آلاف، وقد استعمل الرسول عليهم زيد بن حارثة وقال: «إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس». فلما تهيأوا للخروج ودعهم أهلهم وتمنوا لهم الخير.

والأمراء الثلاثة، وقد سموا أمراء رسول الله، هم من أعز الناس على النبي وأحبهم إليه ومن أصحاب السابقة بين الصحابة. فأما زيد فقد كان حب النبي نشأ في حجره وكان من أوائل من آمن برسالته وقبل الإسلام. وجعفر بن عم النبي عزيز عليه مقرب لديه. وعبد الله شاعر من الأنصار له في الرسول قصائد غرر، وهو الذي قال يوم توديع الرسول للجيش:

أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه، فقد أزرى به القدر

فثبت الله ما آتاك من حسن ... في المرسلين، ونصراً كالذي نصروا

إني تفرست فيك الخير نافلة ... فراسة خالفت فيك الذي نظروا

على أنه بالإضافة إلى هؤلاء الثلاثة الأمراء كان في الجيش مسعود بن الأسود ووهب بن سعد وعباد بن قيس والحرث بن النعمان وسراقة بن عمرو وأبو كليب وجابر ابنا عمرو بن زيد، وابنا سعد بن الحرث وخالد بن الوليد.

سار الجيش القليل الفئة، العامرة قلوب أهله بالإيمان يقطع فيافي الحجاز وقفاره يحدو رجاله الأمل ويملأ نفوسهم المثل الأعلى الذي خرجوا من أجله. واستمروا على ذلك حتى هبطوا معان، في جنوب شرقي الأردن. ومعان نقطة اتصال رئيسية بين الحجاز وجنوب سورية من أقدم الأزمنة، وتقع على الطريق إلى الكرك.

نقل إلى الجيش أن هرقل أمبراطور البزنطيين قد نزل في أرض البلقاء في مائة ألف من رجاله الروم، وأن جماعة كبيرة من أهل تلك الجهات انضمت إليه. فأقام

أما كعب بن مالك فكان مما قاله:

نام العيون ودمع عينك يهمل ... سحاً كما وكف الطباب المخضل
في ليلة وردت علي همومها ... طوراً أخِن وتارة أتململ
واعتادني حزن فبت كأنني ... ببنات نعش والسماك موكل
وكأنما بين الجوانح والحشا ... مما تأوبني شهاب مدخل
وجدا على النفر الذين تتابعوا ... يوماً بمؤتة أسندوا لم ينقلوا
صلى الإله عليهم من فتيةٍ ... وسقى عظامهم الغمام المسبل
صبروا بمؤتة للإله نفوسهم ... حذر الردى ومخافة أن ينكلوا

وثمة غير هذا كثير مما قيل، ورد ذكره في كتب الأدب. والذي نراه من ذلك أن يوم مؤتة كان يوم حزن في المدينة.

ولكن يوم مؤتة شيء آخر في تاريخ العرب والإسلام. كانت معركة مؤتة انكساراً لهذا الجيش من المسلمين، إذ كان مقياس النصر والانكسار التقدم في الموقعة والتراجع. أما إذا اعتبرت الناحية المعنوية في القضية فيوم مؤتة يوم أغر في التاريخ. لقد كان نصراً مبيناً. فقد انتصرت فيه الفكرة على المادة، ذلك لأن الجماعة التي تقدمت للقتال كانت تعرف، منذ أن بلغها نبأ الجيش، أنها لا قبل لها بالغلب عليه، ورغم ذلك أقدمت لأنها تسير نحو غاية سامية. ويوم مؤتة كان نصراً، لأنه كان فاتحة لما جاء بعده. فقد قال النبي عن الجيش العائد: «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله». وقد كانوا كراراً. ألم يقد أسامة بن زيد حملة ثأر فيها لأبيه؟ ألم يقد ابن العاص وابن الوليد وابن حسنة وابن الجراح حملات ثأر لمؤتة وحققت ما كان يرمي إليه النبي من امتلاك الشام لأن الشام طريق دعوته وسبيل رسالته.

تلك كانت رسالة يوم مؤتة في تاريخ العرب والإسلام!

عدت ذلك اليوم من مؤتة وأنا أفكر بالمعركة وشهدائها. لقد اضطررنا إلى التنقل بين البيوت للوصول إلى قبور الشهداء: فلما وصلنا إليها هالنا ما رأيناه. إنه الإهمال بعينه، أيجوز ذلك؟ أيجوز أن تبقى قبور هؤلاء الناس مهملة إلى هذا الحد.

يوم مؤتة ورسالته وأبطاله وشهداؤه يجب أن يكرمهم أحفادهم وورثة فكرتهم وحملة رسالتهم.

٣. معاوية يستقبل نساء العرب

ولي معاوية، وهو منشىء البيت الأموي، الخلافة سنة ٤١ للهجرة، واتخذ دمشق عاصمة له. وكان قد وصل إلى منصبه بعد خلاف طويل بينه وبين علي، وقد بلغ هذا الخلاف أشده في معركة صفين. فلما اطمأن معاوية إلى بيعة المسلمين له في عام الجماعة عمل على تأليف القلوب فكان يحسن إلى خصومه ويلاينهم، وكانت معاملته لهم أساسها الكرم والحلم، ومعاوية من أحلم من عرف التاريخ العربي. وقد كان لهذه

منها أن تأتيه ببني جعفر فأتته بهم فتشممهم وذرفت عيناه. فسألته عما يبكيه فأبلغها أن جعفر وأصحابه أصيبوا ذلك اليوم. فصاحت حزناً وأسى واجتمع إليها النساء وخرج النبي فقال «لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم شغلوا بأمر صاحبهم». وقد ورد أن الناس عرفوا الحزن في وجه الرسول في ذلك اليوم.

وأعلن النبي الخبر إلى أهل المدينة فقال عن الأمراء الثلاثة إنهم قاتلوا فقتلوا شهداء ورفعوا إلى الجنة.

أما أهل المدينة فقد نقموا على الذين عادوا أحياء. فقد خرج النبي للقائهم فلما دنوا من حول المدينة لقيتهم الناس فكانوا يحثون التراب على الجيش ويقولون «يا فرار فررتم في سبيل الله». أما الرسول فكان يقول لهم «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله».

وتغيب سلمة بن هشام، وكان فيمن عاد من مؤتة، عن حضور الصلاة مع رسول الله ومع المسلمين، فلما سُئلت زوجه في ذلك قالت «والله ما يستطيع أن يخرج، كلما خرج صاح به الناس يا فرار فررتم في سبيل الله حتى قعد في بيته فما يخرج».

وقد حفظت لنا أبيات قالها قيس بن المسحر اليعمري يعتذر مما صنع وصنع الناس إذ تحاشوا القتال وانصرفوا:

فوالله لا تنفك نفسي تلومني ... على موقفي والخيل قابعة قبل
وقفت بها لا مستجيراً فنافذاً ... ولا مانعاً من كان حم له القتل
على أنني آسيت نفسي بخالد ... ألا خالد في القوم ليس له مثل
وجاشت إلى النفس من نحو جعفر ... بمؤتة إذ لا ينفع النابل النبل

وبمناسبة معركة مؤتة، على ما يروي الطبري، سمى النبي خالداً «سيف الله». وقد كانت التسمية صحيحة كما ثبت من أعمال هذا الرجل فيما بعد.

شغل الناس بشهداء مؤتة، فرثاهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وغيرهما. فمما قاله الأول:

تأوبني ليل بيثرب أعسر ... وهم إذا ما نوّم الناس مسهر
لذكرى حبيب هيجت لي عبرة ... سفوحاً، وأسباب البكاء التذكر
بلى إن فقدان الحبيب بلية ... وكم من كريم يبتلى ثم يصبر
رأيت خيار المؤمنين تواردوا ... شعوباً، وخلفاً بعدهم يتأخر
فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا ... بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبد الله حين تتابعوا ... جميعاً، وأسباب المنية تخطر
غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم ... إلى الموت ميمون النقيبة أزهر
أغر كضوء البدر من آل هاشم ... أبي إذا سيم الظلامة مجسر
فطاعن حتى مال غير موسد ... بمعترك فيه قنا متكسر
فصار مع المستشهدين، ثوابه ... جنان وملتف الحدائق أخضر
وكنا نرى في جعفر من محمد ... وفاء، وأمراً حازماً حين يأمر

على جَمل أحمر فتوقد نار الحرب وتحرّض على القتال بقولها: «أيها الناس الحق كان يطلب ضالته فأصابها. فصبراً معشر المهاجرين والأنصار. فكأنكم، وقد التأم الشتات وظهرت كلمة العدل وغلب الحق باطله. فإنه لا يستوي المحق والمبطل.. فالنزال النزال والصبر الصبر، إلا أن خطاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء. والصبر خير الأمور عاقبة. إئتوا الحرب غير ناكصين، فهذا يوم له ما بعده». وسأل معاوية جلساءه عما يشيرون فيها، فأشاروا بقتلها. فقال لهم معاوية: «بئس ما أشرتم به، وقبحاً لما قلتم. أيحسن أن يشتهر عليّ أنني بعدما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وفت لصاحبها؟ إنني إذن للئيم. لا والله لا فعلت ذلك أبداً». ثم كتب إلى والي الكوفة أن ينفذ إليه الزرقاء بنت عدي مع نفر من عشيرتها وفرسان قومها، وأن يمهد لها وطاء ليناً، ومركباً ذلولاً. فحملها الوالي في هودج مبطن بالخز ثم أحسن صحبتها. فلما قدمت على معاوية رحب بها وأهّل وسألها عن سفرتها وذكّرها بيوم صفين وما قالته فيه، فأكدته وذكرت عليًا بالخير فأعجب معاوية بوفائها له بعد وفاته، أكثر من إعجابه بحبها له في حياته. ثم سألها حاجتها فقالت: «يا أمير المؤمنين إني آليت على نفسي ألا أسأل أحداً أعنت عليه أبداً». فقال: «قد أشار علي بعض من عرفك بقتلك»، فقالت: «لؤم من المشير، ولو أطعته لشاركته». قال: «كلا بل نعفو عنك ونحسن إليك ونرعاك»، فقالت: «يا أمير المؤمنين كرم منك. ومثلك من قدر فعفا، وتجاوز عمن أساء، وأعطى من غير مسألة». فأعطاها كسوة ودراهم وأقطعها ضيعة تغل لها في كل سنة عشرة آلاف درهم وأعادها إلى وطنها سالمة وكتب إلى والي الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها.

وأما بكارة الهلالية فقد استأذنت على معاوية فأذن لها، فدخلت عليه وعنده مروان بن الحكم وعمرو بن العاص. وكانت امرأة قد أسنت وغشي بصرها وضعفت قوتها وكانت ترعش بين خادمين لها. فسلمت وجلست فرد معاوية السلام وسألها عن حالها وأشار إلى تغيير الدهر لها فقالت: «كذلك الدهر ذو غير. من عاش كبر، ومن مات قبر». قال عمرو بن العاص يا أمير المؤمنين هي القائلة يوم صفين:

يا زيد! دونك فاحتفر من دارنا ... سيفاً حساماً في التراب دفينا
قد كنت اذخره ليوم كريهة ... فاليوم أبرزه الزمان مصونا

وروى مروان بيتين آخرين قالتهما في تلك المناسبة. ثم روى سعيد بن العاص أبياتاً أخرى وكلها فيها حملة على معاوية، فسكت الجميع. فالتفتت بكارة وقالت: «نبحتني كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني فقصر محجني، وكثر عجبي. وغشي بصري. وأنا والله قائلة ما قالوا لا أدفع ذلك بتكذيب، وما خفي عنك مني أكبر؛ فامض لشأنك». فضحك معاوية وطلب إليها أن تذكر حاجتها فقالت «أما الآن فلا».

وكان معاوية في مجلسه وبين يديه عمرو بن العاص ومروان بن الحكم فدخلت عليه أروى بنت الحارث بن عبد المطلب وهي عجوز، فرحب بها معاوية وسألها عن نفسها فذكرته بأنه اغتصب حقاً لم يكن له ونالت منه ومن أعوانه. وأدرك عمرو ومروان

السياسة أكبر الأثر في نفوس الناس ـ مؤيديه منهم وخصومه، فالتف القوم حوله وأعاد إلى العالم العربي وحدته. ورفع شأن الدولة العربية ونجح في تثبيت قواعدها وتنظيمها نجاحاً كبيراً.

وقد كان للمرأة العربية حظ كبير من سياسة تأليف القلوب هذه. ذلك أن كثيرات من النساء كن ذوات شأن في معركة صفين، وكن يقفن بين الصفوف فينادين الرجال إلى نصرة علي وآله فيحملن الجبان على القتال، والمدبر على الإقبال، والمسالم على الحرب، والفار على الكر، والمتزلزل على الاستقرار. فكان معاوية يحاول الاتصال بشهيراتهن فيتحدث إليهن ويقضي لهن حاجاتهن وحاجات قومهن. ولطالما سمع منهن قارس الكلام فعفا وهو الأمير المقتدر، وإنما العفو عند المقدرة. وقد عني مؤلفو الكتب الأدبية والرواة بأخبار الكثيرات ممن اتصلن بالخليفة العظيم فنقلوها إلينا. وكان ممن اجتمعن به أم الخير البارقية وسودة بنت عمارة والزرقاء بنت عدي وعكرشة بنت الأطرش ودارمية الجحونية وبكارة الهلالية وأروى بنت الحارث وأم سنان المذحجية وليلى الأخيلية. وبعض هؤلاء استدعاهن معاوية فقربهن وأكرم مثواهن، وبعضهن وفدن عليه من تلقاء نفوسهن فقضى حاجاتهن، وبعضهن مر بهن في سفره، فأحسن إليهن، مع أنه سمع منهن ما ساءه.

وليس يتسع المقام لعرض كل ما دار بين الخليفة وبين هؤلاء النساء الكريمات. نكتفي إذن ببعض ما كان في تلك الاجتماعات، وليرجع إلى الباقي من شاء في العقد الفريد والأغاني وزهر الآداب.

أما سودة بنت عمارة فقد وفدت عليه فأذن لها، فلما دخلت سلّمت عليه فسألها عن حالها وذكّرها كيف كانت تحرِّض أخاها يوم صفين ليبطش بمعاوية وصحبه وروى لها قولها:

شمر كفعل أبيك يا بن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر علياً والحسين ورهطه ... واقدر لهند وابنها بهوان

وابن هند هو معاوية. فلم تنكر سودة قولها ولم تعتذر وكان أخوها قد أبلى بلاء حسناً في المعركة فذكرته بالخير، فرأى معاوية متانة خلقها وثبات مبدئها فطلب إليها أن تذكر حاجتها فقالت: «يا أمير المؤمنين إنك أصبحت للناس سيداً ولأمورهم متقلداً، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا. ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ويبطش بسلطانك. وهذا ابن أرطأة قتل رجالي وأخذ مالي. ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة. فإما عزلته فشكرنا لك وإما لا، فعرفناك». فنبهها معاوية إلى أنها هددته بقومها، ثم أطرق ساعة ثم قال لكاتبه: «اكتبوا بالإنصاف لها والعدل عليها». قالت: «إلي خاصة أم لقومي عامة». قال: «وما أنت وغيرك». قالت «هي والله إذن الفحشاء واللؤم. إن كان عدلاً شاملاً، وإلا يسعني ما يسع قومي». فقال معاوية: «اكتبوا لها ولقومها».

أما الزرقاء فقد ذكرت في مجلس معاوية بأنها كانت تقوم يوم صفين بين الصفوف

كما يجلو الزيت الصدأ».

قال «صدقت». ثم سألها حاجتها فاشترطت عليه أن يفعل إذا سألته، فقبل، فطلبت أن يعطيها مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها. فسألها عما تصنع بها فقالت «أغذو بألبانها الصغار، وأستحيي بها الكبار؛ واكتسب بها المكارم وأصلح بها بين العشائر». فوهب لها ما سألت وأنشأ يقول:

إذا لم أعد بالحلم مني عليكم فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم
خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلم

كان معاوية يسير فرأى راكباً فأرسل بعض شرطه ليأتيه به دون أن يروعه. فلما قيل له ذلك قال: «أمير المؤمنين أردت». فلما دنا الراكب أنزل لثامه فإذا ليلى الأخيلية الشاعرة فأنشأت تقول:

معاوي! لم أكد آتيك تهوي برحلي نحو ساحتك الركاب
تجوب الأرض نحوك ما تأتى إذا ما الأكم قنعها السراب
وكنت المرتجى وبك استعاذت لتنعشها إذا بخلَ السحاب

فسألها حاجتها فقالت: «ليس مثلي يطلب حاجة، فتخير أنت». فأعطاها خمسين من الإبل.

هذا معاوية بن أبي سفيان، وهو من تعرفون رجاحة عقل، وسعة صدر، وسعة علم، عرف قدر المرأة العربية متينة الخلق ثابتة المبدأ، وأدرك قيمتها في تربية بنيها على قويم الأخلاق، وصادق العزيمة، والدفاع عن الحق، فرفع من شأنها ليكون له من أبنائها درع تحميه، ومؤيدون أقرباء يركن إليهم إذا جد الجد. أعاد الله إلى القوم مثل أولئك النساء، وأعاد إليهم مثل معاوية فيعود إليهم ما كان لهم من شأن وقوة.

٤. العرب يؤسسون مدينة

كانت البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان في مقدمة المدن التي أنشأها العرب بعد فتحهم بلاد الشرق العربي. وكانت هذه المدن، بادىء الأمر، مراكز عسكرية حربية، تتخذ قواعد للهجوم، ومنها تمتار الجنود وتزود بالسلاح والعتاد والمؤن، وإليها تلجأ لتستجم. لكن العرب لم يلبثوا أن أخذوا ببناء مدن كبيرة اتخذت مراكز للإدارة المدنية، وعواصم للدول وموئلاً للحضارة. وفي طليعة هذه المدن دار السلام: بغداد.

المنصور أول من مصرها وجعلها مدينة. أما قبله فقد وردت أخبارها في التاريخ العربي مرة واحدة أثناء فتوح العراق. ذلك أنه لما احتل العرب الحيرة وأخذوا يغيرون على السواد قال أهل الحيرة للمثنى: «إن بالقرب منا قرية تقوم فيها سوق عظيمة مرة في كل شهر فيأتيها تجار فارس والأهواز وسائر البلاد يقال لها بغداد». فأخذ المثنى على البر حتى أتى الأنبار فتحصن أهلها، فاستدعى المثنى مرزبانها وأمنه فجاء، فأخبره أنه ينوي الإغارة على سوق بغداد وطلب إليه أن يبعث معه أدلاء وأن يعقد له

تعريضها بهما فلاماها وزجراها فوجهت إليهما تهماً قاسية ولامت معاوية على صمته عن أمثال هذين. ورغب معاوية في إزالة ما بها، فأصمت جليسيه، وسألها عن حاجتها قالت: «تأمر لي بألفي دينار، وألفي دينار، وألفي دينار». قال: «ما تصنعين يا عمة بألفي دينار؟» قالت: «أشتري بها عيناً جارية في أرض منخفضة تصلح للزراعة تكون لولد الحارث بن عبد المطلب! قال معاوية: «نعم الموضع وضعتها. فما تصنعين بألفي دينار»؟ قالت «أستعين بها على عسر أهل المدينة، وزيارة بيت الله الحرام». قال «نعم الموضع وضعتها. فما تصنعين بألفي دينار؟» قالت «أزوج بها فتيان عبد المطلب من أكفائهم». قال «نعم الموضع وضعتها. هي لك يا عمة أنفقي هذه فيما تحبين فإذا احتجت فاكتبي إليّ أحسن إعطاءك ومعونتك إن شاء الله».

وقد كان معاوية يتقرَّب إلى الناس أحياناً بالعفو عن ذنوبهم التي اقترفوها أيام خلافته، لا عن خصومتهم القديمة له فحسب. فمن ذلك أن أم سنان المذحجية كلمت مروان بن الحكم، وهو والي معاوية على المدينة، في أمر حفيد لها حبسه مروان. فأغلظ لها وذكّرها بولائها لعلي، فخرجت إلى معاوية بدمشق فدخلت عليه فانتسبت فعرفها، ورحب بها، وسألها حاجتها فقالت: «يا أمير المؤمنين إن لبني عبد مناف أخلاقاً طاهرة، وأحلاماً وافرة لا يجهلون بعد علم، ولا يسفهون بعد حلم، ولا ينتقمون بعد عفو، وإن أولى الناس باتباع ما سن آباؤه لأنت». فأمن معاوية على كلامها لكنه ذكرها ببعض ما قالته فيه فما أنكرته، وفعل بعض جلسائه مثل فعله فما أنكرته، لكنها أضافت: «يا أمير المؤمنين لسان نطق، وقول صدق، ولئن تحقق فيك ما ظننا، لحظك الأوفر، والله ما مثلك مدح بباطل ولا أعتذر إليه بكذب. وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا.. كان علي أحب إلينا منك، وأنت أحب إلينا من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص... وقد استحققت ذلك بسعة حلمك وكريم عفوك... فهذا مروان في المدينة لا يحكم بعدل ولا يقضي بسنة. حبس ابن ابني فأتيته فأغلظ لي القول فألقمته أخشن من الحجر، وألعقته أمرّ من الصبر. ثم رجعت إلى نفسي باللائمة وقلت لم لا أصرف الأمر إلى من هو أولى منه بالعفو عنه. فأتيتك يا أمير المؤمنين لتكون في أمري ناظراً، وعليه ناصراً». قال معاوية: «لا أسألك عن ذنبه ولا عن القيام بحجته. اكتبوا له بإطلاقه». قالت: «يا أمير المؤمنين وأنّى لي بالرجعة وقد نفذ زادي وكلت راحتي». فأمر لها بخمسة آلاف درهم وراحلة.

حج معاوية سنة فسأل عن امرأة من بني كنانة يقال لها درامية الحجونية وكانت سوداء كثيرة اللحم، فأخبر بسلامتها. فبعث إليها فجيء بها فتحدث إليها ساعة يسألها عن حالها وعن حبها لعلي، وكرهها له (أي معاوية) فقالت له: «أحببت علياً على عدله في الرعية، وقسمه بالسوية، ووليته على حبه المساكين وإعظامه لأهل الدين! وعاديتك على سفكك الدماء وشقك العصا وحكمك بالهوى. فقد رأيته والله لم يفتته الملك الذي فتنك ولم تشغله النعمة التي شغلتك، وكان كلامه يجلو القلوب من العمى،

الملك حيث أقام قصره والمسجد الجامع. وكان طول المدينة من الباب إلى الباب خمسة آلاف ذراع أو ما يزيد على الكيلومترين، وجعل لها أربعة أبواب وعمل لها سورين وأحاط سورها الخارجي بالخنادق وجعل عرض السور من أسفله خمسين ذراعاً هاشمية أو ما يزيد على عشرين متراً.

بنيت أسوار بغداد من اللبن المجفف بالشمس. وكانت اللبنات كبيرة الحجم ثقيلة الوزن. فقد وجدت فيما بعد لبنة، وعليها بمغرة، إن وزنها مائة وسبعة عشر رطلاً، فوزنت فكانت كذلك. وربطت اللبنات بعضها ببعض بالخيزران. وكان في كل دور من أدوار السور السفلي مائة ألف وخمسون ألف لبنة. ثم تناقصت هذه بارتفاع السور، لأن أعلاه كان عشرة أمتار أو يزيد. وقام أبو حنيفة النعمان بضرب اللبن وعده كله، وكان يعده بالقصب وهو أول من فعل ذلك، واستفاد الناس ذلك منه. وعمل في بنائها مائة ألف من العمال.

جاء المنصور بأبواب المدينة من واسط والشام والكوفة. وبلغت نفقات بناء بغداد، في الدور الأول، بما تقرب قيمته بعملة اليوم من نصف مليون جنيه من الذهب. أما التقدير الذي نجده عند بعض القدماء من المؤرخين بما يساوي تسعة ملايين جنيه من عملة اليوم؛ فلعل المقصود به ما أنفق عليها بعد التوسع الكبير وبعد أن أنشئت حولها أرباضها وضواحيها وقصورها.

ونحن إذا دخلنا مدينة المنصور من أحد أبوابها بعد عبور الخندق، كان أول ما قابلنا الباب الخارجي ثم دهليز ورحبة ثم الباب الرئيسي، وهو الذي في السور الداخلي. والرحبة ينفتح على جانبيها بابان إلى الفصيل، وهو الجزء الخالي من البناء الذي يدور بالمدينة بين سورها الخارجي والداخلي. والباب الثاني أو الداخلي عليه مجلس له درجة على السور يرتقى إليه منها. وعلى هذا المجلس قبة عظيمة مزخرفة ذاهبة في السماء، وعلى رأسها تمثال تديره الريح. وهكذا كانت حال كل باب. وكانت هذه القبة مجلس المنصور. فإذا أحب الماء، ورغب في مراقبة من يقبل من المشرق، جلس في قبة باب خراسان. وإذا أراد النظر إلى الأرباض وما والاها جلس في قبة باب الشام. وكان مجلسه في قبة باب الكوفة إذا أحب النظر إلى البساتين والضياع. فإذا كانت له رغبة إلى رؤية الكرخ جلس في قبة باب البصرة. وكان على كل باب قائد في ألف. وكان لا يدخل أحد من هذه الأبواب إلا راجلاً.

فإذا تجاوزنا الباب الداخلي فنحن في ساحة هي التي أعدها المنصور لإقامة أبنية أتباعه ورجاله ممن انتقل معه إلى عاصمته الجديدة. وكان يفصل هذه الساحة عن المنطقة الداخلية للمدينة جدار. ونحن نسير من الباب إلى مركز المدينة المدورة، فتكون على جانبينا أسواق بغداد ومراكز تجارتها. وهذه الطرق الرئيسة للمدينة تصل أبوابها بوسطها وتنتهي كلها عند المسجد الجامع والقصر. وكانا يتوسطان مدينة المنصور وتحيط بهما باحة واسعة خالية من الأبنية.

الجسر، ليعبر الفرات عليه. فعقد المرزبان الجسر فعبر المثنى مع أصحابه وبعث معه الأدلاء. فسار حتى وافى السوق ضحوة، فهرب الناس وتركوا أموالهم فأخذ العرب من الذهب والفضة وسائر الأمتعة ما قدروا على حمله، ثم رجعوا إلى الأنبار. وكان ذلك سنة ١٣ للهجرة.

واختفى اسم بغداد وسوقها من التاريخ حتى سنة ١٤٥للهجرة (٧٦٢م)، لما رغب أبو جعفر المنصور في اتخاذ عاصمة جديدة له. ذلك أن أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده، وكان الراوندية قد ثاروا به، فأرسل المنصور رواداً ليفتشوا له عن موضع يبني فيه مدينة على أن يكون الموقع واسطاً رافقاً بالعامة والجند. وخرج المنصور بعدهم بنفسه فجرب أماكن مختلفة ثم تخير موقع بغداد.

فقد روى أهل السير أنه أتى موضع بغداد وعبر موضع قصر السلام ثم صلى العصر، وذلك في صيف وحر شديد وبات أغيب مبيت وأقام يومه فلم ير إلا خيراً، فقال: «هذا موضع صالح للبناء. فإن الميرة تجيئه من أرمينية وأذربيجان والموصل والشام والسند والصين والبصرة، والمادة تأتيه من الفرات ودجلة ولا يحمل الجند والرعية إلا مثله». فخط البناء وقدر المدينة ووضع أول لبنة بيده.

وأضاف غيرهم من الرواة إلى هذا قصة أخرى ننقلها لطرافتها، وهي أن المنصور لما خرج يلتمس موضعاً لبناء مدينته نزل الدير الذي على الصراة في العتيقة، فما زال على دابته ذاهباً جائياً منفرداً عن الناس يفكر. وكان في الدير راهب «عالم» فاقترب من علي بن يقطين (وهو راوي هذه القصة) وسأله عن الملك، لم يذهب ويجيء، فأخبره علي بأمره، فقال الراهب «إن في علمنا أن الذي يبني مدينة في هذا الموضع يسمى مقلاص، وما هو باسم ملككم هذا». فذهب علي إلى المنصور يخبره بالأمر ليريحه من العناء الذي هو فيه. فلما سمع المنصور ذلك منه ضحك واستبشر ونزل عن دابته فسجد وأخذ سوطه وأقبل يذرع به ثم التفت إلى علي وقال «أنا كنت ملقباً بمقلاص في صغري ثم نسي الناس لقبي». فاعتبرها المنصور وجماعته بشرى خير.

وجه المنصور في حشر الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة، فأحضروا، وأمر باختيار قوم من ذوي الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة. فكان ممن أحضر لذلك الحجاج بن أرطأة وأبو حنيفة النعمان. واستشار المنصور نوبخت الفلكي عن طالع المدينة، فلما استتم له ذلك أمر فبدىء بالعمل. وأحب المنصور أن يرى عياناً ما يمكن أن تكون عليه مدينته فأمر أن يخط محيطها بالرماد، وتخطط فصلاتها وطرقاتها ورحابها. ثم أقبل يدخل من كل باب ويمر في الطرق، فلما أتم ذلك، أمر أن يجعل على تلك الخطوط حب القطن ويصب النفط عليه ثم يشعل، فنظر إليه والنار تشتعل ففهمها وعرف رسمها وأمر أن يحفر أساس ذلك على الرسم. وكان ذلك سنة ١٤٥ للهجرة.

وجعل أبو جعفر المدينة مدورة، لأنه أراد أن يكون سكانها على بعد واحد من مركز

الخلد على دجلة. ولما وفد المهدي من الري سنة ١٥٩ بنى المنصور الرصافة، وهي التي تم بناؤها تحت إشراف المهدي نفسه.

أصبحت بغداد عاصمة العراق وعاصمة العالم العربي والأمبراطورية الإسلامية، وظلت على ذلك نيفاً وخمسة قرون، وكانت تتسع وتكبر وتنمو في كل ناحية من نواحيها. فالمكاتب والمدارس ودور العلم والمساجد كانت تشاد بالإضافة إلى القصور ودور الإدارة والأسواق، وكان يقطنها من كل أصناف الناس على اختلاف مشاربهم ومنازعهم. فلم يكن مبالغة ما قيل فيها:

أعاينت في طول من الأرض أو عرض ... كبغداد داراً، إنها جنة الأرض
صفا العيش في بغداد واخضر عوده ... وعيش سواها غير صاف ولا غض
تطول بها الأعمار إن غذاءها ... مريء وبعض الأرض أمرأ من بعض

وقد نقل الخطيب البغدادي، مؤرخ بغداد في القرن الخامس للهجرة، طائفة مما قيل في مدح بغداد ومحاسن أخلاق أهلها، ونقل ياقوت في «معجم البلدان» بالإضافة إلى ذلك الكثير مما قيل في ذمها. ولن تعدم الحسناء ذاماً.

فقد روي أن ذا النون كان يقول: «من أراد أن يتعلم الظرف فعليه بسقاة الماء ببغداد». فلما سئل في ذلك قال: «إنه حُمل إلى بغداد ورمي بباب السلطان مقيداً. فمر به رجل متزر بمنديل مصري معتم بمنديل دبيقي، بيده كيزان خزف رقاق وزجاج مخروط فسأل عنه: أهو ساقي السلطان؟ فقيل له بل هو ساقي العامة، فأومأ إليه فسقاه فشم في الكوز رائحة مسك فلما همّ بأن يدفع إليه أبى وقال «أنت أسير وليس من المروءة أن آخذ منك شيئاً».

وقيل إن بغداد صوِّرت لملك الروم أرضها وأسواقها وشوارعها وقصورها وأنهارها غربيها وشرقيها وجسورها، فكان ملك الروم إذا شرب دعا بالصور فيشرب على مثال شارع سويقة نصر.

وكان زلزل الضارب غلاماً لعيسى بن جعفر فحفر بركة للسبيل وأحاطها بالمغاني الجميلة حتى قيل فيها:

لو أن زهيراً وامرأ القيس أبصرا ... ملاحة ما تحويه بركة زلزل
لما وصفا سلمى ولا أم سالم ... ولا أكثرا ذكر الدخول فحومل

وكان بعض الصالحين إذا ذكرت عنده بغداد يتمثل:

قل لمن أظهر التنسك في الناس ... وأمسى يعد في الزهاد
إلزم الثغر والتواضع فيه ... ليس بغداد منزل العبّاد
إن بغداد للملوك محل ... ومناخ للقارىء الصياد

على أن التناقض في شأن بغداد بين الكتّاب والشعراء هو ما نعثر عليه دائماً في شأن المدن الكبيرة. فالذين رأوها في عظمتها ونالوا فيها بغيتهم وسروا بها مدحوها، وخالفهم في ذلك غيرهم. وليرجع من يحب إلى تاريخ بغداد وياقوت ليرى بنفسه صحة

كان في صدر قصر المنصور إيوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً. وفي صدر الإيوان مجلس وسقفه قبة وعليه مجلس مثله، فوقه القبة الخضراء التي يرتفع رأسها عن الأرض ثمانون ذراعاً. وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس. وكانت القبة الخضراء ترى من أطراف بغداد. وقد ظلّت هذه القبة مائة ونيفاً وثمانين سنة، وسقطت في أيام الخليفة الواثق.

أما المسجد الجامع فقد كانت المساحة التي أقيم عليها مائتي ذراع في مثلها. وكان، مثل القصر، مبنيّاً من الآجر وأعمدته من الخشب.

على أن بغداد هذه لم تلبث أن أخذت تتسع. فنشأت حولها قصور ومتنزهات وأسواق وما شاكل ذلك، حتى شغلت مساحة كانت أضعاف مساحتها الأصلية. فكانت محلة الكرخ أول اتساع تجاري لبغداد، وكان قصر الخلد أول امتداد رسمي لها، وكانت الرصافة أول محاولة للاستمتاع بخيرات الطبيعة الجميلة.

روي أن وفد على المنصور وفد ملك الروم، فأمر أن يطاف بهم في المدينة ثم دعاهم فقالوا للمنصور يا أمير المؤمنين إنك بنيت بناء لم يبنه أحد كان قبلك، وفيه ثلاثة عيوب: أولها بعده عن الماء، وثانيها أنه ليس في بنائك هذا بستان، وثالثها أن رعيتك معك في بنائك وإذا كانت الرعية مع الملك فشا سره. فتجلد المنصور وقال أما قولك الماء فحسبنا من الماء ما بل شفاهنا، وأما البستان فإنّا لم نخلق للهو واللعب. وأما قولك في سري فما لي سر دون رعيتي. ولكن بعد سفر الوفد أمر المنصور بمد قناتين من دجلة، وغرس العباسية، ونقل الناس إلى الكرخ.

ومع ما في هذه القصة من الطرافة، فنحن نرى غير هذا. فما كان المنصور بحاجة إلى وفد رومي ليرشده إلى هذه الأمور. وكل ما في المسألة هو أن بناء المدينة، في سنة وبعض سنة، لم يكن من المنتظر أن يتم كله، وكانت لا تزال بحاجة إلى إتمام. وهناك ما يثبت أن مد القناتين كان لغير هذا، فإن المنصور رأى أن الماء ينقل بالروايا فتصل بغالها إلى رحابه، فمنع ذلك واتخذ قنياً في الساج. ثم زاد عدد هذه القنوات الوثيقة فكانت تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والأرباض وتجري صيفاً وشتاءً لا ينقطع ماؤها في وقت. ومثل ذلك يقال في مغانيها وأسواقها. فسوق الكرخ بنيت، على رواية هي أقرب إلى المنطق، لازدياد التجار والباعة وقيامهم بالشغب وكثرة الضوضاء. فحوّل المنصور الأسواق خارج العاصمة نفسها. ولعله قصد أن يوسع بعض دروب مدينته الأصلية، لأنها ضاقت. وهذا ما حدث، فإنه أمر في السنة نفسها بهدم بعض الدور ليتم له ما يريد. ومن لطيف ما يروى أنه لما نقلت الأسواق إلى الكرخ، قال المنصور اجعلوا «سوق القصابين في آخر الأسواق فإن في أيديهم الحديد القاطع». وكانت الأسواق لا غلة عليها في أيام المنصور، ولعله رمى من وراء ذلك إلى تشجيع الناس على تركيز شؤونهم حتى يستقروا.

ولم يكد المنصور يفرغ من تحويل الأسواق إلى الكرخ حتى انصرف إلى بناء قصر

وإذا عرضنا للمأمون في صفحات معدودة، فلسنا نحاول أن نرسم صورة لحياته، ولكننا نأمل أن نتعرف من هذا الحلم الذي رآه الخليفة إلى النواحي الفكرية التي عرض لها المأمون في مجالسه العامة والخاصة. وليس علينا من ضير أن نسبق ذلك بالإشارة إلى ما كان عليه العباسيون قبله من عناية بأهل العلم والأدب والفضل والشعر. فقد كان المنصور له مشاركات في الفلسفة والنجوم، وكانت للرشيد مجالس أدبية لا يبلي الحديث عنها جدتها. وكان العرب قبل المأمون قد أخذوا أنفسهم بدراسة الأدب الفارسي والعلم اليوناني، بل ونقلوا بعض نتاجه إلى لغتهم. فالمأمون نشأ في جو مشبع بالحياة الفكرية، وترعرع في بيئة صالحة. لكن المأمون ترجع مكانته لا إلى أنه استمر في هذا السنن القويم فحسب، ولكن إلى أنه زاد في الحركة أولاً. وإلى أنه طبع كل شيء بطابعه الخاص ثانياً. فأنت ترى أن شخصيته تطغى على كل من حوله، وتبعث في كل شيء قبساً منها يلهبه فيشتد أواره وتلمع ناره ويصيب كلا منه شرر. وهذا سر اللمعان الفكري في أيام المأمون.

فهذا محمد بن أيوب والي البصرة في أيام المأمون يدعو إليه شاعراً ظريفاً خبيثاً ماكراً ويحمله على الذهاب إلى المأمون ويزوده في سبيل ذلك بنجيب فاره ونفقة سابغة. خرج الشاعر إلى الشام، وكان المأمون هنالك، فبينا هو في غزاة وهو يروم العسكر إذا بكهل على بغل فاره فتلقاه مكافحة ومواجهة وهو يردد أرجوزته، فحيا، فرد الشاعر التحية وتبادلا كلاماً انتسب فيه الشاعر وبيّن قصده فقال الكهل بينك وبين أمير المؤمنين عشرة آلاف رامح ونابل وأنت قلت إنك تطمع من الخليفة بألف دينار، فأنا أعطيكها إن أنشدتني شعرك فوجدته حسناً كما تقول. فقبل الشاعر وأنشده:

مأمون يا ذا المنن الشريفة ... وصاحب المرتبة المنيفه
وقائد الكتيبة الكثيفة ... هل لك في أرجوزة لطيفه
أظرف من فقه أبي حنيفة ... لا والذي أنت له خليفه
ما ظلمت في أرضنا ضعيفة ... أميرنا مؤونته خفيفه
وما اجتبى شيئاً سوى الوظيفة ... فالذئب والنعجة في سقيفه
واللص والتاجر في قطيفه

فلم يعد أن أنشده فإذا زهاء عشرة آلاف فارس قد سدوا الأفق يقولون السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فاضطرب الشاعر، لكن المأمون هدأ روعه وأمر خادمه بإعطائه ما معه، فكان ثلاثة آلاف دينار.

في هذه القصة ما يشعرنا بهذه الرغبة التي كانت عنده في التعرف إلى الجمهور دون ضجة ولا زهو. والقصة كما أوردتها مختصرة. لكن الأصل، وهو طويل، فيه من تبادل النكات البارعة ما يدل على معرفة المأمون بالأدب وأخبار العرب. ولكن أدل من ذلك على طول باعه في الشعر هذه القصة التي رواها عنه عمارة بن عقيل إذ قال إنه أنشد المأمون قصيدة مائة بيت فيبتدىء بصدر للبيت فيبادره المأمون إلى قافيته كما

هذا الأمر.

وقد نقل البغدادي وصفاً لما كانت عليه بغداد أيام المقتدر بالله، في أوائل القرن الرابع للهجرة، يوم أن زارها وفد ملك الروم، وقد استغرق ذلك ثلاث صفحات تبدأ في الصفحة المائة من الجزء الأول، فليرجع إليها من رغب في أن يعرف ما وصلت إليه أبهة الملك والخلافة في عصر هو من أنضج العصور في التاريخ العربي.

ولعل خير ما أختم به هذا الفصل هذه الأبيات التي قالها الهمداني:

فدى لك يا بغداد كل قبيلة ... من الأرض، حتى خطتي وديارياً

فقد طفت في شرق البلاد وغربها ... وسيّرت رحلي بينها وركابيا

فلم أر فيها مثل بغداد منزلا ... ولم أر فيها مثل دجلة واديا

ولا مثل أهليها أرق شمائلا ... وأعذب ألفاظاً وأحلى معانيا

وكم قائل لو كان ودّك صادقاً ... لبغداد لم ترحل فكان جوابيا

يقيم الرجال الأغنياء بأرضهم ... وترمي النوى صفر اليدين المراميا

٥. حلم المأمون

روى أهل السير أن المأمون رأى فيما يرى النائم كأن رجلاً على كرسي كان جالساً في المجلس الذي كان المأمون فيه فتعاظمه وتهيبه، ثم سأل عنه فقيل له هو أرسطوطاليس فعنَّ له أن يسأله، فتقدم منه وقال: ما الحسن؟ فأجاب ما استحسنته العقول، فقال المأمون ثم ماذا؟ فأجاب ما استحسنته الشريعة فقال المأمون ثم ماذا؟ فأجاب ما استحسنه الجمهور. فلما سأله ثم ماذا؟ أجاب ثم لا ثم. وأضاف الرواة إلى ذلك أن هذا هو الذي حدا المأمون إلى إخراج كتب الحكماء، ونقلها إلى اللسان العربي.

نحن لا نستبعد الحلم، لكننا نرى أنه نتيجة لتفكير المأمون في الحكمة والعلم لا سبباً لذلك. فإننا نعرف أن الأحلام التي تنتابنا في ليلنا الطويل إنما هي ما تبقى من آمال النهار وأمانيه أو مخاوفه، مما لم يتح له الفرصة الكافية لمناقشته أو تحقيقه. فيظهر لنا في أحلامنا، وقد يرضينا وقد يخيفنا لأن ذلك متوقف على ما قد يرافق الحلم من أعمالنا النهارية وتفكيرنا الواعي وغير الواعي.

وحلم المأمون يظهرنا على ما كان يشغل بال الخليفة العظيم من شؤون. فهو يحاول أن يدرك وجه الحكمة في نواح ثلاث من نواحي الحياة. يريد أن يتعرف حكم العقل والمعرفة وأثر العلوم في تسيير الإنسان وتوجيهه نحو الحسن والخير. وهو يريد أن يدرك أسرار الشريعة في تعيينها الخير والشر والحسن والقبح، وهو يريد أن يسعد شعبه تحت إشرافه، ويحاول أن يتبين خير السبل للوصول إلى ذلك. وهنا نستطيع أن نلمح أن المأمون شخصية قوية، تنظر إلى الأمور نظرة شاملة عامة فاحصة، لتتقرى ما ينفع فتبقيه، وتتعرف إلى ما يؤذي فتقصيه. وهذا هو سبيل الحاكم العادل القوي.

ومع ما قد يكون كلام يحيى من مبالغة فلا شك في أن فيه شيئاً كثيراً من الصدق. وقد نقل الرواة كثيراً من الأخبار التي تدل على بادهة المأمون وسعة علمه. والقصة التالية ترينا ذلك بوضوح. روي أن رجلاً من أهل خراسان ارتد عن الإسلام فحمل إلى المأمون. فلما مثل بين يديه قال له: أخبرني ما الذي أوحشك مما كنت به آنساً من ديننا. فوالله لأستحييك بحق أحب إلي من أن أقتلك بحق، وقد صرت مسلماً بعد أن كنت كافراً ثم عدت كافراً بعد أن كنت مسلماً. فإن وجدت دواء دائك تعالجت به، إذ كان المريض يحتاج إلى مشاورة الأطباء. فإن أخطأك الشفاء، ونبا عن دائك الدواء كنت قد أعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة. فإن قتلناك بحكم الشريعة ترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار والثقة، وتعلم أنك لم تقصر في اجتهاد ولم تدع الأخذ بالحزم». قال المرتد «أوحشني ما رأيت من كثرة الاختلاف في دينكم». فقال له المأمون: «إن لنا اختلافين أحدهما كالاختلاف في الأذان وتكبير الجنائز والاختلاف في التشهد وصلاة الأعياد وتكبير التشريق ووجوه القراءات واختلاف وجوه الفتيا، وما أشبه ذلك. وما هذا باختلاف إنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة. فمن أذن مثنى وأقام فرادى لم يؤثم من أذن مثنى وأقام مثنى، لا يتعايرون ولا يتعايبون، أنت ترى ذلك عياناً وتشهد عليه بياناً. والاختلاف الآخر كنحو الاختلاف في تأويل آية من كتابنا وتأويل الحديث، مع إجماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر. فإن كان الذي أوحشك هذا حتى أنكرت كتابنا، فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع ما في التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله كالاتفاق على تنزيله. وينبغي لك أن لا ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف في ألفاظها. ولو شاء الله أن ينزل كتبه، ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا تحتاج إلى تفسير لفعل. ولكننا لا نرى شيئاً من الدين والدنيا دفع لنا على الكفاية، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة وذهبت المسابقة والمنافسة ولم يكن تفاضل. وليس على هذا بنى الله عز وجل الدنيا». فقال المرتد: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن المسيح عبده ورسوله وأن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق وأنك أمير المؤمنين حقاً». فانحرف المأمون نحو القبلة فخر ساجداً ثم أقبل على أصحابه فقال: «وفروا عليه عرضه ولا تبروه في يومه ريثما يعتق إسلامه كيلا يقول عدوه إنه يسلم رغبة، ولا تنسوا نصيبكم من بره ونصرته وتأنيسه والفائدة عليه».

أليس في هذه القصة ما يدلنا على بصر المأمون بأسرار الدين والشريعة وعلى فهمه لخلجات القلوب والنفوس؟ كل هذا مع سعة صدر ورحابة خلق يطمئن إليها مناظره الخراساني فيحسن إيمانه بعد أن يفهم المسألة فهماً جيداً.

على أن صورة للمأمون، مهما كانت مقتضبة وسريعة، لا تتم إلا بالتحدث عن عنايته بالعلوم والفلسفة. وقد تكون هذه أغزر نواحي النشاط الفكري في شخصه وفي الذين التفوا حوله. فقد كان في بغداد (بيت الحكمة) ولعل الذي أنشأه الرشيد أو حتى المنصور، ولكن تاريخ بيت الحكمة والخدمات العلمية التي أداها للفكر العربي تخص

قفاه. حتى قال له والله يا أمير المؤمنين ما سمعها مني أحد قط، فقال «هكذا ينبغي أن يكون». وعن عمارة هذا أن عبد الله بن أبي السبط قال إنه أنشد المأمون بيتاً فيه فلم يتحرك له، وكان عبد الله يقصد إلى اتهام المأمون بأنه لا يتحرك للشعر الجيد لأنه لا يفقه. فسأله عمارة عنه فرواه:

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً بالدين، والناس بالدنيا مشاغيل

فقال عمارة: «والله ما صنعت شيئاً. هل زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها، فإذاً من الذي يقوم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها، وهو المطوَّق بها». فأدرك عبد الله خطأه.

كان للمأمون شغف كبير بعقد مجالس الأدب والمناظرة. وكانت هذه المجالس تمتاز بأمور ثلاثة: أولها أنها، مثل المأمون نفسه، كانت شاملة للشعر والنثر والعلم والشريعة والطب والغناء والمنادمة. وثانيها أنها كانت تقوم على أساس المساواة في المناظرة بين المأمون وجلسائه. وثالثها وهو في نظرنا أهم ما امتازت به، أنها كانت توجيهية. فقد كان المأمون يتخير هذه الفرص للفت أهل المعرفة إلى مسائل هامة يجب أن يعرضوا لها.

تذاكر المأمون وجلساءه الشعر والشعراء فقالوا: النابغة، وقالوا: الأعشى وخاضوا في غيرهما فقال المأمون: لا أشعرهم إلا واحداً الحسن بن هانىء فقالوا: صدق أمير المؤمنين، فقال الصدق على المناظرة أحسن من الصدق على الهيبة. فصمتوا خجلاً ثم سألوا وبماذا قدمته قال بقوله:

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلى ولم أنـم

إلى قول

ثم دبـت في عـروقـهـم كدبيب البرء في السقم

وقد روي أن المأمون لما دخل بغداد وقر بها قراره، أمر أن يدخل عليه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم جماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته وكان يقعد في صدر نهاره على لبود في الشتاء، وعلى حصر في الصيف ليس معها شيء من سائر الفرش. واختير له من الفقهاء لمجالسته مائة رجل فما زال يختارهم، طبقة بعد طبقة، حتى حصل منهم عشرة بينهم يحيى بن أكثم وابن أبي دؤاد والمريسي والأنماطي. فتغدَّوا عنده يوماً فوضعت على المائدة ألوان من الطعام كثيرة جداً، فكلما وضع لون كان المأمون ينظر إليه فيخبرهم عن صلاحه أو ضرره، وعن ملاءمته لنوع من المتطببين، حتى رفعت الموائد. فقال يحيى بن أكثم: «يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب كنت جالنوس في معرفته، أو في النجوم كنت هرمس في حسابه، أو في الفقه كنت علي بن أبي طالب، أو ذكرنا السخاء فأنت فوق حاتم في جوده». فسر بذلك الكلام وقال «يا أبا محمد إن الإنسان إنما فضل على غيره من الهوام بفعله وعقله وتمييزه ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم، ولا دم أطيب من دم».

وهذا هو حلم المأمون. أليس من حقنا بعد هذا أن نأمل بأن يكثر بيننا الحالمون بمثل هذا، على أن تتحقق أحلامهم كما تحقق حلم المأمون.

٦. ملك وخليفة

في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد قامت دولة المماليك في مصر. قامت وقلب العالم العربي، العراق وسورية ومصر، مهدد بخطرين: من الغرب ومن الشرق. فأوروبة كانت تستولي على الساحل كله، وتطمع في مصر، وترنو بعينها إلى شمال أفريقية. والتتار كانوا قد خرجوا من بلادهم كالموج الزاخر المتدافع، يتلو بعضه بعضاً، فلا تقوى الهيئات في الشرق على رده، وقد خضعت له الواحدة تلو الأخرى فلا يلبث التتار أن يحتلوا بغداد، ويقضى على الخلافة العباسية إذا بهم يهمون بسورية لولا أن لطف الله، فأوقفوا هذا إلى خطر آخر كان يهدد البلاد من الداخل، أساسه ما كان بين السلطات المختلفة والأمراء العديدين من تنابذ وتناحر وخصومة ونزاع.

في وسط هذه الصعوبات المختلفة تولى عرش مصر وديار الشام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري أحد كبار حكام العالم الإسلامي في العصور الوسطى المتأخرة. وكان الملك الظاهر قد اشترك في رد التتار في معركة عين جالوت أيام كان أحد قواد قطز، لكنه ما عتم أن أصبح السيد الأعلى لشؤون هذه البلاد. وكان الملك الظاهر يتأثر خطى صلاح الدين في سياسته العامة، وأساسها أمران: الأول أن تكون سورية ومصر موحدتين سياسيّاً وحربيّاً واقتصاديّاً بحيث تكون كل مرافقهما ومصادر ثروتهما وقوتهما تحت إشراف دولة واحدة ورجل واحد يستطيع توجيهها عند الحاجة في الوجهة الصحيحة، ويستطيع، من ناحية أخرى، أن يأمن الخلافات المحلية بين الأمراء والمتآمرين. والأساس الثاني لسياسة صلاح الدين والملك الظاهر هو أن يضرب القلاع الصليبية من الداخل بانتظام واستمرار، بحيث يزيلها من الوجود الواحدة بعد الأخرى، وبذلك يتيسر القضاء على المحتلين وإخراجهم من البلاد. وكان على الملك الظاهر أن يقوم بالأمر الأول، أي توحيد البلاد، قبل أن ينصرف إلى مقارعة خصوم بلاده.

كانت غارة المغول على بغداد، قبل تولي الملك الظاهر بسنتين، قد انتهت بقتل المستعصم بالله آخر خليفة عباسي وقتل ولديه معه. ومعنى هذا أن الخلافة انتهى شأنها. ولكن الخلافة رئاسة دينية، فضلاً عن ناحيتها السياسية، ومن ثم فهي محببة إلى قلوب المسلمين، وليس يجوز أن يظل العالم الإسلامي بدون هذا الرأس الذي اعتاد أن يتلقى منه الهدي قروناً طويلة. لذلك فكر كثيرون من الأمراء في إعادة الخلافة. وكان صاحب حلب وصاحب دمشق وقطز ممن اهتم بالمسألة، وبحث عن أحد رجال البيت العباسي ليعيد الخلافة في شخصه.

لكن الذي تم له هذا الأمر هو بيبرس. فقد رأى أنه من المفيد له أن يعيد الخلافة

المأمون وعصره. ذلك أن هذا الخليفة تعرَّف إلى ما كان عند اليونان من آثار عقلية، فاهتم بنقلها إلى اللغة العربية. وكانت بينه وبين ملك الروم في بزنطية مراسلات. وكان المأمون قد استظهر عليه، فكتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة في بلد الروم فأجاب بعد امتناع. فأخرج المأمون جماعة، منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا. وثمة رواية تقول بأن المأمون كتب مثل ذلك إلى ملك صقلية، إذ طلب منه أن يرسل إليه ما عنده من ذخائر العلوم القديمة. على أن النقل لم يقتصر على علوم اليونان. بل تعداه إلى أدب الفرس وطب الهنود وعلومهم. وأصبح بيت الحكمة هذا دار ترجمة وتصحيح وتبويب وتنقيب. وكان ممن عمل فيه حنين بن اسحق وابنه اسحق بن حنين وبنو شاكر. وقد بلغ مما رزقه النقلة خمسمائة دينار في الشهر للنقل والملازمة. أما حنين بن اسحق فقد كان المأمون يعطيه، فيما يحكى عنه، زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية ذهباً.

أما ما ترجم في عصر المأمون فقد شمل كتب أفلاطون وأرسطو في الفلسفة والعلم وكتب أبقراط وجالينوس في الطب وكتب أقليدس وأرخميدس في الرياضيات وكتب أطباء الهنود، وكتباً أدبية فارسية وهندية. وقد بلغت الكتب التي ترجمت بضع مئات.

على أنه يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن الحركة العلمية لم تقتصر على الترجمة، بل إن المشتغلين بالعلوم بدأوا، منذ أيام المأمون، بالنسج على منوال هؤلاء القدماء في السير بالعلم والمعرفة قدماً. فإن المأمون جمع عدداً من العلماء قاسوا له طول درجة الطول، وصنفوا له كتباً بما في وصف الأرض ورسموا له الصورة المعروفة بالصورة المأمونية. هذا إلى المناقشة في قضايا الفلسفة ومشاكلها في مجالس المأمون ومجالس العلم الأخرى التي أدت إلى ظهور آراء جديدة في آفاق التفكير العلمي والديني كان لها فيما بعد شأن كبير.

ولعل خير ما أختم به هو رأي السير وليم ميور في المأمون، إذ قال: «كان حكم المأمون عادلاً مجيداً، وكان عصره مزدهراً بأنواع العلوم والفنون والفلسفة، وكان هو أديباً مولعاً بالشعر متمكناً منه. وكان مجلسه حافلاً بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة إذ كان يقربهم ويجزل لهم العطاء على اختلاف مذاهبهم ونحلهم. وكان جماعة المحدثين والمؤرخين والفقهاء كثيرين في أيامه وقد أخرجت في عصره من أديرة سورية وآسية الصغرى كتب الفلسفة والعلوم وترجمت إلى العربية. ولم تقتصر جهود هؤلاء العلماء على نقل العلوم إلى اللغة العربية، بل توسعوا فيها وأضافوا إليها ما اكتسبوه من مباحثهم واطلاعهم. فقد كان لهم في سهل تدمر مرصد مجهز بجميع الآلات اللازمة لدرس الفلك والهندسة. وصنفوا كتباً في التاريخ والرحلات والطب والكيمياء والتنجيم».

العمل الذي يرجع به مسود الصحائف مبيضاً. وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم، وأعد لهم عنده المقام الكريم، وخصهم بالجنة التي لا لغو فيها ولا تأثيم. وقد تقدمت لك في الجهاد يد بيضاء أسرعت في سواد الحساد، وعرفت منك عزمة، هي أمضى مما تجنه ضمائر الأغماد، وأشهى إلى القلوب من الأعياد.

«ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها تبسم له الثغور، واحتفال يبدل ما دجى من ظلماتها بالنور. واجعل أمرها على الأمور مقدماً، وشيد منها كل ما غادره العدو متهدماً. فهذه حصون بها يحصل الانتفاع، وهي على العدو داعية افتراق لا اجتماع. وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاوراً، والعدو له ملتفتاً ناظراً، لا سيما ثغور الديار المصرية، فإن العدو وصل إليها رابحاً وراح خاسراً، واستأصلهم الله فيها حتى ما أقال منهم عاثراً.

«وكذلك أمر الأسطول الذي تزجى خيله كالأهلة، وركائبه سابقة بغير سائق مستقلة. وهو أخو الجيش فإن ذلك غدت الرياح له حاملة، وهذا تكفلت بحمله المياه السائلة. وإذا لحظها جارية في البحر كانت كالأعلام، وإذا شبهها قال هذه ليال تقلع بالأيام».

وبمثل هذا التقليد الرسمي أصبح موقف الملك الظاهر قويّاً شرعاً وغدت القاهرة مركز الخلافة بعد أن فقدتها بغداد.

٧. شاعر دمشقي

الأيام التي يجب على العرب أن يذكروها ويحيوها كثيرة، وليس ذلك غريباً على أمة شغل تاريخها القرون الطوال ولا يزال يشغل، وامتد سلطانها من الهند إلى المحيط الأطلسي ولسنا الآن بسبيل تعدادها، ولكن ثمة عهد يزهو على غيره من العهود ويدل بمكانته: هو عصر صلاح الدين. ذلك أنه يمثل في تاريخ العرب يقظة بعد فتور، وقومة بعد هجوع، وائتلافاً بعد انقسام.

كانت أيام صلاح الدين وخليفته الملك العادل أياماً غراء، تكاتف فيها الأمير والجندي والعامل والزارع والناثر والشاعر والعالم والمتعلم ليدفعوا أذى وقع عليهم ويقصوا مصيبة ألمت بهم أيام حاربوا الصليبيين، وجاد كل في تلك الأيام بأعز ما لديه وأفرغ جعبته، فلم يضنّ بالروح أو المال أو الولد. ولذلك نجح الجميع. فلما تم لهم النصر احتفوا به واستمتعوا بخيراته، وجاء خلفاؤهم فأتموا عملهم.

ليس غريباً، والنفوس ثملة بخمر النصر، والأرواح نشوى بالفوز الباهر والعقول تتفتق عن رائع إنتاجها، ليس غريباً أن تكثر المدارس وينتشر التعليم ويزهو الشعر ويكتب التاريخ ويزدهر الفكر. ليس غريباً أن تعد في هذا العصر جماعة من خير من ظهر في آفاق الأدب العربي كابن خلكان وابن عساكر والنيسابوري والقاضي الفاضل وعماد الدين وابن عنين.

وابن عنين الشاعر هو الذي نريد أن نتحدث عنه الآن. فهو من أهل القرن السادس

ثم يتولى هو السلطنة بعدها من الخليفة وبذلك يقوي مركزه إذ يجعله شرعيّاً، ويمكنه هذا من التفوق على نظرائه معنويّاً، ويمهد ذلك سبيل القضاء عليهم. فضلاً عن أن هذا العمل يجعل لمصر قيمة خاصة في تزعم العالم الإسلامي، ومصر هي مركز عرش بيبرس وغيره. لذلك انصرف الملك الظاهر نحو هذه المسألة يوليها من عنايته وتفكيره ما تستحقه.

وقد روى المقريزي في كتاب السلوك أنه في سنة تسع وخمسين وستمائة وردت على الملك الظاهر وهو بالقاهرة مكاتبة من دمشق جاء فيها: «إنه ورد إلى الغوطة رجل ادّعى أنه أبو القاسم أحمد الأسمر ابن الإمام الظاهر ابن الإمام الناصر، وهو عم المستعصم، وأخو المستنصر، ومعه جماعة من عرب خفاجة في قريب الخمسين فارساً، وإن الأمير سيف الدين البغدادي عرف أمراء العرب المذكورين وقال بهؤلاء يحصل المقصود». ونرى من العبارة الأخيرة بأن الملك الظاهر ونوابه كانوا يبحثون عن أحد أفراد البيت العباسي بحثاً دقيقاً. وأبو القاسم أحمد هذا فر من بغداد لما قتل هولاكو الخليفة المستعصم بالله، ونزل عند خفاجة، من عرب العراق مدة، ثم أراد أن يلحق بالملك الظاهر بمصر. ويجدر بنا بهذه المناسبة أن نذكر أن مصر أصبحت مأمناً لكل من نجا من العباسيين فيما بعد. فقد هبطها كثيرون، لأنهم ضمنوا لأنفسهم مقاماً هادئاً بعيداً عن جو الدسائس والانتقام، وأكثرهم لم يشترك في مكائد البلاط المملوكي في تلك الأيام، على ما كان فيها من إغراء وإثارة أطماع.

فلما بلغ السلطان خبر قدوم أبي القاسم أحمد العباسي إلى دمشق كتب السلطان إلى نوابه بالقيام في خدمته وتعظيم حرمته وأن يسير معه حجاب من دمشق بأوفر حرية إلى جهة مصر. وخرج السلطان من قلعة الجبل بالقاهرة يوم الخميس تاسع شهر رجب إلى المطرية بظاهر مصر للقائه، وكان في صحبته الوزير الصاحب بهاء الدين وقاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز وسائر الأمراء وجميع العسكر وجمهور أعيان القاهرة ومصر ومعظم الناس من الشهود والمؤذنين. وخرج النصارى بالإنجيل. وهناك استقبل الأمير العباسي استقبالاً حافلاً. فإن الملك الظاهر لما وقع نظره على الأمير ترجل وعانقه. ثم سار به السلطان إلى باب النصر، ودخل إلى القاهرة وقد لبس الشعار العباسي وخرج الناس إلى رؤيته وكان اليوم من أعظم أيام القاهرة. وشق المدينة وصعد إلى قلعة الجبل وهو راكب. وكان تصرف الملك الظاهر في كل حركاته يدل على مبلغ احترامه للرجل الذي اختاره للخلافة، وتقديسه للمنصب الذي يشغله. فإنه لما وصل باب القلعة أبى أن يتقدم الإمام أحمد. وأنزل أبو القاسم في مكان جليل هيىء له، وبالغ السلطان في إكرامه وإقامة ناموسه.

وبعد أيام قليلة عقد السلطان مجلساً عاماً كبيراً في قاعة الأعمدة في القصر وحضره قاضي القضاة ونواب الحكم وعلماء البلد وفقهاؤها وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية والأمراء ومقدمو العساكر والتجار ووجوه الناس، وحضر أيضاً الشيخ عز

وما كنت بالراضي بصنعاء منزلاً ولو نلت من غمدان ملك ابن ذي يزن
عسى عطفة من جوده تعكس النوى فألفى قرير العين بالأهل والوطن

والمشار إليه هنا في قوله هو صلاح الدين. ولكن أدل من هذا على شوقه إلى دمشق قوله:

دمشق، فبي شوق إليها مبرح وإن لج واشٍ أو ألح عذول
بلاد بها الحصباء در وتربها عمير وأنفاسٌ الشمال وشمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق وصح نسيم الروض وهو عليل
وفي كبدي من قاسيون حرارة تزول رواسيه وليس تزول

ولكن لا شوق ابن عنين وتحرقه، ولا سعي أصحابه وذوي المكانة غيّر من قلب صلاح الدين، فلم يسمح له السلطان بالعودة إلى دمشق وهو حي. فلما توفي صلاح الدين حزم ابن عنين أمتعته وجمع ماله، وهو كثير، واتجه نحو الشام بطريق مصر. وكان صاحب مصر ابن صلاح الدين. فلما نزلها ابن عنين طلب منه أن يدفع زكاة أمواله. فقال يهجو عزيز مصر، مقابلاً بينه وبين عزيز اليمن:

ما كل ما تسمى بالعزيز لها أهل - ولا كل برق سحبه غدقة
بين العزيزين بون في فعالهما هذاك يعطي وهذا يأخذ الصدقة

ولم يبرح ابن عنين مصر إلى الشام إلا بعد أن تولى القطرين الملك العادل. عندها تقدم إليه ابن عنين بقصيدة مدحه فيها وذكر شوقه إلى دمشق وطلب العفو، ونال بها رضى الملك العادل وعاد إلى وطنه وأهله، واستمتع في دمشق بمنزلة رفيعة أيام العادل وأيام خلفه الملك المعظم عيسى.

عاد الشاعر وقد علمته أسفاره فوق ما علمته دروس النحو والفقه والأدب ومجالس العلماء، ورأى فيه الملك المعظم عيسى رجلاً كامل الثقافة بعيد النظر عارفاً بأمور الدنيا، عالماً بأصول الفقه والحديث فاصطحبه. وخادنه حتى إنه زاره في بيته لما مرض. ولم يلبث حتى استوزره، وإن كان ذلك جاء متأخراً. وعندها نال ابن عنين ما كان يأمله - فهو وزير االملك القوي وشاعر البلاط الأول، ويقيم في دمشق ويجري عليه الرزق سهلاً يسيراً. وإذن فليمتع نفسه بعمل الخير وخدمة مليكه.

ومن أجمل ما قاله ابن عنين في مدح الملك المعظم قصيدتان أنشدهما لمناسبة سيره لمساعدة أخيه في مصر لإخراج الصليبيين من دمياط، فقد جاء في الأولى قوله:

ومستخبر عني وما من جهالة كشفت الغطا عنه وزال ارتيابه
وذكرته أيام دمياط بيننا وبين العدى، والموت يهوى عقابه
وجيش خلطناه رحاب صدوره بجيش من الأعداء غلب رقابه
تركناهم في البر والبحر لحمة تقاسمهم حيتانه وذئابه

وقال في الثانية:

سلوا صهوات الخيل تخبركم عنا إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا

مشاة. ودخل الجمع من باب النصر وشق القاهرة وقد زينت، وبسط أكثر الطرق بثياب فاخرة مشى عليها فرس السلطان. وضج الخلق بالدعاء بخلود أيامه وإعزاز نصره وأن يخلعهما خلع الرضى. فكان يوماً مشهوداً تقصر الألسنة عن وصفه.

ولما كان التقليد الذي أشرنا إليه يعطينا صورة صحيحة للإنشاء الرسمي في ذلك العصر، ويظهر العلاقات بين الخليفة والسلطان من الناحية الرسمية، ويوضح واجبات السلطان في رعيته، رأيت أن أختم هذا الحديث بمختارات منه. فقد جاء فيه، على لسان الخليفة، مخاطباً فيه السلطان:

«أمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع، ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع. وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية، وما يتجدَّد من الفتوحات غوراً ونجداً، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فرداً، ولا جعل منها بلداً من البلاد ولا حصناً من الحصون يستثنى، ولا جهة من الجهات تعد في الأعلى ولا في الأدنى.

«فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملاً؛ وخلص نفسك من التبعات اليوم ففي غد تكون مسؤولاً لا سائلاً، ودع الاغترار بأمر الدنيا فما نال أحد منها طائلاً، وما رآها أحد بعين الحق إلا رآها خيالاً زائلاً. فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة، وقدم لنفسه زاد التقوى، فتقدمة غير التقوى مردودة لا مقبولة. وابسط يدك بالإحسان والعدل، فقد أمر الله بالعدل وحث على الإحسان، وكرر ذكره في مواضع من القرآن، وكفر به عن المرء ذنوباً كتبت عليه وآثاماً، وجعل يوماً واحداً منها كعبادة العابد ستين عاماً. وما سلك أحد سبيل العدل إلا واجتنيت ثماره من أفنان، ورجع الأمر به بعد تداعي أركانه وهو مشيد الأركان، وتحصن به من حوادث زمانه، والسعيد من تحصن من حوادث الزمان، وكانت أيامه في الأيام أبهى من الأعياد وأحسن في العيون من الغرر في أوجه الجياد، وأحلى من العقود إذا حلي بها عاطف الأجياد.

«وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نواب وحكام، وأصحاب رأي من أصحاب السيوف والأقلام. فإذا استعنت بأحد منهم في أمورك فنقب عليه تنقيباً، واجعل عليه في تصرفاته رقيباً. وسل عن أحواله. ففي يوم القيامة تكون عنه مسؤولاً وبما أجرم مطلوباً، ولا تول منهم إلا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوباً. ومرهم بالأناة في الأمور والرفق، ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق، وأن يقابلوا الضعفاء في حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق، وألا يعاملوا أحداً على الإحسان والإساءة إلا بما يستحق. وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعايا إخواناً، وأن يوسعوهم براً واحساناً، وألا يستحلوا حرماتهم إذا استحل الزمان لهم حرماناً، والسعيد من نسج ولاته في الخير على منواله، واستنوا بسنته في تصرفاته وأحواله، وتحملوا عنه ما تعجز قدرته عن حمل أثقاله.

«ومما يجب أيضاً تقديم ذكره أمر الجهاد الذي أضحى على الأمة فرضاً، وهو

ومن ذلك قوله في كحال أي طبيب عيون كان اسمه الصباغ:

لو أن طلاب المطالب عندهـم علـم بأنـك للعيـون تغـور
لأتوا إليـك بكـل مـا أملتـه منهم، وكان لك الجزاء الأوفـر
ودعوك بالصباغ لمـا أن رأوا يغشى العيون لديك ماء أصفر
وبكفك الميل الذي يحكى عصا موسى فكم عين بـه تتفجـر

ومن شعره قصيدة داعب فيها صديقاً له أثناء إقامته في مصر. وصديقه هذا هو سليمان بن موسى المصري. أهدى سليمان ابن عنين خروفاً هزيلاً، فبعث إليه الشاعر بأبيات، جاء فيها وصفه للخروف بقوله:

أتاني خـروف مـا شككـت بأنـه حليف هوى قد شفه الهجر والعذل
إذا قام في شمـس الظهيـرة خلتـه خيالاً سرى فـي ظلمـة مالـه ظـل

٨. دمشق المرحة في القرن الثامن للهجرة

هلم بنا نرافق جماعة من الرّحالين زاروا دمشق في القرن الثامن للهجرة والقرن الرابع عشر للميلاد وتركوا لنا صوراً لطيفة للحياة المرحة في المدينة العظيمة. وحياة المرح التي أقصدها كانت تشمل الجد المعتدل واللهو البريء والنشاط التجاري، على ما يبدو من هذه القطع التي أنقلها إليك الساعة.

لنبدأ جولتنا بالجامع الأموي الذي كان ولا يزال مركزاً هاماً من مراكز الحياة الاجتماعية في دمشق. وقد وصف الجامع ونشاطه كثيرون، ولكن الوصف الذي أنقله هو من قلم العمري صاحب مسالك الأبصار، وهو مؤلف في الدرجة الأولى في الدقة من كتّاب القرن الثامن الهجري. يقول العمري: وهذا المسجد معمور بالناس كل النهار وطرفي الليل لأنه ممر المدارس والبيوت والأسواق وفيه ما ليس في غيره من كثرة الأئمة والقراء ومشايخ العلم والإقراء ووجوه أهل التصدير والإفتاء ووظائف الحديث وقراء الأسباع والمجاورين من ذوي الصلاح. فلا تزال أوقاته معمورة بالخير آهلة بالعبادة قل أن يخلو طرفة عين في ليل أو نهار من مصل أو جالس في ناحية منه لاعتكاف أو مرتل لقرآن أو رافع عقيرته بأذان أو مكرر في كتاب علم أو سائل عن دين أو باحث في معتقد أو مقرر لمذهب أو طالب لحل مشكل من سائل ومسؤول ومغيث ومستغيث. هذا إلى من يأتي هذا المسجد مستأنساً لحديث أو مرتقباً لقاء أخ أو متفرجاً في فضاء صحنه وحسن مرأى القمر والنجوم ليلاً في سمائه. هذا إلى فسحة الفضاء وطيب الهواء وبرد رواقاته أوقات الهجير وحسن مرأى ميازيبه أحيان المطر وفي كل ناحية من وجهها قمر».

وإتماماً للصورة التي كان عليها الجامع الأموي أنقل إليك ما قاله عنه ابن بطوطة كبير الرحالين المسلمين. وعبارته هي: «ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم، والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرتفعة وقراء القرآن يقرأون

للهجرة والقرن الثاني عشر للميلاد. ولد في دمشق وبها نبه شأنه وبها مات. لكنه شرق في الآفاق وغرب، فأفاد من الرحلة كما أفاد من سماعه لكبار العلماء والمحدثين والنحويين والفقهاء وهو بعد يافع في دمشق.

تفتقت شاعريته وهو بعد فتى غض الإهاب، ولعله رغب في أن يشق طريقه إلى المجد بسرعة فنال من أهل دمشق في هجو مرير، لكنه تناول في هجوه ما ثبت على الناس. إلا أن أولئك الذين آذاهم تربصوا به حتى أوغروا صدر صلاح الدين عليه، لأنه نال حتى السلطان بجارح كلامه، فحنق عليه ونفاه عن دمشق.

هنا تبدأ رحلات ابن عنين التي تمتد سبع عشرة سنة يقضيها متنقلاً في الشام والعراق والجزيرة وأذربيجان وخراسان وخوارزم وما وراء النهر والهند واليمن ومصر. وكانت هذه البلاد قد أظلها الإسلام برايته وانتشرت في أكثرها اللغة العربية، لغة العلم والأدب، فكان ابن عنين يقضي بعض وقته في مدح رجال الدولة فيها لينال منهم مالاً. ولكن أكثر وقته كان يصرفه في مجالس العلماء والأدباء وصحبة أولي الأمر والشأن. فنال من ذلك كله ثقافة واسعة ومشاركة في الآداب رائعة، كانت له سنداً وعضداً لما آن له أن يستوزر في اليمن وفي الشام.

ولعل من أطرف ما حدث له وهو في رحلاته أنه كان يحضر يوماً درساً للإمام فخر الرازي، وكان اليوم بارداً والأرض يكسوها الثلج، فبينا هم كذلك إذا بحمامة تدخل المجلس وخلفها طير من الجوارح يطاردها فتركها الجارح لما رأى الناس، فارتجل ابن عنين قائلاً:

يا ابن الكرام المطعمين إذا اشتووا ... في يوم مسغبة وثلج خاشف
من نبأ الورقاء أن محلكم ... حرم وأنك ملجأ للخائف
وفدت عليك وقد تداني حتفها ... فحبوتها ببقائها المستأنف
جاءت سليمان الزمان بشكوها ... والموت يلمع من جناحي خاطف
قرم يطاردها فلما استأمنت ... بجنابه ولي بقلب واجف

والأيام التي تمتع فيها ابن عنين بعز ومجد، وهو مغترب عن دمشق، هي الأيام التي قضاها في اليمن عند طغتكين وهو أخ لصلاح الدين ولي اليمن. فنزل ابن عنين عنده ومدحه وأعجب الملك بالشاعر وعرف قدره فقلده الوزارة. وعندها استقر ابن عنين سنوات يعمل للملك ويمدحه وينال من عطفه وبره حتى تجمع له مال كثير. ولكن أمرين كانا يحزّان في نفسه هذه المدة: أولهما أنه لم يتمكن من أن يمتدح صلاح الدين بمناسبة انتصاره في معركة حطين، وثانيهما أنه لا يستطيع العودة إلى وطنه: دمشق. وقد نظم ابن عنين كثيراً من الشعر يتوجع فيه لدمشق ويحن إليها. ومن ذلك ما قاله وهو باليمن:

وكم قيل لي في ساحة الأرض مذهب ... وعن وطر في النفس ميل إلى الوطن
وما نافعي أن البلاد كثيرة ... أطوف بها والقلب بالشام مرتهن

حوانيتهم. ومع أن المدينة مزدحمة بالسكان، ومع أن البضائع تترك في الشوارع دون حراسة، فليس ثمة من يذكر أن أحداً قتل في دمشق، وقلما تسرق فيها السلع المعروضة للبيع».

ومندفيل، وهو من الرحالين الأوروبيين أيضاً، يصف دمشق وصفاً أنيقاً موافقاً لما نقلناه عن فون سوخم، ويضيف إلى ذلك أنها كثيرة الأطباء؛ وهذا يذكرنا بأن نشير إلى أن دمشق كانت تتمتع باثنين من المستشفيات الكبيرة التي عرفها العالم العربي، وهي المستشفى النوري الكبير والمستشفى الجديد. وقد كانت نفقات الواحد منهما في اليوم خمسة عشر ديناراً، وهو مبلغ ضخم بالنسبة إلى تلك الأيام.

وقد كان بوغيبونصي ممن زاروا دمشق في القرن الثامن للهجرة. وفي الفصل الذي عقده عن دمشق يسميها المدينة النبيلة، ويقول إنه سمع الكثيرين يقولون إن دمشق فيها من السكان بقدر ما في باريس إن لم يكن أكثر، ويقول: «أسواقها أكثرها مسقوف، ولكن توجد منورات على جوانب السقف، وفي الليل تنار هذه الأسواق بمصابيح كبيرة. وفي كل ساعة من ساعات اليوم في النهار أو في الليل يستطيع أن يحصل المرء على حاجاته من الطعام، لأن الحوانيت تظل مفتوحة فيها دائماً. وتنتج دمشق خمسة عشر ألف برميل من ماء الورد. ولو ذكرت كل الذي عرفته وسمعته عن دمشق لرماني القراء (الأوروبيون طبعاً) بالكذب».

وفي القرن الرابع عشر كانت القلعة بدمشق مركز الحياة العسكرية. ودمشق كانت عاصمة سورية. ولأهمية القلعة وسكانها نشأ في الجهة الشمالية الغربية منها على مقربة من المرجة الحالية ميدان عرف باسم «ميدان تحت القلعة». وصار هذا الميدان يشمل كثيراً من الحوانيت الكبيرة، وقامت فيه سوق الخيل. وقد وصف البدري الدمشقي نزيل مصر ميدان تحت القلعة فقال: «ومن محاسن الشام تحت قلعتها، فإنها منهل للغريب ومرتفق للقريب، وهي ساحة سماوية كبيرة لاجتماع البرية، تحفها الدور، وتعلوها القصور، ويلحقها كل ما يرومه الإنسان، وتشتهيه الشفة واللسان، لا يحتاج سكانها لحاجة من المدينة. فيها دار البطيخ الذي يباع فيه جميع فواكه البلد. وبتحت القلعة سوق للقماش المذروع وآخر للمخيط، وبها سوق للفراء والعبي وأسواق للنحاس والسكاكين والقرب وقماش الخيل والسروجيين والنجارين والزجاجيين.

«وساحة تحت القلعة فإنك لا تستطيع أن ترى أرضها لكثرة ما بها من المتعيشين والوظائفية، ويتخلل بينهم أرباب الحلق والمضحكون وأصحاب الملاعيب والحكوية والمسامرون وكل ما يتلذذ به السمع ويسر العين وتشتهيه النفس صباحاً ومساء، وعلى هذا لا يفترون. ولكن المساء أكثر اجتماعاً ويستمرون إلى قبيل الفجر».

أهل دمشق كانوا دائماً مغرمين بأماكن اللهو والنزهة التي حبتهم الطبيعة بها. وقد ذكر ابن بطوطة ذلك عنهم فقال: «وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملاً وإنما يخرجون إلى المتنزهات وشطوط الأنهار ودوحات الأشجار وبين البساتين النضرة

غداة لقينا دون دمياط جحفلا ... من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأياً وعزماً وهمة ... وديناً وإن كانوا قد اختلفوا لسنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم ... بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
لقد صبروا صبراً جميلاً ودافعوا ... طويلاً، فما أجدى دفاع ولا أغنى
سقيناهمو كأساً نفت عنهم الكرى ... وكيف ينام الليل من عدم الأمنا

ويخصُّ في قصيدته المعظم عيسى بقوله:

لعمرك ما آيات عيسى خفية ... هي الشمس للأقصى سناء وللأدنى
سرى نحو دمياط بكل سميدع ... بحيث يرى ورد الوغى المورد الأسنى
فأجلى علوج الروم عنها وأفرجت ... قلوب رجال حالفت قبلها الحزنا

لكن ابن عنين لم يقتصر في مديحه على المعظم. فقد كان معجباً بملوك الأيوبيين لجهادهم في سبيل بلاده وبلادهم، فلم يتأخر عن مدح أحد منهم. فلما دافع الملك الأشرف موسى عن حلب قال في قصيدة رائعة، منها

أنت الذي أجليت عن حلب العدى ... وحميت بالسمر اللدان الموصلا
.كم موقف ضنك فرجت مضيقه ... وطريقه لخفائه قد أشكلا
كم يوم هول قد وردت، وطعمه ... مر المذاق كريه نار المصطلى

ومثل ذلك يقال في غيرهم.

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن المديح الذي يقوم على أعمال من البطولة، والذي أساسه اعتراف الشاعر بحق الممدوح عليه، مديح جميل. وابن عنين إذ ينظم قصائده في ملوك الأيوبيين إنما يعبر عن رأي الناس، لأن الأيوبيين رفعوا عنهم عادية الخطوب فحق لهم أن يشكروا ويمدحوا ووجب على الشعراء أن يتقدموا إليهم بمثل هذا الشعر العاطفي القوي تخليداً لمآثرهم واعترافاً بفضلهم.

على أن شعر ابن عنين لا يقتصر على مديح الملوك والتوجع لدمشق أثناء أسفاره. بل إنه تناول، شأن جميع الشعراء المعاصرين له، فنون النظم وأساليب القصيد كلها، حتى إنه نظم في الألغاز، ما دامت الألغاز شيئاً يجوز قول الشعر فيه.

وشاعرنا يجيد الوصف والرثاء والهجاء. فمن جيد وصفه قوله في دمشق:

أنَّى اتجهت رأيت ماء سائحاً ... متدفقاً أو يانعاً متهدلا
وكأنما أطيارها وغصونها ... نغم القيان على عرائس تجتلى
وكأنما الجوزاء ألقت زهرها ... فيها وأرسلت المجرة جدولا
ويمر معتل النسيم بروضها ... فتخال عطاراً يحرق منديلاً

وأما هجاؤه ففيه خفة ومرح، إلا إذا كان متألماً من المهجوّ فإنه يكون مؤلماً. فمن النوع الأول قوله في الملك العادل وكان قد قطع عنه رزقاً:

إن سلطاننا الذي نرتجيه ... واسع المال ضيق الإنفاق
هو سيف كما يقال، ولكن ... قاطع للرسوم والأرزاق

المدينة في الإسلام

١ . المدينة في الإسلام

إن العرب قبل الإسلام غلبت عليهم البداوة في جزيرتهم. فكانت حياتهم أساسها التنقل انتجاعاً للمراعي، وعمادها بيت يسهل تركه، وخيام تضرب في المكان أياماً ثم تحمل إلى غيره، وما أحسن ما وصف رحيلهم الحارث بن حلزة إذ قال:

أجمعوا أمرهم عشــاء فلمــا أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
مــن منــاد ومــن مجيب ومن تصهــال خيل خلال ذاك رغاء

فإذا اطمأنت جماعة منهم إلى ماء لا ينضب له معين، في قلب القفار الشاسعة، وأرض تنبت الحب والنخيل، وتغذو الإبل والشياه، أقامت الجماعة فيه إقامة مازج بداوتها شيء من الحضارة، ورافق الراعي بعض الصناعة، واستقر القوم في قرية أو بلد. وهذه واحات نجد تقوم شاهداً على ما كانت عليه تلك البلاد قبل الإسلام.

قد تقع إحدى هذه الواحات في طريق قافلة تحمل المتاجر من صقع إلى آخر، فينشد رجالها مأوى في الواحة ومطمعاً، ويألف التجار النزول فيها والاستقرار، ثم يتخذونها سوقاً يتبادلون فيها السلع مع غيرهم، بدلاً من أن يقطعوا جميعهم المسافات البعيدة. فيصبح المكان مدينة كبيرة، كما كانت مكة قبل الإسلام. فقد جعلها موقعها على طريق القوافل بين الشام واليمن سوقاً ومتجراً يهرع إليه البائع والمشتري فيصيب كل طرفاً وتحفاً، ويحمل إلى أهله وبلده من غلات الأقاليم النائية ما عز وغلا. بل إن أهل مكة أنفسهم أصبحوا يحملون المتاجر التي كانوا ينقلونها من اليمن والشام. فمع أن مكة كانت في واد غير ذي زرع، فقد كان لها من تجارتها مصدر ثروة كبيرة، وكان سكانها أصحاب رحلة الشتاء إلى اليمن والصيف إلى الشام. وقد ذكر ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: «لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا ربّ هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف». ونحن نلمح آثار هذه النعمة فيهم في وصف قوافل التجار التي كانت تنتقل بين مكة ودمشق وصنعاء، فما كان أشبهها بحملات كبيرة يقوم على حمايتها جيش من الأحباش المأجورين لذلك. وما يحمي جيش إلا قافلة عظيمة الغنى كبيرة المتجر.

إلى هذين اللونين من الحياة العربية قبل الإسلام ـ لون البداوة المحضة، والحياة

بالأصوات الحسنة صباحاً ومساءً. وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله ينشد كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم. وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى وإنما يقرأون القرآن تلقيناً. ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الأشعار وسواها فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب. وبذلك جاد خطه لأن المعلم للخط لا يعلم غيره».

كان الجامع الأموي مركز الحياة المدنية وها نحن إذ نخرج منه مع ابن بطوطة من بابه الغربي تراه ينقلنا إلى عالم العمل الذي يدعو إلى التأمل والنشاط فهو يقول: «وحوله شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم، وشوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصنّاع أواني الزجاج العجيبة، وفي الرحبة المتصلة بالباب دكاكين لكبار الشهود منها دكان للشافعية وسائر أصحاب المذاهب، يكون في الدكان منها الخمسة والستة من العدول، والعاقد للانكحة من قبل القاضي. وسائر الشهود مفترقون في المدينة. وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والأقلام والمداد».

ويحدثنا ابن بوطوطة كما حدثنا ابن جبير من قبله عن المدرسة النورية، وهي إحدى مفاخر دور العلم في سورية، فيقول: «ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين رحمه الله، وهي من القصور الأنيقة، ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار، فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين». وهذه المدرسة التي ذكرت كانت واحدة من أربعين مدرسة ينعم أهل دمشق بها في القرن الثامن للهجرة، منها مدرستان للطب ومدرسة للهندسة. ولسنا نشك في أن هذا النوع من المرح الذي كان يحيط بطالب العلم كان يدعوه إلى مضاعفة الجهد للوصول إلى ما يريد.

وممن أُعجب بأسواق دمشق من الرحالين الأوروبيين في القرن الثامن للهجرة «فون سوخم» الذي تحدث عنها حديث المعجب، قال: «ودمشق عظيمة فخمة غنية بكل أنواع المتاجر وفي كل ناحية منها شيء مبهج. فالطعام فيها كثير وكذلك التوابل والحجارة الكريمة والحرير واللالىء والأقمشة المقصبة والطيوب من الهند وبلاد التتار ومصر والبلاد الواقعة إلى جهتنا، أي أوروبة، وكل مما يتمناه المرء يجده فيها.. وأنهارها وبساتينها مهيأة للإنسان ليستمتع بها ويتنعم. وهي كثيرة السكان إلى حد لا يصدق ويقيم فيها الصناع المختلفون والتجار. وتزين داخلها الحمامات الكثيرة والطيور التي تصدح طول العام وغير ذلك من المبهجات والأمور السارة.

«وتقوم صناعاتها المختلفة كل في حي خاص. وكل صانع يجعل أمام بيته مكاناً يعرض فيه مصنوعاته عرضاً يلفت النظر ويغري بالشراء، وكذلك يفعل التجار بسلعهم. وكل ما يصنع فيها متقن. والتجار الأغنياء يحتفظون بالطيور في أقفاص أمام

جاء بناء المدن واختطاط المنازل في الدولة العربية أمراً طبيعيّاً بعد احتلال المدن وفتح الأقطار. فما كان لهم، وهم بدو بعيدون عن حياة الترف والدعة، أن يفكروا في المدن والأمصار. فلما اضطروا إلى إدارة البلاد المفتوحة، وعرفوا منازع الحضارة عمروا المدن. وكانوا كلما أمعنوا في الملك والاستقرار انتشرت مدنهم واتسعت. وقد خضعت المدن التي أنشأتها الدول لأغراض سياسية خاصة لقاعدة الخراب مع زوال الدولة. أما المدن التي قامت على أسس صحيحة من حيث الموقع والمناخ فقد عمرت طويلاً، ولا يزال الكثير منها قائماً إلى الآن كالبصرة وعينتاب وبغداد والقاهرة.

كانت أقدم المدن التي أنشأها العرب البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط. ونحن إذا استعرضنا هذه المدن وجدنا أن أصلها مراكز للجند. فقد كانت البصرة معسكراً للجند قبل بنائها مدينة بنحو ثلاث سنوات، ثم اختطت المدينة لتكون مركزاً للجند ولإدارة جنوب العراق المفتوح، وأصبحت البصرة والأبلة فيما بعد مركزاً تجاريّاً لمنطقة شط العرب. وبعد القادسية أمر عمر سعد بن أبي وقاص باتخاذ معسكر للجند في أواسط العراق فأقيم المعسكر سنتين ثم بنيت الكوفة في موضعه. بناها سعد بأمر عمر. ولما فتح العرب مصر واحتلوا الإسكندرية أراد عمرو بن العاص أن يتخذها عاصمة لمصر، فكتب إلى عمر، فلما عرف الخليفة أن النيل إذا امتلأ يفصل بينه وبين المسلمين، منع عمراً من اتخاذها عاصمة. وأمر أن تكون الفسطاط عاصمة مصر، فكان ذلك أصل هذه المدينة. وكذلك فتح عقبة بن نافع شمال أفريقية، واحتاج إلى مركز للعمليات الحربية، ودار للتمرين والسلاح ولمهاجمة البلاد الباقية، فبنى القيروان جنوبي تونس الحالية. ولما ولي الحجاج إدارة العراق، وهدأّ ثورته على الأمويين، أراد أن يتخذ له مركزاً لإدارته ومقراً لجنده بحيث يكون بين البصرة والكوفة، وبحيث يبقى جنده الشامي بمعزل عن جند العراق وأهله، فبنى «واسط» بين المدينتين المذكورتين واتخذها مقراً لعسكره.

وبناء المدينة للإدارة والفتح أمر طبيعي لأن الدفاع عنها أسهل من الدفاع عن المعسكر المكشوف في حالة قيام ثورة. وقد عرض ابن خلدون لذلك إذ قال: «إن القبائل والعصائب إذا حصل لهم الملك اضطروا إلى الاستيلاء على الأمصار لدفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين.. فيعتصم (صاحب الأمر) في المصر ويغالبهم. ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة. والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة إلى كثير عدد، ولا عظيم شركة».

ينطبق هذا القول بشكل خاص على نوع من المدن عني العرب به في العصرين الأموي والعباسي بشكل خاص. ذلك أنهم لما لم يتمكنوا من التغلب على الدولة البزنطية واضطروا إلى الوقوف في جبال طوروس وأرمينية، عمروا مدناً كثيرة كانوا

والمياه الجارية، فيكونون بها يومهم إلى الليل».

وقد أطال البدري في وصف هذه المتنزهات المحيطة بدمشق مثل الربوة والغوطة والجبهة ووادي البنفسج واليلكي، وغيرها كثير. ولعل متنزه اليلكي يكفي للإشارة إلى ما كان يتنعم الناس به وبغيره من مرح وسرور. يقول البدري: «ومتنزه اليلكي يجتمع فيه الناس أيام زهر السفرجل، ويسيبون الماء تحت أشجاره، ويوقدون في ظلمة الشهر قشور البيض ويطلقونها في الماء، ويعلقون قشور النارنج موقدة في الأشجار، ويضربون الخيام في بستان الحاجب ويقطعون فيه أوقاتاً من اللذة والانشراح يعجز الوصف عنها».

ونحن إذا عرفنا هذه النواحي من حياة دمشق لا نستغرب قول ابن عنين يتشوق إلى بلده:

بلاد بها الحصباء در وتربها عبير وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق وصح نسيم الروض وهو عليل

اصفراراً في وجوههم، ولما عرف أن الهواء الفاسد هو السبب أمر أن يفتش عن مكان نقي الهواء يتخذ معسكراً لهم، فاتخذ معسكر الكوفة. ثم بنيت المدينة التي تحمل الاسم نفسه بعد ذلك بمدة قصيرة.

ونحن إذ نروي رغبة عمر في ألا يفصل بينه وبين المسلمين ماء، نود أن نلاحظ أن كل المدن التي نشأت في صدر الإسلام في العراق كانت غربي الفرات أو دجلة، مثل الكوفة والبصرة وواسط. ونعتقد أن ثمة أمرين يفسران هذه الخطة: أما الأول فالناحية الصحية وهي التعرض لهواء الصحراء الجاف، وهو الذي يغلب على تلك الأماكن، فلو كانت المدن شرقي النهر كان هواؤها رطباً؛ أما الثاني فهو هذه الطبيعة البدوية التي كانت ترشد الفاتحين والغزاة والقواد في ذلك العصر وهو أن يكونوا على آخر حجر من الصحراء وأول مدر من العراق. وهذا الأمر على بساطته يسهِّل على البدوي أن ينتقل من خيمته إلى المدينة، وبذلك تبقى المدينة على اتصال بالأم التي يأتي منها، الحين بعد الحين، مدد من العنصر النشيط. فكانت المدينة هناك، كما يقول ابن خلدون، لها ضواح من البادية فيها مادة يفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها. وبذلك تعمر المدينة حتى بعد انقراض الدولة التي أنشأتها.

أما تخطيط المدينة في الإسلام فلم يكن له قواعد موحدة، ذلك أن إنشاءها كان يتأثر بالمدن الموجودة في ذلك الصقع نفسه. فالبصرة مثلاً كانت مقسَّمة خمسة أقسام تسمى بالأخماس، نزلت في كل خمس منها قبيلة، وجعلوا عرض شارعها الأعظم ستين ذراعاً وهو المربد، وجعلوا عرض كل زقاق سبع أذرع، وجعلوا وسط كل خمس رحبة فسيحة مربطاً للخيول؛ وبنيت بيوتها بالقصب أولاً ثم خيف الحريق فبنيت باللبن. وأمر الكوفة يشبه أمر البصرة.

وقد مر بنا ذكر الغاية التي من أجلها بنى عقبة بن نافع القيروان، وكانت طريقته أن اختطّ بها المسجد، ثم دار الأمارة، ثم بيوت الجند. وبناء المسجد أمر أساسي في كل بلد بناه المسلمون.

يمثل بناء بغداد والقاهرة درجة خاصة من العناية الفنية التي سمحت بها الأحوال الخاصة التي أحاطت بهاتين المدينتين. أما بغداد فقد عني المنصور بنفسه بأمرها. كانت مستديرة يبلغ قطرها نحواً من ثلاثة آلاف متر إذا اعتبر سورها الخارجي حدا لها، وقد اختطت بالرماد أولاً، إذ وضعت كتل من القطن مغموسة بالنفط على الأرض واحترقت، ثم حفر الخندق الدائري. وقسمت أربعة أقسام متساوية، وجعلت للمدينة أربعة أبواب يبعد الواحد منها عن الآخر ربع دائرة تماماً. وليس من شك في أن هذه الخطة كانت أمراً جديداً في الإسلام. ويعزو بعض المؤرخين هذه الفكرة، إلى تأثر المنصور بفن البناء الفارسي. وكان المسجد والقصور في مركز المدينة. وقد استقدم المنصور المهندسين ومهرة العمال من أقطار العالم العربي. وعمل في بناء بغداد مائة

التجارية المتركزة حول السوق - يمكن أن تضيف حياة متحضرة على خير ما عرف العالم القديم. حياة أساسها استغلال الأراضي في الزراعة وجمع الماء خلف السدود لإروائها وتوسيع مدى عمل الإنسان فيها، واستثمار سفوح الجبال في زراعة الفواكه، بل والتنقيب عن الثروة المعدنية في باطن الأرض. كل هذه الأعمال عنوان حياة حضرية قوامها سكنى المدن وتجمع الناس والتعاون بينهم، وتنظيم العمل، وتبادل المنافع والمرافق. وهذه صنعاء ومأرب وغيرهما من مدن اليمن تشهد بأن أهل تلك البلاد كانوا يعيشون في المدينة والقرية، لا في الخيام وبيوت الشعر. وهذا سد مأرب هو كما قال فيه الشاعر:

رخام بنتــه لهــم حميــر إذا جاء مــواره لــم يــرم
فأروى الـزروع وأعنابهــا على سعة ماؤهم إذ قسم

وكانت للعرب قبل الإسلام مدن أخرى في مشارف الشام والعراق. كانت لهم البتراء وبصرى وتدمر والحيرة، مدن قامت حيث مرت طرق القوافل، فكانت مراكز للتجارة، وكانت فضلاً عن ذلك مراكز للمدنية. فثمة الشوارع الجميلة والأعمدة البديعة النقوش والهياكل الفخمة. وهذه المدن التجارية اعتمدت حياتها على مرور المتاجرين منها، فلما انقطع سيلهم لسبب من الأسباب أفل نجم المدينة، وخربت، ولم يبق منها أو من بعضها على الأقل، إلا الأطلال التي تشير إلى أيام الثروة والرخاء.

هذه نظرة عامة إلى ألوان الحياة من حيث تجمع الناس في بلاد العرب قبل الإسلام. فلما نزل الإسلام بين العرب وغيَّر حياتهم هذا التغيير الذي نعرفه، والذي حملهم من قفار بلاد العرب إلى سهول الهند وجبال طوروس وشواطىء البحر المتوسط، وسواحل المحيط الأطلسي، كان طبيعياً أن يتغير لون حياتهم، ونظام معيشتهم، وطرق توزيع السكان. فقد احتلوا بلاداً كانت للحياة الزراعية فيها قبلهم دولة، وفتحوا أقطاراً كانت تجارتها راسخة، ونزلوا أصقاعاً ثبتت صناعتها على غير الزمن. وكانت المدن فيها معروفة مأهولة، وحياة المدينة عماد تنظيمها السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

انتقل العرب إلى محيطهم الجديد، ونقلوا معهم مثلهم العليا الجديدة التي جاء بها الإسلام، ولغتهم الحية الناضجة التي نزل بها القرآن، ونشاطهم وحيويتهم وعواطفهم. ومزجوا ذلك بأدب الفرس وعلم اليونان وإدارة الرومان، فخرج للعالم من كل ذلك المدنية الإسلامية العربية التي انتشرت بدورها من المدن التي عمرها العرب.

وهذه المدن التي ازدهرت في العصور العربية المختلفة كان بعضها مما بنته الأقوام السابقة، فسكنه العرب وأصلحوه وإن كان قد أهمل أو تهدم، وبعضها مما أنشأه العرب من جديد. وهذا هو النوع الذي أريد أن أتحدث عنه، وأنا واثق من أن المجال لا يتسع لهذا البحث كله، ولذلك فإنني أنوي أن أعرض للأمر من نواحيه العامة.

منحدرين ومصعدين». واشتهر أهل البصرة بالأسفار التجارية إلى كل الجهات حتى ضرب المثل بهم فقيل «أبعد الناس نجعة في الكسب بصري وخوزي. ومن دخل فرغانة (في الشرق) والسوس الأقصى (في الغرب) فلا بد أن يرى فيها بصريّاً أو خوزيّاً».

والفسطاط، وهي اليوم آثار دارسة، كانت إلى قبل بناء القاهرة عظيمة متسعة، إذ لم تلبث بعد أيام عمرو بن العاص أن أصبح فيها عشرون من الخطط. ثم اتسعت حتى بلغ طولها على ضفاف النيل ثلاثة أميال. وقد قال فيها الشريف العقيلي:

أحن إلى الفسطاط شوقاً وإنني ... لأدعو لها ألا يحل بها القطر
وهل في الحيا من حاجة لجنابها ... وفي كل قطر من جوانبها نهر
تبدَّت عروساً والمقطم تاجها ... ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

ولسنا نقصد أن نتابع نمو المدن الإسلامية في عصورها المختلفة، فهذا أمر تضيق عنه الكتب، بل الحديث المقتضب. ولعل فيما أشرنا إليه الكفاية.

والمدينة تمثل في حياة الدولة العربية المبكرة دوراً كبير الأثر من الناحية القومية. فقد كانت عصبية عرب الجاهلية قبلية محضة، فلما جاء الإسلام صارت حياتهم أساسها الدين ومثله. واهتم الأمويون بالعصبية العربية القومية وبتعريب الإدارة، وكانت اللغة العربية قد انتشرت في كثير من الأصقاع، خصوصاً في المدن التي بناها العرب. ولما عمر العرب المدن وسكنوها حلت عصبية المدينة مكان عصبية القبيلة حتى إننا نرى أبناء القبيلة الواحدة في البصرة يقاتلون إخوانهم من القبيلة نفسها في الكوفة. ففي وقعة الجمل كانت الحرب بين البصرة والكوفة، فلما نشب القتال تصدرت قبائل اليمن البصرية لقبائل اليمن الكوفية، ونزلت قبائل مضر إلى مضر وربيعة إلى ربيعة. وكذلك في معركة صفين، وهي بين أهل الشام وعلى رأسهم معاوية وبين أهل العراق وقائدهم علي. فلما التحم القتال استحث علي من معه من القبائل على إخوانهم في معسكر عدوه.

على أنه لما عني الأمويون بالدولة العربية على أساس عروبة اللغة والنسب والفكر والأدب والشعر، أصبحت المدن مراكز لهذه الحركة التي لم يكتب لها عمر طويل لأن الدولة الأموية قضت سريعاً. أما في زمن العباسيين فقد أصبحت العواصم والمدن الكبرى مركزاً للتعريب الفكري والعقلي والعلمي.

والمدينة العربية، شأن كل مدينة في العالم القديم والحديث، كانت مركز الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية: فيها قامت المدارس ونشأت الجامعات وعقدت مجالس الأدب والمناظرة. وفي هذه الحلقات المختلفة نضجت الحياة العقلية الإسلامية العربية وأتت ثمرها. ومن هذه المدن في العراق وسورية ومصر وصقلية والأندلس انتشرت الآراء والأفكار التي نقلت أوروبة من عقلية القرون الوسطى إلى النهضة الحديثة. هذه هي الخدمة التي قدمتها المدينة العربية وهي شبيهة بما قامت

يسمونها الثغور أو العواصم، كانت أكبرها ملطية. وقد كانت الغاية من هذه أن يقيم فيها الجند في فصل الشتاء، حتى إذا بدت طلائع الصيف قاموا منها بحملات عسكرية ضد البزنطيين. وهذه بقيت معسكرات. والحق أن العرب لم ينشئوا هنا مدناً جديدة، لكنهم عمروا بلداناً كان العصر قد أناخ عليها بكلكله فتهدمت وعفت آثارها.

ومما يلفت في حياة المدينة في العالم الإسلامي أن كل دولة قامت اتخذت لها عاصمة جديدة. فقد كانت المدينة عاصمة النبي الكريم وعاصمة خلفائه الراشدين حتى انتقل عليّ إلى الكوفة. فلما قامت دولة الأمويين اتخذت دمشق عاصمة لها. ودمشق أقدم من الأمويين، لكن دمشق العربية أموية المولد والنشأة، وهو الأمر الذي حافظت عليه دمشق إلى يوم الناس هذا. أما العباسيون فلم يتخذوا مدينة قديمة خاصة وإنما أنشأ المنصور بغداد لتكون عاصمة للفكرة الجديدة والخلافة الجديدة والملك الجديد. فكانت بغداد في اختيار مكانها وتخطيطها وسكانها ممثلة للحركة التي عرفها العالم الإسلامي على أيدي العباسيين. ومثل عمل العباسيين في العراق، عمل الفاطميين في مصر. فقد كانت المهدية عاصمتهم حتى فتح جوهر مصر وبنى القاهرة عاصمة الدولة الجديدة. ونحن لا ننكر أن المدينة الجديدة أقيمت على مقربة من عواصم مصر الإسلامية السابقة كالفسطاط والعسكر والقطائع، لكن بناء القاهرة كان إعلاناً للناس بأن عهداً جديداً قد انبثق فجره في مصر. وهكذا كانت كل من بغداد والقاهرة حصناً للدولة التي قامت بإنشائها ورمزاً لسياستها.

على أن إنشاء المدن وانتقال الناس إليها واستقرارهم فيها، وعنايتهم بالصناعة والتجارة أمر طبيعي متصل بنوازع الحضارة، ونمو الملك واتساعه. فكلما اتسعت رقعة الدولة وانتشر الأمن في ربوعها، وتقارب الناس في مصالحهم وتعاونوا في سبيل الجماعة، كان نشوء المدن أمراً ضرورياً. وعندها يتحتم على أولياء الأمر أن يتعهدوا هذه الحركة ويوجهوها توجيهاً صالحاً يحول دون اضطراب الأمور فيها. وقد انتبه الأمراء والخلفاء إلى ذلك، فعني سيف الدولة بالمدن في مملكته على نحو ما حدث في بنائه عينتاب، واهتم الأمويون بقرطبة ووجه بنو الأحمر عنايتهم إلى غرناطة. كما عني الخلفاء ببناء المدن التي كانت الغاية فيها المتعة والسرور، مثل سر من رأى (سامراء) والمتوكلية والزهراء والزاهرة. وهذا أشبه شيء بالحدائق الغناء، والقصور الفسيحة التي تبنى في العالم المتمدن اليوم. وكان إنشاء هذه المدن في عصر نمت فيه ثروة العالم الإسلامي، وبلغت حضارته الأوج، فأصبحت مدنه ومدارسه يتعلم فيها العالم المعروف عندئذٍ.

والمدن العربية التي أنشئت في صدر الإسلام تعين موقعها بنسبة الغاية منها. فقد كان عمر يعنى بصحة جنده ويحب ألا يحول بينه ماء، وعلى هذا الأساس بنيت البصرة والكوفة والفسطاط. وقد روى المؤرخون أن نفراً من جند العراق وفد على عمر، فرأى

عملية في البيمارستانات أي المستشفيات والمراصد.

كان المسجد أول دار للعلم كما قلنا قبلاً. لكن ذلك لم يطل. فقد لوحظ أن المناقشة قد تؤدي إلى الخروج عن الأدب الذي تجب مراعاته لبيت الله، فخرج الناس إلى غيره لمثل هذه المحاولات. وكان ذلك في القرن الرابع الهجري. وفي زمن نظام الملك الوزير السلجوقي، أي في القرن الخامس الهجري، بنيت المدارس الرسمية. لكن قبل ذلك كان قد بنى الخلفاء والأمراء دوراً للعلم والحكمة، كانت تحوي كل منها مكتبة تفتح لطلاب العلم وأهله، وبعضها يجري فيها أرزاق على المشتغلين بالعلم، وبعضها كانت مراكز للنقل والترجمة. ونلاحظ أن منذ أواخر القرن الرابع الهجري كان لكل جامع كبير مكتبة. وكانت هذه المكتبة يغلب أن تسمى «خزانة الحكمة». ثم زيد التعليم على هذه الخزائن. فمن ذلك ما روى ياقوت في الإرشاد أن أبا القاسم الفقيه الموصلي، أسس داراً للعلم في بلده وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم، ووقفها على طلاب العلم، فلم يمنع أحد من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب، وكان من المعسرين، أعطاه ورقاً وورقاً. وكان أبو القاسم نفسه يجلس فيها، ويجتمع إليه الناس فيملي عليهم شعره وشعر غيره وحكايات وطرفاً من الفقه.

وتلا فترة خزائن الحكمة هذه عصر زهت فيه دور للعلم كانت مراكز للبحث، وفي مقدمتها بيت الحكمة البغدادي ودار العلم القاهرية. أما الأول فقد أنشأه الرشيد وعظم شأنه في زمن المأمون، ثم تضاءل بعده. وقد استخرج المرحوم الدكتور خليل طوطح أن الفلسفة والعلم كانا الموضوعين الرئيسين في برامج دروسه. على أن رسالة بيت الحكمة الأساسية كانت ترجمة الكتب اليونانية إلى العربية على يد ابن ماسويه وابن اسحق. وقد كان سلم خازن بيت الحكمة في زمن المأمون. وممن حاضر فيه الخوارزمي.

وأما دار العلم القاهرية فقد أنشئت في زمن الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ. وأمر فحملت إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة «ودخل سائر الناس إليها يقرأون وينسخون، وأقيم لها خزّان وبوابون ورتب فيها قوم يدرسون للناس العلوم». وقد روى المقريزي أخبار دار العلم هذه. ومن طريف ما وصل إلينا على يديه ميزانيتها. فقد كان ينفق عليها مائتان وسبعة وخمسون ديناراً في العام الواحد، منها تسعون ديناراً ثمن الورق وثمانية وأربعون ديناراً أجرة الخازن وخمسة عشر ديناراً للفراشين والباقي للحبر والأقلام ولمرمة الكتب والأستار ولطنافس الشتاء وثمن الماء.

أما المدارس التي عرفها الشرق الإسلامي فيما بعد، فأهمها النظامية في بغداد التي أنشأها نظام الملك السلجوقي وكان الغرض منها نشر المذهب الشافعي، ولذلك كان اتجاهها دينيّاً فقهيّاً قبل كل أمر آخر. وتمثل النظامية دوراً جديداً في المدرسة الإسلامية من حيث إشراف الدولة عليها إشرافاً تاماً. فقد كانت نفقاتها من الخزانة

ألف عامل وتم بناؤها سنة ١٤٥هـ.

أما القاهرة فقد وضع جوهر أساسها في الليلة التي دخل فيها الفسطاط (١٧شعبان ٣٥٨ / ١٧ تموز ٩٦٩) .بنى جوهر قصر الخليفة وأقام حوله السور، ثم اختطت القبائل التي كانت مع جوهر خططاً وحارات حول هذه المنطقة. وجاء بناء الأزهر متأخراً عن بناء القاهرة قليلاً، ذلك أن جوهراً رأى ألا يفاجىء المصريين بتغيير في مذهبهم السني، فاكتفى بمساجدهم حتى استوثق من قوة جند الخليفة الفاطمي فبنى الأزهر، وبدأ ينشر الدعوة الشيعية.

ولسنا نريد أن نعرض في هذا الحديث القصير إلى المدن التي اختطها الخلفاء والملوك والأمراء للترف والبذخ والسرور، والتي قامت وقد بلغت الدول الإسلامية غاية في الثراء واتساع الرقعة والنعيم الحضري، فقد كان طبيعيّاً أن تبلغ من الجمال والأناقة ما بلغته الزهراء وغرناطة.

على أنه يتعين علينا أن نلقي نظرة عجلى إلى السكان الذين نزلوا هذه المدن عند إنشائها، ذلك لأن هذه المسألة كبيرة الأهمية في توضيح الكثير من نواحي النشاط الفكري والعقلي والسياسي بل ومن نواحي الخصومات التي عرفت عن كثير من المدن العربية والإسلامية في عصورها المختلفة. ونحن نرى أن الكوفة والبصرة والفسطاط قد سكنها أول الأمر الجند الذين عسكروا فيها ومن انضم إليهم من قبائلهم، فكانت البصرة يسكنها الأزد وتميم بكر وعبد القيس وأهل العالية أي بطون قريش. ونزل الفسطاط بنو يشكر وبنو الأزرق وغيرهم. ولما نزل أهل برقة القاهرة اختطوا حارة البرقية. وكان سكان واسط العراق جند الحجاج الشامي، لكن هذا الحال لم يدم. فسرعان ما هبط البصرة أتراك نقلوا إليها من بلاد ما وراء النهر، كما نقل منهم جماعة إلى واسط. ونحن نعرف أن سياسة نقل السكان كانت مما يلجأ إليه في سبيل القضاء على الفتنة، ولا بد أن مدن العراق الجديدة نالها منهم نصيب، وقد كان سكان سامراء بادىء ذي بدء أتراكاً هم جند المعتصم وحرسه.

وأكثر ما يكون اختلاط الناس في المدن التجارية. فالبصرة والقيروان مثلاً اختلط فيها السكان بحكم الموقع التجاري، وإن كان الاختلاط أكثر في الأولى منه في الثانية بسبب قربها من البلاد المختلفة الأجناس. ويمثل نمو البصرة نمو المدينة العربية التجارية. فقد بلغ عدد سكانها سنة خمسين للهجرة، أي بعد بنائها بجيل واحد، ثلثمائة ألف. واتسعت عمارتها في أيام الأمويين حتى بلغت مساحتها وضواحيها ستة وثلاثين ميلاً مربعاً، ثم زادت ثروتها في أيام العباسيين لاجتماع التجار فيها، وكانت تجارتها تمتد إلى الهند والصين وأقصى المغرب والحبشة. وقد قال ابن حوقل في وصف متنزهاتها: «وهي موصوفة بالمجالس الحسنة، والمناظر الأنيقة، والميادين العجيبة، والفواكه البديعة، والبرك الفسيحة، لا تخلو من المتنزهين، ولا تعرى من المتطرقين،

بالله.. وبها لكل مذهب إيوان. (ويكون) جلوس المدرّس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط، ويقعد عليه المدرس وعليه السكينة والوقار، لابساً ثياب السواد معتماً وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه. وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة».

ويقول ابن الفرات: إن كل أنواع الكتب المختلفة كانت موجودة في مكتبة المدرسة المستنصرية.

وكان للقاهرة نصيب في حفظ التراث العلمي العربي الإسلامي مثل نصيب بغداد، إن لم يزد عليه. فقد كان هنا الأزهر، من أقدم جامعات العالم الموجودة الآن. أنشىء الأزهر سنة ٣٧٨هـ (٩٧٢م) لنشر الدعوة الشيعية. لكنه لم يلبث، بعد زوال الخلافة الفاطمية، أن أصبح مركزاً للدراسات الفقهية واللغوية، فيه أربع مدارس لكل من المذاهب الأربعة واحدة. ومع أن الأزهر معروف عنه أنه جامعة دينية قبل كل شيء، فعندنا رواية عن عبد اللطيف البغدادي أنه حاضر في الطب في الأزهر في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

وقد ازدهرت دور العلم في الأندلس في عهد العرب. فكانت مكتبة صاحب الأندلس في القرن الرابع الهجري يتألف فهرسها من أربع وأربعين كراسة، في كل منها عشرون ورقة. ولم يكن بها سوى أسماء الكتب. ومع أننا لا نعرف إلا الشيء اليسير عن جامعة قرطبة التي بلغت شأوها في زمن عبد الرحمن الناصر والحكم، فهذا اليسير الذي وصل إلينا يدلنا على الدور الذي لعبته في توجيه الحياة الفكرية في الأندلس، وتهيئة الجو العلمي للترجمة من اللغة العربية إلى اللغات الأوروبية التي تمت في أسبانية في القرون التي تلت ذلك. وكان طلابها يعدّون بالمئات ويفدون إليها من أفريقية وأسبانية وبقية أوروبة. ولم يقتصر التعليم فيها على العلوم الدينية واللغوية، بل تناول مواضيع الطب والرياضيات والفلسفة، وفروعاً أخرى من العلم. وكان من كبار أساتذتها أبو بكر بن معاوية والقالي صاحب الأمالي وابن القوطية.

وأنشئت جامعة أخرى كبيرة في غرناطة في أواسط القرن الثامن الهجري وكان يوسف الناصر أول من درَّس بها.

ومن طريف أخبار دور العلم في أسبانية ما وصل إلينا عن مدرسة طليطلة التي أنشأها الفونس الحكيم في القرن الثالث عشر الميلادي. فقد بنى مدرسة وعيّن رئيساً لها أبا بكر الريقوتي من أعلم أهل زمانه، فكان يحاضر طلابه في أرض مملكة قشتالة الأسبانية في جميع أنواع العلوم باللغة العربية. وهذه المدرسة ظهرت فيها أول جماعة من التراجمة الذين نقلوا من العربية إلى اللاتينية وغيرها من علوم أهل الأندلس، وخصوصاً الفلك. فهذه الجامعة العربية اللاتينية كانت حجراً أساسياً في نشر الحركة العلمية في أسبانية ومن ثم في أوروبة.

به المدينة اليونانية والرومانية للتمدن.

والفرق بين أثر الحضارة اليونانية والرومانية وأثر الحضارة الإسلامية في البلاد هو أن هذه الحضارة كانت وسيلتها اللغة العربية التي انتشرت في المدينة والريف. ولذلك تركت وحدة روحية قومية لا سبيل إلى التغلب عليها.

٢. في دور العلم الإسلامية

كانت دار العلم في مقدمة الأمور التي عني بها المسلمون. وكان المسجد أول مكان اتخذ لتعليم القرآن الكريم والحديث الشريف؛ فكان أول دار علم في الإسلام. والحديث عن دور العلم في الإسلام حديث طريف لا أطمع في أكثر من إجماله الآن. وكلي أمل في أن أثير رغبة القراء الكرام إلى تقصي أخبار هذه المؤسسات، لعلهم يظفرون ببعض المتعة التي ظفرت بها وأنا أقرأ.

ليس من السهل أن يحمل المرء أخبار المدارس التي انتشرت، في مدى ستة قرون أو أكثر، من الهند إلى البرانيه، ومن طوروس إلى عدن، في مثل هذه الصفحات القليلة. هذه المدارس التي كانت مناراً يهتدي به في ظلمات الجهل الحالكة، التي كانت تكتنف العالم الخارج عن نطاق الدول الإسلامية في القرون الوسطى.

بدأت دور العلم في الإسلام في المشرق بالعناية بالقرآن وعلوم الشريعة واللغة. فلما تعرَّف العرب إلى علم اليونان وفلسفتهم ومنطقهم نقلوا عنهم، وعربوا ما أخذوه، فصار جزءاً من حياتهم الفكرية، إن تعليماً وإن كتابة. فصارت دور العلم تعنى بالرياضيات والطب والفلك عنايتها باللغة. فلما طغى الأتراك وغيرهم على المشرق، منذ القرن الخامس الهجري، اتخذوا من بعض دور العلم وسيلة للدعاية السياسية والتقرب من الجماهير، فضعفت الحياة العلمية في دور العلم، وغلب عليها لون من التعليم الديني والسياسي. أما في الأندلس، التي لم تتعرض لمثل هذا المؤثر، فقد بقيت دور العلم فيها مراكز للبحث العلمي الخالص إلى آخر عهد العرب في البلاد، بل قد استمرت التقاليد العلمية التي أورثتها جامعات تلك البلاد حية هناك قروناً عديدة، بعد زوال الملك العربي.

تركزت دور العلم في عواصم الإسلام الكبرى في بغداد والقاهرة وقرطبة، وفي عواصم الأقاليم والدويلات التي نشأت في ظلال الخلافة العباسية مثل نيسابور، ودمشق والقدس والقيروان وغرناطة وإشبيلية.

كانت علوم الدين واللغة تشمل، بالإضافة إلى ما يتبادر إلى الذهن مباشرة، التشريع والتاريخ والمسائل المالية، لأن كل هذه كانت جزءاً أساسيّاً لازماً لفهم القرآن الكريم وأحكامه في الإدارة والجزية والزكاة. وكانت العلوم الأخرى، التي سميت العلوم المنقولة، تشمل الرياضيات والطب والفلك. وهذان العلمان كانا يدرسان دراسة علمية

ولم تكن أسواق العرب في الجاهلية تقتصر على التجارة، بل كان يقصدها طالب الأمن يستجير، ويؤمها طالب الفداء يحمل فداء أسيره فيفكه. وقد عقد الصلح غير مرة بين المتخاصمين في الأسواق. لكن المزية التي اختص بها كثير من أسواق العرب الحولية الكبيرة، هي كونها سوقاً أدبية. فقد كان الشعراء يتناشدون فيها شعرهم، متنافسين متنافرين، وكانت قبائل العرب تحتفل بالشاعر الفائز احتفالاً كبيراً.

وصلت إلينا أخبار كثيرة عن هذه الأسواق وأيامها، وعما كان يدور فيها من المفاخرة والمعاظمة والمنافرة، وعمن كان يقصدها من الماجنين والمتماجنين. وهذه الأخبار ثروة أدبية، في قراءتها متعة ولذة. وعكاظ أشهر الأسواق التي حفظ لنا التاريخ والأدب أخبارها. ولا ريب في أنها كانت أكبر الأسواق التي وصلت إلينا أنباؤها، وهي تربو على عشرين. فقد كانت مع تجارتها الواسعة، مجتمعاً أدبيّاً له محكمون تضرب لهم القباب ويتناشد الشعراء بين أيديهم وحكمهم لا يحتمل تجريحاً. بل ثمة من كان يأتي عكاظ ببناته بقصد تزويجهن. وفيها كان الرجل يستلحق آخر بنسبه، أو يتبرأ منه. ويلي عكاظ في المقام المجنة وذو المجاز. وهذه الأسواق الثلاث كانت تقام في موسم الحج.

أما بعد الإسلام، وبعد الفتوح التي مكّنت العرب من أقطار من الأرض غنية واسعة، فقد كفوا مؤونة الترحال، ومصروا الأمصار وسكنوا المدن. فصار لهم في الأسواق الثابتة غنى عن الأسواق الموسمية. لكن الذي نود أن نوجه النظر إليه هو أن بعض الأماكن القريبة من منازل البداوة بقيت لها نزعة بدوية؛ فكانت تقام في نواحيها الأسواق التي يؤمها أهل الترحال المستمر، يبيعون فيها ويشترون، شأن سوق المربد في البصرة، وأسواق بزاعة إلى الشرق من حلب، وسوق زاوية ابن أدهم في جبلة. والسوقان الأخيرتان روى خبرهما المتأخرون من الرحالين العرب. فالأول ذكره ابن جبير، والثاني حدثنا عنه ابن بطوطة.

والمربد سوق البصرة، أنشىء لما مصرت في زمن عمر بن الخطاب. والأصل فيه أنه متسع للإبل تعرض فيه للبيع. واتسعت تجارته في عهد الراشدين فشملت السلاح والثمر، وصار مركزاً للدباغين. ثم أصبح على عهد الأمويين سوقاً عامة تتخذ فيها المجالس، وتتعدد الحلقات يتوسطها الشعراء والرجاز، ويؤمها الأشراف، فيتناشدون ويتهاجون ويتشاجرون. وهكذا جمع المربد إلى التجارة، الأدب والسياسة. فقد نزلت فيه عائشة أم المؤمنين بعد مقتل عثمان تطالب بدمه، وتؤلب الناس على عليّ. وكان والي البصرة لعلي ينقض قولها، حتى وقعت بين الفريقين معركة بالحجارة، تضرر منها كثيرون. وفي المربد تهاجى جرير والأخطل والفرزدق. أما في العصر العباسي فكان المربد مدرسة يقصدها الشعراء كبشار وأبي نواس ليأخذوا عن أعرابه الملكة الشعرية. وكان يؤمه اللغويون، يأخذون عن أهله ويدوّنون ما يسمعون. لكن هذه السوق

الرسمية كما كان اختيار أساتذتها ومدرسيها بيد الخليفة. ومن كبار من درَّس فيها الغزالي وبهاء الدين صاحب كتاب المحاسن اليوسفية.

زار ابن جبير المدرسة النظامية في القرن السادس وترك لنا صورة طريفة للتدريس بها قال: «فأول من شاهدنا مجلسه منهم من فقهاء بغداد الشيخ الإمام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية والمشار إليه بالتقدم في العلوم الأصولية. حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة... فصعد المنبر وأخذ القراء أمامه في القراءة على كراسي موضوعة، فتوقوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونغمات مطربة.. ثم اندفع الشيخ الإمام المذكور (القزويني) فخطب خطبة سكون ووقار وتصرف في أفانين من العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل وإيراد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتكلم على معانيه. ثم رشقته شآبيب من المسائل من كل جانب فأجاب وما قصَّر، وتقدم وما تأخر. ودفعت إليه عدة رقاع فيها فجمعها جملة في يده وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ منها وحان المساء فنزل وافترق الجمع. «فكان مجلسه مجلس علم ووعظ». وحضر ابن جبير مجلسه يوم الجمعة التالي. والذي يخيل إلينا أن هذا المجلس، الذي كان أسبوعيّاً، لم يكن يقصد به طلبة العلم النظاميون فحسب، بل كان من نوع المحاضرات العامة والمناقشات التي تقوم بها الجامعات لآن رغبة في تيسير العلم للجمهور. والظاهر أن مثل هذه المجالس كان شائعاً في المدارس الكبرى، فضلاً عن الدروس التي كان الطلاب يتلقونها بانتظام.

وفي السنة ٦٣١ هـ (١٢٣٤م) أنشأ الخليفة العباسي المستنصر بالله المدرسة التي عرفت باسمه. وقد ترك لنا الرحالون المؤرخون أخبار المستنصرية فحصلنا لها على صورة تكاد تكون تامة. فقد فاقت كل ما سبقها من حيث فخامة البناء وسعته، وجمال التأسيس وأناقته، وكان فيها أربعة أروقة كبيرة كل واحد منها خاص بواحد من المذاهب السنية الأربعة. ولكل فقيه رواق خاص يرأسه. كان عدد طلابها ثلاثمائة، موزعين بالتساوي على الأروقة الأربعة وكلهم كانوا يتلقون العلم بالمجان، ويعطى لكل طالب دينار واحد بالشهر ينفق منه على شؤونه. أما الطعام فكان يتناوله الجميع من مطبخ المدرسة الكبير. لكن العناية بالطلاب لم تقتصر على الأكل والمسكن بل كانت الأقلام والمحابر والأوراق والمصابيح تقدم لهم، وكان في المدرسة مكان تحفظ فيه المياه الباردة للشرب. أضف إلى كل هذا الحمام الذي كان مفتوحاً للطلبة، والمستشفى التابع للمدرسة لمعالجة المرضى منهم، وكان له طبيب خاص.

والظاهر أن المدرسة المستنصرية سلمت من يد هولاكو لما احتل بغداد ودمرها سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م). فقد رآها ابن بطوطة بعد ذلك بنحو مائة عام ووصفها بقوله: «وفي آخر سوق الثلاثاء المدرسة المستنصرية ونسبتها إلى أمير المؤمنين المستنصر

وسوق الأرز في عكاء، وسوق الوراقين ـ وجميع هذه الأسواق، أسماؤها تابعة لسلعها ومتاجرها.

وكانت الأسواق مراكز للصناعة كما كانت للتجارة، ومن ثم كانت أسواق للجوهريين وللدباغين وللصيادلة وللغزالين وللمرجان وغير ذلك. وقد بنى عضد الدولة بن بويه بمدينة كازورن داراً جعلها لنسج الكتان. وكان دخلها في كل يوم عشرة آلاف درهم (أي أقل من أربعمائة جنيه بقليل).

وفي رحلة كل من ناصر خسرو وابن جبير وابن بطوطة وغيرهم، وفيما تركه جغرافيو العرب، كثير من المعلومات عن الأسواق الإسلامية وأوصافها. فلما وصل ابن جبير إلى الإسكندرية استوقف نظره «حسن وضع البلد واتساع مبانيه»، حتى إنه ما شاهد بلداً أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى، ولا أحفل، وأسواقه في نهاية الاحتفال، وتأتي أهليه الخيرات من جميع البلاد، فيتصرفون في الليل بالبيع والشراء كتصرفهم به في النهار». وكان في الإسكندرية اثنا عشر ألف دكان. ويصف ابن بطوطة رحلته من الإسكندرية إلى مصر ويذكر مروره بسمنود والمحلة الكبرى ثم يقول: «والأسواق متصلة بين الإسكندرية ومصر، وهذه الأخيرة مركز الوارد والصادر». وكانت بغداد مشتبكة أرضها بالعمارة وأسواقها رائجة التجارة ـ فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، إذ إنها في نهاية الاحتفال، وقد جمعت أخلاط التجار، إلا سوق الصاغة فيها فإنه منفرد بالفرس وقد بلغوا من الإجادة أنهم رصعوا الزجاج بالجوهر. وكانت سوق الجواري فيها الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات. وكان الدلال ينادي بمن حوله من المشترين ويصف الجواري بما لهنَّ من الأوصاف الحسان وهم يتسابقون إلى شرائهن.

ويرى المحدثون من الباحثين أن الإسكندرية وبغداد كانتا تعينان أسعار الحاجيات على الأقل فيما يختص بالكماليات.

تركت دمشق أثراً جميلاً في نفس ابن جبير فقال عنها: «وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد، وأحسنها انتظاماً، وأبدعها وصفاً، ولا سيما قيسارياتها، وهي مرتفعات كأنها الفنادق، مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور، وكل قيسارية منفردة بصيغتها وأعلاقها الجديدة. ولها كذلك سوق تعرف بالسوق الكبيرة، تجتاز المدينة من باب الجابية إلى باب شرقي».

وكان البيع والشراء يتمان بالمقايضة. وتغلب المناداة بأسماء البضائع قبل الاتفاق كالذي عرفناه عن سوق الجواري ببغداد، والمناداة بسرمين على ما رواه ياقوت وابن بطوطة. وقد روي أن المقايضة كانت أساساً للبيع والشراء في بعض الأحوال. كما أن ياقوت يذكر بلدة بالمغرب الأقصى اسمها البصرة عرفت «ببصرة الكتان» لأن البيع والشراء كان أساسه قماش الكتان. لكن استعمال النقود كان القاعدة الشائعة والغالبة في الاتجار في العالم الإسلامي. بل إن التعامل المالي في العالم الإسلامي عرف نظام

ودور العلم الإسلامية كانت في الغالب غنية لأن بانيها كان يقف عليها الأرض أو العقار أو جزءاً من ضريبة المدينة. فقد كانت حصن الأكراد في سورية موقوفاً دخلها على المدارس.

وحفظ لنا المؤرخون أخبار دور العلم والمدارس، ونحن إذا ضممنا ما ذكروه إلى بعضه البعض وجدنا أنها قاربت الأربعمائة عدداً. فقد كان في القدس مثلاً أربع وأربعون مدرسة، وفي بغداد أربعون وتجاوزت مدارس دمشق المائة. وقد كان في دمشق في القرن السادس الهجري مثلاً ثلاث مدارس فنية: اثنتان للطب وواحدة للهندسة. وكان في حلب مدرسة للطب.

كانت المدارس الحكومية تعطى فيها للأساتذة مرتبات ثابتة، لكن بعض العلماء كان يرفض أخذ الأجر ثمناً للتعليم. فقد امتنع النووي في القرن الثامن أن يأخذ رزقاً لتدريسه في المدرسة الأشرفية. وكان بعض العلماء يورق ويأكل من كسب يده. إلا أن التعليم صار على توالي الأيام مهنة يعيش منها المشتغلون بها. وقد أورد الجاحظ أن النحوي العروضي كان يكتفي بستين درهماً أجرة للتعليم في الشهر. أما مؤدبو الأمراء فلم يرضوا بأقل من ألف درهم كيحيى بن ثعلب. وكان لعبد الله بن طاهر مؤدب رزقه في الشهر سبعون ديناراً، وذلك في القرن الثالث الهجري. وكان ابن دريد في القرن الرابع الهجري يتناول أربعين ديناراً في الشهر.

٣. الأسواق الإسلامية

الأسواق، بما يعرض فيها من سلع، وبمن يؤمها من متاجرين، تصف الدرجة التي وصلت إليها التجارة خاصة والحياة الإقتصادية عامة. فإذا رافق الاتجار لون من ألوان الأدب، واحتفال بالمواسم الدينية، كانت الأسواق صورة للحياة العقلية والاجتماعية كذلك. وكلما تعددت الأسواق وازداد ما يعرض فيها وكثر التبادل فيها، دل ذلك على وجود النشاط في حياة الجماعات. وركود الأسواق، على العكس من ذلك، دليل على اضطراب شؤون المعاش والأحوال المالية وغيرها في الدولة.

وإذا عرضنا الأمم والشعوب وجدنا أن البدوي منها له أسواق موسمية تقام في أماكن معينة، مرة في السنة أو الفصل أو الشهر أو الأسبوع. والسنوي أو الفصلي منها أعم وأشيع لارتباطه بالإنتاج الزراعي والحيواني. أما الجماعات الحضرية فتغلب عليها الأسواق الثابتة، لأن لكل مدينة أسواقها تباع فيها مصنوعاتها وغلاتها وتحمل إليها ما تحتاج إليه مما تنتجه البلاد الأخرى.

كان العرب في الجاهلية تغلب على تجارتهم الأسواق الموسمية وكانت تقوم في ملتقى الطرق التجارية الكبرى، فيفد إليها الناس من أطراف الجزيرة مثل عكاظ ودومة الجندل، وقد يأتيها قوم من الخارج مثل أسواق عدن وصنعاء.

أنهار يانعة، إلى سهول منبسطة غنية، إلى جبال مرتفعة إلى صحار قاحلة. فكان من الطبيعي أن تتنوع موارد الرزق في ربوعها، وتتعدد مصادر العيش في أنحائها. وتبع ذلك اختلاف في وسائل العيش وطرق الارتفاق وسبل تنظيمها. ولست أريد أن أتعرض لهذه النواحي المتعددة، كما أنني لست أنوي أن أتناول النظام المالي في الدولة الإسلامية بالدرس والتحليل. وكل غرضي أن أنقل شذرات مختلفة عن تنظيم المعايش تسقطتها في كتب الأدب والتاريخ.

لم يلبث العرب بعد استقرارهم في البلاد التي فتحوها أن سكوا النقود. ولذلك كانت المعاملات التجارية في أنحاء العالم الإسلامي، إلا في النادر من الأحوال، تعتمد على النقد لا على المقايضة. وقد كانت الدنانير الذهبية والدراهم الفضية معاً أساس النقد. وبذلك كان النظام النقدي ثنائيّاً. هذا بالإضافة إلى فروق محلية في وزن الدرهم. ويمكن القول إجمالاً إن الدينار كان ينقص قليلاً عن نصف الجنيه الإنكليزي الآن. أما الدرهم فكان يساوي أربعين مليماً أو أربعين فلساً. والدرهم المقصود هنا هو الدرهم النقرة الذي يكون ثلثاه من الفضة الخالصة وثلثه من النحاس. وهو الدرهم الذي كان استعماله شائعاً في ديار الشام ومصر حول القرن الخامس الهجري. أما الدرهم المقري فقد كانت قيمته ثلث قيمة الدرهم النقرة. وقد عرف الناس النقود النحاسية في زمن مبكر في الدول الإسلامية، لكنها لم تكن في وقت من الأوقات تعد أساساً للمعاملة التجارية. على أنها راجت في السوق في القرن الثامن الهجري وكانت ثمانية وأربعون فلساً منها تساوي درهماً واحداً. لكنها لم تلبث أن فقدت قيمتها فأصبحت تقوّم الحاجيات بوزن من النقود على أنها نحاس لا على أنها نقد.

وكانت وحدة الوزن متباينة في أنحاء العالم الإسلامي. ففي مصر كان الرطل مائة وأربعة وأربعين درهماً على نحو ما نعرفه اليوم. أما في ديار الشام فقد اختلف وزنه بين ستمائة درهم في دمشق وصفد وطرابلس وبين سبعمائة وعشرين درهماً في حلب وحماة وغزة. كذلك كانت وحدة المكاييل تختلف في القطر الواحد عنها في القطر الآخر اختلافاً بيّناً، وإن كانت تتفق قطراً قطراً مع المستعمل منها إلى الآن. فالقدح والويبة والأردب كانت مستعملة في مصر، والمد والكيل والغرارة كانت شائعة في ديار الشام منذ القرن السادس الهجري.

والتحدث عن تنظيم المعايش يقتضي الإشارة إلى أسعار الأشياء وكسب الناس، لبيان العلاقة بين ما يكسبه المرء ومقدار ما ينفقه على شؤون العيش الضرورية. ودفعاً للبس والتكرار اللذين يمكن أن ينشآ من ذكر أثمان وحدات الكيل والوزن المختلفة، رأيت أن أورد الوزن بالكيلوغرام، والسعر بالفلس. فالسعر المألوف للقمح في المشرق

كانت فذة في الإسلام. فلسنا نعرف لها شبيهاً. ولا شك أن موقع البصرة على أول مدر من العراق وآخر حجر من الصحراء، كان له تأثير كبيرفي طبعها بهذا الطابع الخاص.

أما أسواق المدن الثابتة، فقد كانت تتأثر في شكلها وتنظيمها وتنسيقها، وموقعها وسلعها وأعمالها بالإقليم والمدينة. والمكان الذي تحتله الأسواق من المدينة كان يتوقف على عوامل كثيرة. فدمشق وحلب، وهما من المدن القديمة، بقيت أسواقهما حيث كانت قبلاً. ولما بنى أبو جعفر المنصور بغداد صير الأسواق في طاقات مدينته من كل جانب. فلما قدم عليه وفد ملك الروم أمر أن يطاف بهم في المدينة، ثم دعاهم، وسألهم كيف وجدوها، فقال رئيسهم «رأيت أمرها كاملاً إلا في خلة واحدة، فإن عدوك يخترقها متى يشاء وأنت لا تعلم، لأن الأسواق فيها، وهذه غير ممنوع عنها أحد». فزعموا أن المنصور أمر عندها بإخراج الأسواق إلى الكرخ. وكانت الدكاكين في أسواق مصر وغرب آسية تمتد على طول الشارع من الجانبين، على كل جانب صف منها. وكانت أسواق حماة أيام أن زارها ابن جبير حسنة التنظيم، بديعة الترتيب والتقسيم. أما في المدن الإيرانية فكانت الأسواق الجزء التجاري المنفصل عن المدينة الرسمية وعن القلعة. ولذلك جمعت الدكاكين في مكان واحد.

وبنى عضد الدولة أسواقاً عند مدينة جامع رام هرمز غاية في الحسن، كانت نظيفة مبلطة مبربقة مظللة.

والغالب على الأسواق أن تسقف وتظلل. فقد روى ابن جبير أن أسواق منبج فسيحة، وسككها متسعة، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعاً وكبراً، وأعالي أسواقها مسقفة. وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر المدن في شمال سورية. وقال عن أسواق حلب إنها مسقفة بالخشب. وروى فون سوخم الفرنسي أن عكا كانت في القرن الثالث عشر (قبل وقوعها بأيدي المماليك) ذات أسواق مظللة بالحرير وغيره من ثمين القماش.

كان يراعى في اختيار أسماء الأسواق أمور كثيرة. فهناك سوق الثلاثاء في شرقي بغداد. وهذا يدل على أن السوق كانت أصلاً أسبوعية. ومثل ذلك سوق القيروان التي كانت تعقد في يومي الأحد والخميس. وربما كان قوام كثير من هذه الأسواق في بادىء الأمر دكاكين لا تمتلىء وتعمر إلا في يوم السوق، ثم تغيرت طبيعتها واحتفظت باسمها. وثمة الأسواق التي كانت تسمى باسم منشئها، فقد سميت «سوق أسد» بالكوفة نسبة إلى أسد بن عبد الله القسري، وسميت سوق وردان بالفسطاط باسم منشئها. وهناك الأسماء التي ترجع إلى القوم النازلين فيها، كسوق البربر في الفسطاط. ولكن الغالب على التسمية أن تعرف السوق باسم السلعة التي تغلب عليها أو العمل الذي يتم فيها. ومثل ذلك سوق الخشب في الإسكندرية، وسوق الصرافين بأصفهان، وكان يجلس فيها مائتان منهم، وسوق العطارين والبزازين في جامع رام هرمز، وسوق الرقيق في سامراء،

أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمرهم. وكان العريف أحد المشتغلين بالبيع في السوق. فإن عريف الخباز بمصر كان له دكان يبيع الخبز بها. ويظهر من قصة رواها المقريزي أن العريف كان يعزله الوزير إذا وقع الظن أنه أنكر شيئاً. ونعرف مما نقله الأستاذ متز أن تجار الكتان في دلتا مصر لم يكونوا يستطيعون أن يبيعوا ما ينسج بأسمائهم إلا للسماسرة الذين تعيّنهم الحكومة. أما في فارس فقد كان غسل خيوط الكتان في نهر معين يقتضي الحصول على إذن من ناظر النهر. ومتى تم النسيج عيّن السماسرة الرسميون ثمن الأقمشة وختموا اللفائف وسلموها إلى التجار الأجانب.

ومن هذا القبيل ما عرف عن نظام الاحتكار الذي لجأ إليه الفاطميون والمماليك. وكان القصد منه زيادة واردات السلطان. فمن المعروف عن الفاطميين مثلاً أنهم منعوا تصدير الأقمشة المصرية إلى العراق. وقد يكون أساس هذا العمل سياسيّاً لا اقتصادياً. لكننا نرى من الجهة الأخرى، أنه لكثرة التمر في كرمان كان يعطى للمصدرين جوائز. فكان الحمّالون يحملون التمر مناصفة إلى خراسان ويعطى السلطان كل جمل ديناراً.

وعرف صنّاع العالم الإسلامي ما يصح أن نسميه «الماركة المسجلة». فقد كانت البلاد المشهورة تنقش على ما يصنع فيها (عمل مدينة كذا). على أن ذلك لم يمنع الغش، إذ صنعت بعض البلاد ثياباً غير جيدة، وكتبت عليها اسم بغداد لتروج سوقها.

وبين الوظائف التي يذكرها القلقشندي نوع يسميه «الوظائف الصناعية» وقد أورد أنها كانت معروفة في مصر والشام. ومنها رئيس الجراحية والكحالين والأطباء. ونحن نرجح أن هذا النوع من التنظيم كان يرمى منه إلى تنظيم الناحية الخلقية الأدبية أكثرمن تنظيم الناحية المعاشية. أضف إلى كل ذلك نوعاً من النقابات التي كانت تشرف على العمل والتجارة التي نشأت عن تجمع الحرف وأصحابها في أجزاء معينة من السوق، فاقتضى الوضع ضبطاً وتنظيماً خاصين. ولعل أصحاب البنوك كانوا في مقدمة من نظّم النقابات هذه.

وثمة ناحية من نواحي تنظيم المعايش في الإسلام حرية بعنايتنا، ولا سيما في هذه الأيام، هذه الناحية هي الوسائل التي لجأ إليها أهل الحل والعقد في تفريج أزمات القحط وما يتبع ذلك من ارتفاع الأسعار. وقد وقعت على أخبار كان رواها المقريزي عن مصر، رأيت في نقلها لذة ومتعة ودرساً عمليّاً.

أصاب مصر في أواخر القرن الرابع الهجري قحط كان سببه نقص ماء النيل، فارتفعت الأسعار وازدحم الناس على الخبز يطلبونه ويقتتلون من أجله. فجمع متولي السعر خزاني الغلال والطحانين والخبازين، وقبض على ما بالساحل من الغلال وأمر أن لا تباع إلا للطحانين، وسعَّر القمح والشعير والحطب وسائر الحبوب والمبيعات. وضرب جماعة بالسياط وشهر بهم وشدد في ذلك وكبست عدة حواصل وفرق ما فيها

الصرافين. فلم يكن عن الصراف غنى في سوق البصرة. وكان العمل أن كل من معه مال يعطيه للصراف ويأخذ منه رقاعاً ثم يشتري ما يلزمه ويحول ثمنه على الصراف، ولا يعطون شيئاً غير الرقاع ما داموا في المدينة.

وتدلنا الأمثلة التالية على الأموال الطائلة التي كانت تروج في الأسواق. وكان في القرن الثالث الهجري بمدينة همدان خان كبير تباع فيه الأمتعة المختارة قدر صاحبه دخله منه بمليون ومائتي ألف من الدراهم. واشترى تاجران في عصر المأمون غلات العراق فأشرفا على ربح عشرة ملايين درهم ثم اتضع السعر فخسرا ستة ملايين درهم. وروى ياقوت أنه كان في قيسارية البز في حلب في القرن الخامس للهجرة عشرون دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون ألف دينار، وأن ذلك مستمر منذ عشرين سنة.

وكان المتحصل من مكس القمح بدمشق في أواخر القرن الثامن الهجري يزيد على مليون من الدراهم. وكانت رسوم الذبح في طرابلس الشام في الوقت عينه ثمانين درهماً في اليوم الواحد.

وروى ابن بطوطة لطيفة عن أسواق سرمين بين حماة وحلب، جاء فيها: «وبها (أي سرمين) يصنع الصابون... ويجلب إلى مصر والشام.. وأهلها سبابون يبغضون العشرة.. حتى إنهم لا يذكرون لفظ العشرة، وينادي سماسرتهم بالأسواق على السلع فإذا بلغوا إلى العشرة قالوا تسعة وواحد».

ونقل المحدثون عن الثعالبي أن أكثر ما كان يباع من الثمار في الأسواق البطيخ، ولذلك كانت سوق بيع الفاكهة تسمى دار البطيخ. وروي أن شاعراً مدح وزيراً بقصيدة أكثر فيها من ذكر الفاكهة فسماها عامة بغداد «دار البطيخ» تشبيهاً لها بمكان بيع الفواكه.

وزار بتاحيا اليهودي الأوروبي العراق في عصره الزاهي وروى أن التاجر إذا وصل إلى بغداد أو غيرها، وضع أمتعته في بيت رجل من الناس ورجع، فيحملون هذه الأمتعة إلى جميع الأسواق للبيع. فإذا دفع فيها ثمنها المقرر كان بها، وإلا حملوها إلى جميع السماسرة، فإن رأوا أنها أقل قيمة باعوها بهذا الثمن القليل وكل هذا مع غاية الأمانة والذمة.

ولعل من أغرب ما روي عن طريقة الإتجار هو أنه كان وراء سجلماسة من أرض المغرب وبأقاصي خراسان مما يلي الترك قوم يتبايعون من غير مشاهدة ولا مخاطبة. فيتركون عند كل متاع ثمنه من أعمدة الذهب. فإذا جاء صاحب المتاع اختار الذهب وترك المتاع إذا وافقه، وإلا أخذ سلعته وترك الذهب.

٤. تنظيم المعايش في الإسلام

الرقعة التي رفرف عليها علم العرب والإسلام متباعدة الأطراف، متسعة الأرجاء، متباينة الوضع الجغرافي، مختلفة العامل الطبيعي: من أودية وارفة الظلال إلى أحواض

منه قوماً وجب عليهم القتل وأفاض عليهم ثياباً واسعة وعمائم مدورة وطيالس سابلة وجمع تجار الغلة والخبازين والطحانين وعقد مجلساً عظيماً وأمر بإحضار المحبوسين فدخل واحد منهم في هيئته العظيمة حتى إذا مثل بين يدي الوالي قال له «ويلك ما كفاك أنك خنت السلطان واستوليت على مال الديوان إلى أن أخربت الأعمال ومحقت الغلال فأدى ذلك إلى اختلال الدولة وهلاك الرعية. إضرب يا غلام رقبته»، فضربت في الحال. واستدعى الوالي آخر فقام إليه الحاضرون من التجار والطحانين والخبازين وقالوا «أيها الأمير! في بعض ما جرى كفاية ونحن نخرج الغلة وندير الطواحين ونعمر الأسواق بالخبز ونرخص الأسعار على الناس». وبعد ضراعة قبل ما قدموه ووفوا بالشرط.

كان فلسين للكيلو الواحد ومثله للأرز. أما الشعير فكان ثمن الكيلو الواحد فلساً ونصف الفلس. وكان ثمن كيلو اللحم نحو أربعين فلساً. وثمن الدجاجة يتفاوت بين ثمانين فلساً ومائة من الفلوس. أما في العراق فقد كان القمح أغلى. لذلك بلغ ثمن الكيلو الواحد ثلاثة فلسات. وروي أن ثمن حمل حمار من القصب في مراكش كان نحو خمسة عشر فلساً. هذه هي الأسعار العادية. أما في الأزمات مثل القحط أو انتشار الوباء أو الحروب فقد كانت الأسعار ترتفع خمسة أضعاف. وقد بلغ ثمن رغيف الخبز في زمن المستنصر الفاطمي في مصر خمسة عشر ديناراً.

أما الأجور والمكاسب فقد ترك لنا السلف الكثير من أخبارها. ومما لا ريب فيه أن العمال ومن جرى مجراهم لم يكونوا يتمتعون ببحبوحة من الرزق. فقد كان النساج يتناول في بعض الأحيان نصف درهم في اليوم. وقد نقل الأستاذ متز عن صاحب مصارع العشاق أن الرجل وزوجه في عصر الرشيد كان يكفيهما ثلاثمائة درهم في السنة للعيش المتوسط. أما أصحاب الأرضين فكانوا يؤجرون الفدان الواحد من الأرض الجيدة بأربعين درهماً في السنة في أوقات الرخاء. وقد روى لنا القلقشندي الكثير عن أرزاق أصحاب الوظائف نكتفي الآن بالإشارة إلى بعضها. كان رزق الوزير في مصر خمسة الآف دينار في الشهر ينفق منها على حاشيته. وكانت وظائف القصر المختلفة تتفاوت أرزاقها بين عشرة دنانير ومائة دينار في الشهر. وكان الشيخ الكبير في مجلس السلطان بتونس يتقاضى نيفاً وألفاً وثلاثمائة درهم نقرة في الشهر الواحد. وروي أن محتسب مصر كان يتقاضى ثلاثين ديناراً في الشهر وأن قضاة مصر تباينت مرتباتهم بين الثلاثين والمائة والستين من الدنانير، وأن معلم النحو والعروض كان يتناول ستين درهماً في الشهر. ولا شك أن هذه الأرقام تعيننا على تفهم العلاقة بين الإيراد والمصروف. وقد نالت المعاملات التجارية والمالية حظاً وافراً من العناية والترتيب. فكانت السفاتج وسيلة نقل الأموال من مكان إلى آخر. فقد روى ناصري خسرو أنه لما ترك أسوان حمل معه سفتجة من صاحبه هناك إلى وكيله في عيذاب فدفع له المبلغ لقاءها. وقد بلغت قيمة بعض السفاتج والصكوك ثلاثين أو أربعين ألفاً من الدنانير. هذا إلى الخانات العديدة التي كانت مقصد التجار الغرباء يضعون بضائعهم ودوابهم في أسفلها وينامون في أعلاها، ويقفلون غرفهم بأقفال رومية. وبعض هذه الفنادق كان فيه أربع أو خمس طبقات. ولعل فنادق الإسكندرية كانت من أكبر ما عرف في العالم الإسلامي.

ولم تكن الدولة تشرف على تنظيم الحياة الاقتصادية العامة، لكننا مع ذلك نجد أن أولي الأمر كانوا يراقبون شؤون المعاش مراقبة دقيقة في بعض الأحيان، رغبة في ضبط الأمور ومنع الغش. فمن ذلك أن المكاييل والموازين كانت خاضعة لمراقبة المحتسب الشديدة. وقد روى المقريزي أنه كان في كل سوق من أسواق مصر على

قد أهمل من مقاصد المصطلح أموراً لا يسوغ تركها كالبطائق واللطفات»، وأما الثاني فقد ترك الوصايا والأوصاف ومراكز البريد وأبراج الحمام. ثم يجمل القول في الإثنين «فصار كل من الدستورين منفرداً عن الآخر بقدر زائد، ولم تقع الغنية بأحدهما عن الآخر، وإن كانا في معنى واحد».

وقد وضع «صبح الأعشى» على درجتين: أما الأولى فكانت لما استقر المؤلف بديوان الإنشاء إذ أنشأ مقامة بين فيها حاجة الإنسان إلى حرفة يتعلق بها ومعيشة يتمسك بسببها. وأوضح أن الكتابة هي الصناعة التي لا يليق بطالب العلم من المكاسب سواها. وفضل فيها كتابة الإنشاء، ورجحها على كتابة الأموال. ثم نبه فيها على ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد، وضمّنها أصول الصنعة وقوانين الكتابة. لكن القلقشندي أدرك بعد حين أن مقامته «وقعت موقع الوحي والإشارة، ومالت إلى الإيجاز فاكتفت بالتلويح عن واسع العبارة». فرأى أن يفصلها ويوضح أبوابها فأتبعها بمصنف مبسوط اشتمل على قواعدها وتكفل بحل رموزها. فكان من هذه المحاولة أن أخرج المؤلف صبح الأعشى في صناعة الإنشاء.

الكتاب مرتب على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة بناها بالإجمال على التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وأصله في الإسلام وانتشاره بعد ذلك في العالم الإسلامي. وتناول ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من الأمور العلمية والعملية. فالخط وتوابعه ولواحقه فيه موضحة، ومعرفة المسالك والممالك فيه مبوبة، ومشاركة المكاتبات والولايات والألقاب والأسماء والكنى والمواضع فيه مبوبة، هذا إلى وصف الولايات وطبقاتها والبيعات والعهود، وذكر الوصايا الدينية وما يكتب فيها، والإقطاعات وأصلها في الشرع وعقود الأمانات. وتكلم فيه عن البريد ووضعه في الجاهلية والإسلام وبيّن معالمه ومواضعه. والحق أنه على قول مصححه المرحوم الأستاذ محمد عبد الرسول إبراهيم: «كتاب ممتع ودائرة معارف أدبية كبرى، يشهد لمؤلفه بالفطنة والذكاء وطول الباع في فن كتابة الإنشاء».

ونحن ندرك أن صبح الأعشى لا يمكن أن يلم به المرء في حديث أو اثنين. لذلك نكتفي بناحية أو اثنتين من نواحيه المتعددة نتناولها بشيء من التفصيل. فنحن نجد أن الفصل الثالث من الباب الأول من المقالة الأولى يتناول معرفة الأزمنة والأوقات وأيام الشهور والسنين على إختلاف الاسم فيها، وتفاصيل أجزائها والطرق الموصلة إليها ومعرفة أعياد الأمم. وهو يتناول كل هذه بتفصيل من الناحية الشرعية والناحية الفلكية، فيحكي المذاهب المختلفة ثم يلاحظ في دقة أن اليوم ينظر إليه باعتبارين. «أما الطبيعي فالليل من لدن غروب الشمس إلى طلوعها وظهورها من الأفق، والنهار من طلوع نصف قرص الشمس إلى غيبوبته. وأما الشرعي فالليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني والنهار منه إلى غروب الشمس. وتراه ينتقل من الأيام إلى الشهور فيذكر أنواعها ويقارن الشمسية منها بالقمرية، ويعين ابتداء القبطية منها

على الطحانين بالسعر الرسمي. فنرى من هذا أن وزير الحاكم بأمر الله لجأ إلى التسعيرة الجبرية وحظّر توزيع الغلال إلا على الطحانين ليحول دون الاستغلال. وأصبحت التسعيرة الجبرية وسيلة يلجأ إليها في الأزمات في مصر في القرون التالية لزمن الحاكم بأمر الله.

ثمة وسيلة أخرى لجأ إليها الوزير المصري في سبيل تخفيف الويلات في القرنين الرابع والخامس للهجرة، وهي ختم الغلال. فقد أمر الحاكم بأمر الله بفرض ما يحتاج إليه من الغلال على أرباب الغلات وخيّرهم بين أن يبيعوا بالسعر الذي يقرره بما فيه الفائدة المحتمة لهم وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم ولا يمكنهم بيع شيء منها إلى حين دخول الغلة الجديدة. فاستجابوا لقوله وأطاعوا أمره وانحل السعر. ثم وقع غلاء في أيام الآمر بأحكام الله الفاطمي في القرن الخامس للهجرة فختم القائد أبو عبد الله بن فاتك على مخازن الغلال وأحضر أربابها وخيّرهم بين أن يبيعوا على سعر الدولة وبين أن يختم على غلاتهم. فمن أجاب باع ومن رفض ختم على ما عنده. ونظر في حاجة السوق وفي المقدار المتيسر الحصول عليه وباع ما نقص إلى الطحانين بالسعر من غلات ديوان الدولة. فلما دخلت الغلة الجديدة بيعت الغلة المختوم عليها بسعر قليل وأصاب أصحابها خسارة كبيرة.

وقد كان من عادة السلطان بمصر أن يحتفظ باحتياطي من الحبوب، القصد منه تفريج الأزمات إذا أصاب البلاد الجدب. فكان يبتاع له في كل سنة غلة بمائة ألف دينار وتجعل متجراً. وفي زمن اليازوري جعل الخشب والصابون والعسل بين ما يخزن في متجر السلطان. واليازوري هذا هو الذي حاول أن ينظم توزيع الغلات في مصر بحيث لا يظلم مشتريها ولا يثري بائعها بغير حق. فقد كان المعاملون، أي عمال النواحي يطالبون الفلاحين بدفع الخراج قبل وقته، فإذا عجزوا ابتاعوا منهم غلاتهم، قبل إدراكها بالثمن البخس، ثم يقوّمونها على الديوان بالسعر الرائج ويربحون الفرق بين السعرين. فأمر اليازوري عمال النواحي بتحرير مبلغ الغلة الذي وقع الابتياع عليه وتقويم ما وزنه التجار للديوان وختم المخازن وإخباره بمبلغ ما يحصل تحت أيديهم. ثم جهّز المراكب وحمل الغلال إلى المخازن السلطانية بمصر وقرر أثمان الحبوب وسلم إلى الخبازين حاجتهم لعمارة الأسواق، ووظف ما يحتاج إليه لبلدان القاهرة ومصر وغيرهما واستمر تدبيره هذا عشرين شهراً حتى قتل.

ولعل الغلاء الذي وقع بمصر أيام المستنصر كان شر ما عرفه القطر الشقيق في زمن الفاطميين. وقد ترك لنا المقريزي صوراً حية ناطقة عما أصاب الناس من الضنك وانعدام القوت، حتى بلغ ثمن الرغيف الواحد خمسة عشر ديناراً. ومع ذلك فقد وجد من حاول أن يستغل الضنك ويربح على حساب المعوزين والمحتاجين. فأنذر المستنصر الوالي بقطع رأسه إن لم يخفف البلاء. فذهب الوالي إلى الحبس وأخرج

والعباسيين. وينقل عن أبن الأثير وصفاً لموكب الخليفة المقتدر لما وصلت رسل ملك الروم إلى بغداد سنة (٣٥٠) إذ كان عدد العسكر مائة وستين ألفاً والحجاب كانوا سبعمائة والخدم سبعة الآف، هذا فضلاً عن أنواع الأسلحة والزينة والستور والبسط. فقد كان عدة البسط اثنين وعشرين الف بساط.

وشعار الخلافة وهي الخاتم والبردة والقضيب وثياب الخلافة والأعلام والخلع بألوانها مفصلة في هذا الباب. كما نجد تفصيل الوظائف الوزارية وغيرها كالحجابة وهي حفظ باب الخليفة والاستئذان للدخلين عليه، وولاية المظالم، والنقابة على ذوي الأنساب والقضاء والحسبة والولاية على المساجد. فإذا فرغ من ذكر الترتيبات عى ما عرفت قبلاً، أي قبل انتقال الخلافة إلى مصر، تخلص إلى ذكر ما أصابها بعد ذلك، فقال: «والذي استقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوض الأمور العامة إلى السلطان ويكتب له عنه عهد بالسلطنة ويدعى له قبل السلطان على المنابر، إلا في مصلى السلطان خاصة... ويستبد السلطان بما عدا ذلك، من الولاية والعزة وإقطاع الإقطاعات حتى الخليفة نفسه، ويستأثر بالكتابة في جميع ذلك».

ولست أشك في أن خاتمة كتاب صبح الأعشى هي أمتع فصول الكتاب كله. فهي تتناول الكلام على البريد ومطارات الحمام الرسائلي وهجن الثلج ومراكبه والمناور والمحرقات.

فمعنى البريد مسافة معلومة مقدرة باثني عشرميلاً وهي أربعة فراسخ. وقد كان البريد معروفاً عند الأكاسرة والقياصرة. أما في الإسلام فأول من وضعه معاوية وأحكمه عبد الملك. وقد أهمل أمره أواخر عهد الدولة الأموية وأوائل عهد العباسيين حتى عني به المهدي واتبعه في ذلك الرشيد فعاد إلى البريد أثره في تسهيل مهام الحكم. ومع ان البويهيين أهملوه ليحولوا دون الخلفاء وأخبار الأمصار، فقد أعاده السلاجقة وشمله الزنكيون بالعناية، فأعادوا له النجب المنتخبة.

كان للبريد ألواح من فضة مخلدة بديوان الإنشاء تحت أمر كاتب السر بالأبواب السلطانية منقوش على وجهي اللوح نقشاً مزدوجاً ما صورته «لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. ضرب بالقاهرة المحروسة». وعلى الوجه الآخر «عز لمولانا السلطان الملك الفلاني فلان الدين والدنيا خلد الله ملكه». وفي ذلك اللوح ثقب معلق به شرابة من حرير اصفر ذات بندين يجعلها البريدي في عنقه متى خرج إلى جهة من الجهات. فكل من رأى اللوح والشرابة علم أنه بريدي وبواسطة ذلك تذعن له أرباب المراكز بتسليم خيل البريد.

ومراكز البريد التي تقف فيها خيل البريد لتغييرها فرساً بعد فرس ليست كلها على المقدار المحرر ـ أي على بعد اثني عشر ميلاً ـ بل هي متفاوتة الأبعاد إذا ألجأت الضرورة إلى ذلك، تارة لبعد الماء، وتارة للأنس بقربة، حتى إنك لترى في بعض المراكز، البريد الواحد بقدر بريدين.

الشرق العربي في صبح الأعشى

١. المؤلف والكتاب

عاش القلقشندي في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع للهجرة، في عصر المماليك البرجية. ويمتاز هذا الوقت بالنضج في الحياة العلمية في مصر والشام والعناية بالمدارس ونواحي الحياة الفنية المختلفة. ولبعض المؤلفات التي وصلتنا من هذا العصر ميزة خاصة هي الإحاطة والشمول، أو ما يجوز أن نسميه كتابة الموسوعات. فقد اهتم المؤلفون بإخراج كتب تشمل اللغة والأدب والجغرافية والتاريخ وأصول الشرع والإدارة وقواعد المخطابات السلطانية، وغير ذلك مما يحتاجه أرباب الدواوين وأصحاب الوظائف والعمال. وكتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» في مقدمة هذه الموسوعات العربية التي خلفها لنا عصر المماليك.

المؤلف هو شهاب الدين أحمد القلقشندي، ولد في قلقشنده من أعمال قليوب في دلتا مصر، وأقام في الإسكندرية حيث تفقه ومهر، وتعانى الأدب وكتب في الإنشاء، وأجيز بالفتيا والتدريس ولم تكن سنه إذ ذاك تتعدى إحدى وعشرين سنة. وتصدر للإفادة فانتفع الكثيرون من علمه. ثم نزل القاهرة والتحق بديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية. وفي منصبه هذا ألف كتابه صبح الأعشى، وهو أشهر كتبه وأعظمها قيمة. على أنه وصلت الينا من مؤلفاته «ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر» وكتاب «الغيوث الهوامع» و«نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب».

والكتاب الذي نحن بصدده الآن هو صبح الأعشى. كتبه المؤلف وهو بديوان الإنشاء بمصر. وقد تناول الكاتب في خطبة الكتاب بالتفصيل الغاية التي من أجلها كتب وألف. وهذه الخطبة هي في الوقت ذاته نقد فني لمن سبقه من المنشئين، فهو يقول: «والمؤلفون في هذه الصنعة قد اختلفت مقاصدهم في التصنيف، وتباينت مواردهم في الجمع والتأليف. ففرقة أخذت في بيان أصول الصنعة وذكر شواهدها، وأخرى جنحت إلى ذكر المصطلحات وبيان مقاصدها... ولم يكن فيها تصنيف جامع لمقاصدها... بل أكثر الكتب المصنفة في بابها والتآليف الدائرة بين أربابها، لا تخرج عن علم البلاغة المرجوع فيها اليه، أو الألفاظ الرائقة فيما وقع الاختيار عليه». ثم يعرض القلقشندي لكتابين فينقدهما: الأول التعريف بالمصلح الشريف للمقرّ الشهابي بن فضل الله العمري، والثاني تثقيف التعريف لابن ناظر الجيش. فيقول عن الأول «إنه

أحمد الله تعالى على رواج سوق تأليفي ونفاق سلعته، والمسارعة إلى استكتابه قبل انقضاء تأليفه. حتى أرى قلمي التأليف والنسخ يتسابقان في ميدان الطرس إلى اكتتابه، ومرتقب نجازه للاستنساخ ويساهمان في ارتقابه، فضلاً من الله ونعمه، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

ولا بد لنا في مختتم هذا الحديث من الإشارة إلى أن الطبعة المتداولة من صبح الأعشى هي طبعة دار الكتب وهي في أربعة عشر جزءاً. ولا ريبة عندي، وعند من أتاحت له ظروفه أن يتعرف إلى صبح الأعشى، في أن هذا الكتاب في مقدمة الكتب التي وصلت إلينا من السلف الصالح.

٢ . مصر

نالت مصر من عناية القلقشندي الحظ الكبير. ولا غرابة في ذلك فهو مصري، ومصر كانت في ذلك الوقت مقر الخليفة والسلطان وفيها العاصمة ومنها تدار الأقطار التابعة للمماليك.

يبدأ المولف بحثه عن مصر بذكر فضائلها ومحاسنها، وخواصها وعجائبها وآثارها، ويعرض للنيل من مبدئه إلى مصبه، ويتابعه في زيادته ونقصه، ثم يتناول خلجان مصر وبحيراتها وزروعها ورياحينها ومواشيها ووحوشها وطيورها. فإذا انتهى من ذلك روى تاريخها مختصراً وما مر عليها من أدوار وانتقل إلى ترتيبها وإدارتها في عصره. وهنا تظهر قيمة صبح الأعشى كمصدر للتاريخ، على اختلاف اتجاه الكتاب. فهو يحدثنا عن المعاملات والأثمان والتنظيم الاقتصادي ومصادر الثروة، وسياسة الدولة المالية في دخلها وخرجها وهذه المسائل هي التي سنحاول تلخيصها في هذا الحديث.

فمصر «مع ما اشتملت عليه من الفضائل، وخصت به من المآثر، أعظم الأقاليم خطراً، وأجلها قدراً، وأفخمها مملكة، وأطيبها تربة، واخفها ماء، واخصبها زرعاً، واحسنها ثماراً، واعدلها هواء، وألطفها ساكناً. ولذلك ترى الناس يرحلون اليها وفودا، ويفدون عليها من كل ناحية، وقلّ ان يخرج من دخلها، أو يرحل عنها من ولجها، مع ما اشتملت عليه من حسن المنظر، وبهجة الرونق ولا سيما في زمن الربيع، وما يبدو بها من الزروع التي تملأ العين وسامة وحسناً، وتروق صورة ومعنى». وبعد أن يعدد نباتها ورياحينها وفواكهها يقول «وأما أصناف المطعوم ففيها ما يستطاب من الألبان والأجبان والعسل الذي لا يساوى حسنا ولا يشبهه غيره من سائر الأعسال، والسكر الكثيرمن المكرر والتبع والوسط والنبات، ومنها يجلب إلى أكثر البلاد».

وقد أقام القلقشندي زمناً في كل من القاهرة والإسكندرية فوصف المدينتين وصفاً خلاباً. فالقاهرة «قد اتسعت خططها وزادت العمارة حولها وصار ما هو خارج سورها أضعاف ما هو داخله... وهذه عمارتها تتزايد ومعالمها تتجدد حتى صارت على ما هي عليه في زماننا (أي زمن المؤلف) من القصور العلية والدور الفخمة والمنازل الرحيبة

بالنسبة إلى الشمسية. والسنة عنده إما طبيعية وهي القمرية، وإما اصطلاحية وهي الشمسية، ويتناول في هذه مصطلحات القبط والفرس والسريان ثم مصطلح المنجمين، ويوضح علاقاتها ببعضها البعض. ويعقد صاحبنا فصلاً في التوفيق بين السنين وعلاقة ذلك بالخراج والأعشار لارتباط المنتوج الزراعي بالسنين على اختلاف الاصطلاح. وهذا الفصل من خير ما عثرت عليه عند كتاب العرب عن الموضوع.

وإذ ينقلنا إلى الحديث عن الفصول نشعر أن المؤلف دقيق الاحساس رقيقه، هذا إلى طول باع في رواية الشعر الرفيع. فهو يتحدث عن الفصول ويروي فيها الأشعار والقصائد.

وتنال المواسم والأعياد حظها من عناية صاحبنا، فهو لا يترك منها موسماً أو عيداً إلا ويعين موعده ويرده إلى أصله.

المقالة الثانية من كتاب الصبح في المسالك والممالك. فيها تعرض المؤلف لذكر الأرض على وجه الإجمال فتعرف إلى شكلها وإحاطة البحر بها وأقاليمها الطبيعية وأنواع البحار، وحدثنا عن كيفية استخراج جهات البلدان والأبعاد الواقعة بينها. ثم بحث الخلافة ومن وليها من الخلفاء ومقراتهم وما انطوت عليه الخلافة من الممالك في القديم وما كانت عليه من الترتيب إلى عصره. ووصف وظائف أرباب الأقلام والسيوف، ثم تناول دول الأرض دولة دولة، فبدأ بالمملكة المصرية ومضافاتها ووضعها ومحاسنها وخواصها وعجائبها وزرعها ورياحينها ومطعومها وحيوانها وطيورها وقواعدها. ثم فصّل كورها ومدنها وأخبارها وملوكها جاهلية وإسلاماً، وترتيب احوالها في معاملاتها ونقودها وأنواع أراضيها ودواوينها وجيوشها ومواكب أمرائها وملوكها. وانتقل من المملكة المصرية إلى بقية أقطار العالم الإسلامي أولاً ثم إلى ما خرج عنه. وهو في أخباره وأنبائه دقيق الملاحظة، شديد العناية بإسناد ما ينقله عن غيره، سريع إلى النقد. فيقول مثلاً: «أما شكل الأرض فقد تقرر في علم الهيئة أن الأرض كروية الشكل... وقيل هي مسطحة وقيل كالترس وقيل كالطبل. والتحقيق هو الأول». ويحدثنا عن خطوط الطول والعرض ثم يلاحظ أن أكثر المعمور من الأرض إنما هو في النصف الشمالي والعمارة فيه فيما بين خط الاستواء إلى نهاية ست وستين درجة ونصف في الأرض. ويقسم المعمور من الأرض إلى أقاليم سبعة ينقلها وحدودها عن أبي الفداء.

يحظى البحر المتوسط بقسط وافر من عناية الكاتب، وهو يسميه، مثل بقية الجغرافيين المعاصرين له، بحر الروم، ولكنه يذكرنا أنه يسمى البحر الشامي أيضاً. فالمدن الموجودة عليه تذكر كلها، وتعين أعراضها وأطوالها وتبين المسافات التي تفصل بينها.

فإذا خلص الكاتب إلى الخلافة قدم لها بأخبار الفتوح باختصار ومر بمقرات الخلافة في المدينة والشام والعراق ومصر، لأن الذي يعنى به هو الخلافة على أنها نظام للحكم. فيروي لنا ما كانت عليه ترتيباتها في أيام الراشدين والأمويين

وصبح الأعشى غني بالصور الدقيقة التي يعرض فيها المؤلف للتنظيم المالي والإدارة في عصره. فالأموال الديوانية تقابل فيه ما نسميه موارد الدولة في أيامنا. وهذه مفصلة هناك، وهي مقسمة إلى شرعي وغير شرعي، والشرعي ما اقتضته ظروف الإدارة وأحوال العمران وتنظيم الملك الإسلامي. والأموال الديوانية الشرعية هي المال الخراجي وما يتحصل من دار الضرب بالقاهرة، والمواريث الحشرية وما يؤخذ من تجار الأوروبيين الواصلين إلى الديار المصرية بالبحر. وهذه الأنواع السبعة مبوبة كلها مبينة أحكامها. ومما يجدر ذكره هو أن المال الخراجي في الوجه القبلي أي الصعيد يدفع إلى بيت المال عيناً أي من غلات الأرض. أما الوجه البحري أي الدلتا فغالب خراجه دراهم. وكانت المعادن حكراً للسلطان. أما الأموال الديوانية غير الشرعية بالديار المصرية فهي المكوس، سواء في ذلك ما اختص بالديوان السلطاني وما كان تابعاً للإقطاعات.

فإذا رغبنا في التعرف إلى مصروفات السلطان وجدنا أن القلقشندي كفانا مؤونة البحث في مختلف الأماكن. فقد جمعها تحت عنوان عادة السلطان في إجراء الأرزاق. وهذه عنده على ضربين: الجاري المستمر والإنعام وما يجري مجراه. فالإقطاعات ورزق أرباب الأقلام من الضرب الأول. والخلع والتشاريف والخيول التي تهدى مرتين في العام للأمراء، والكسوة والحوائص والمأكول والمشروب من الضرب الثاني. والإقطاعات في هذه المملكة تجري على الأمراء والجند، وعامة إقطاعاتهم بلاد وأراض يستغلها مقطعها ويتصرف فيها كيف شاء، وربما كان فيها نقد يتناوله من جهات، وهو القليل، وتختلف باختلاف حال أربابها. أما رزق أرباب الأقلام فيتوقف مقداره على العمل. فالوزير له في الشهر مائتان وخمسون ديناراً. وإلى الإقطاعات والأرزاق توجد الرواتب الجارية لمن بالحضرة السلطانية من اللحم والتوابل والخبز والعليق والزيت والسكر والكسوة.

أما الخلع والتشاريف فقد نقل المؤلف عنها قول صاحب المسالك «ولصاحب مصر في ذلك اليد الطولى حتى بقي بابه سوقاً ينفق فيه كل مجلوب ويحضر الناس إليه من كل قطر، حتى كاد ذلك ينهك المملكة ويودي بمتحصلاتها عن آخرها».

أشار المؤلف إلى التغيير الذي أدخله صلاح الدين على ترتيب المملكة، ثم قال «وجاءت الدولة التركية (وهو يعني المماليك) وقد تنقحت المملكة وترتبت، فأخذت في الزيادة في تحسين الترتيب وتنضيد الملك وقيام أبهته. ونقلت عن كل مملكة أحسن ما فيها، فسلكت سبيله ونسجت على منواله حتى تهذبت وترتبت أحسن ترتيب، وفاقت سائر الممالك وفخر ملكها على سائر الملوك». وهذا الترتيب والتهذيب الذي يشير إليه القلقشندي هو التنوع والتعقيد في الإدارة الحكومية الذي اقتضته أحوال الدولة الإسلامية في القرن الثامن الهجري. ونحن ندرك هذا إذا تذكرنا الأمور التالية:

(١) كانت مصر فيها ثلاث نيابات: الإسكندرية والوجه القبلي والوجه البحري.

ويختم المؤلف حديثه عن البريد بذكر طرقه في مصر وبلاد الشام وما جاورهما. ثم ينتقل إلى ذكر الحمام الرسائلي. فيعدد أنواعه ويذكر ألوانه ويبين صفة الطائر الفاره. ويقص أخبار من اعتنى به من خلفاء بني العباس كالمهدي، وتنافس رؤساء الناس في العراق في اقتنائه، حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منه سبعمائة دينار وثمن البيضتين منه عشرين ديناراً. وكان عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب الرجال. وكان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العدل من اتخاذ الحمام والمنافسة فيها، والأخبار عنها والوصف لأثرها. وبعد أن يعرض المؤلف إلى إستخدام الحمام في الرسائل أيام زنكي وخلفائه والتصانيف عن الحمام الرسائلي، يروي أن العزيز ثاني خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه ما رأى القراصية البعلبكية، وأنه يحب أن يراها. فكان بدمشق حمام من مصر، وبمصر حمام من دمشق، فكتب الوزير بطاقة إلى دمشق يأمر فيها أن يجمع ما هناك من الحمام المصري ويعلق في كل طائر حبات من القراصية البعلبكية ويرسلها إلى مصر. فلم يمض النهار حتى حضرت تلك الحمام بما علق عليها من القراصية. فجمعه الوزير وطلع به إلى العزيز في يومه، فكان ذلك من أغرب الغرائب لديه.

وآخر فصل في صبح الأعشى يتناول نقل الثلج من الشام إلى مصر. فقد كانت له هجن تنقله في البر وسفن تنقله في البحر، حتى يصل إلى قلعة القاهرة. وقد كانت هذه المراكب ثلاثاً في السنة في أيام الملك الظاهر بيبرس، ثم أخذت في الزيادة حتى بلغت أحد عشر مركباً. والمراكب تأتي دمياط في البحر ثم يخرج الثلج في النيل إلى ساحل بولاق فينقل منه على البغال السلطانية ويحمل إلى الشرابخانة الشريفة. وقد جرت العادة أن المراكب إذا سفرت سفر معها من يتداركها من ثلاجين لمداراتها.

ومما حدث في زمن الدولة الناصرية استعمال الهجين لنقل الثلج، وكانت هذه الهجن تخرج من دمشق إلى الصنمين ثم إلى بانياس ثم إلى أربد ثم إلى بيسان فجنين فقاقون فاللد فغزة فالعريش فقطيا ثم منها إلى الصالحية فبلبيس. والمستقر في كل مركز ست هجن، خمسة للأحمال وهجين للهجان، تكون كل نقلة خمسة أحمال. ولا تستقر هذه الهجن بالمراكز إلا أوان حمل الثلج، وهي من حزيران (يونيو) إلى تشرين الثاني (نوفمبر). وعدة نقلاته إحدى وسبعون نقلة متقارب مدد ما بينها. ويجهز مع كل نقلة بريدي يتداركها ويجهز معها ثلاج خبير.

ليس الذي عرضنا له واستشهدنا به إلا القليل مما عند القلقشندي. وليس باستطاعتنا أن نفعل غير ذلك. فثمة فصول وأبواب لم نشر حتى إلى أسمائها كالفصول التي تناول فيها المؤلف الإيمان وأحكامها في الشرع وأثرها في المعاهدات، وتلك التي بحث فيها الخط ورسم الحروف وقواعد الكتابة وتطور الخطوط. وفي الكتاب مئات من الرسائل البليغة كان المؤلف كتبها في مناسبات مختلفة فاستشهد بها وضمنها كتابه.

أقبل الأدباء والمتأدبون على صبح الأعشى إقبالاً كبيراً قال فيه المؤلف: «لكني

نهاية الحسن والعظمة وجعل فيها خطبة وقرر فيها صوفية على عادة الخوانق ودروساً للأئمة، ونظم الشعر فيها، واقترح بعض الأكابر على المؤلف نظم شيء في المدرسة فقال:

وبالخليلي قد راجت عمارتها ... في سرعة بنيت من غير ما مهل
كم اظهرت عجباً أسواط حكمته ... وكم غدت مثلاً ناهيك من مثل
وكم صخور تخال الجن تنقلها ... فإنها بالوحا تأتي وبالعجل

ومواكب السلطان أو هيئآته كما يسميها القلقشندي تصور عظمته وفخامة حاشيته إلى درجة كبيرة، وتتناول مواكب الأكل والجلوس للنظر في المظالم وحضور صلاة العيدين والجمعة والركوب لكسر الخليج عند وفاء النيل.

«فأعظم أسمطة السلطان تكون بالايوان الكبير أيام المواكب. إذا خرجت القضاة وسائر أرباب الأقلام من الخدمة، مدّ السماط بالإيوان الكبير من أوله إلى آخره بأنواع الأطعمة المنوعة الفاخرة، ويجلس السلطان على رأس الخوان والأمراء يمنة ويسرة على قدر مراتبهم في القرب من السلطان. فيأكلون أكلا خفيفاً ثم يقومون ويجلس من دونهم طائفة بعد طائفة ثم يرفع الخوان. وأما في بقية الأيام فيمد الخوان في طرفي النهار لعامة الأمراء... ففي أول النهار يمد سماط أول لا يأكل منه السلطان شيئاً، ثم سماط ثان قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل، ثم سماط ثالث بعده، يسمى الطارىء، ومنه مأكول السلطان. وفي أخريات النهار يمد سماطان. وقد يؤتى بثالث. وأما في الليل فيبيت بالقرب من مبيت السلطان أطباق من أنواع المآكل المختلفة والمشروب الفائق، ليتشاغل أصحاب النوب بالمأكول والمشروب عن النوم».

وجلوس السلطان بدار العدل لخلاص المظالم تناوله المؤلف بما مؤداه أن من عادة هذا السلطان إذا كان بالقلعة في غير شهر رمضان أن يجلس بكرة يوم الاثنين بإيوانه الكبير المسمى بدار العدل، ويكون جلوسه على الكرسي الذي هو موضوع تحت سرير الملك. ويجلس عن يمينه قاضيان من القضاة الأربعة هما الشافعي والمالكي وعن يساره الحنفي والحنبلي. ويحضر مجلسه قضاة العسكر ومفتو دار العدل ووكيل بيت المال والناظر في الحسبة والوزير وأمراء المشورة، ويقف من وراء السلطان مماليك صغار... ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجَّاب لإحضار قصص أرباب الضرورات المساكين، وتقرأ عليه القصص. فما احتاج فيه إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه، وما كان متعلقاً بالعسكر تحدث فيه مع الحاجب وناظر الجيش ويأمر في البقية بما يراه.

وقد يركب السلطان لكسر الخليج عند وفاء النيل. وفي هذه الحالة يقتصر على السناجق... ويتوجه الموكب إلى المقياس فيمد هناك سماط للأكل وتكون حراقة السلطان قد زينت بأنواع الزينة وكذلك حراريق الأمراء وقد شحن البحر بمراكب المتفرجين حتى يأتي الجمع الخليج ويصل السد فيقطع بحضوره ويركب وينصرف إلى

والأسواق الممتدة والمناظر النزهة والجوامع البهجة والمدارس الرائقة والخوانق الفاخرة، مما لم يسمع بمثله في قطر من الأقطار، ولا عهد نظيره في مصر من الأمصار، وغالب مبانيها بالآجر، وجوامعها ومدارسها وبيوت رؤسائها مبنية بالحجر المنحوت، مفروشة الأرض بالرخام، ومؤزرة الحيطان به، وغالب أعاليها من أخشاب النخل والقصب المحكم الصنعة، وكلها أو أكثرها مبيضة الجدر بالكلس الناصع البياض ولأهلها القوة العظيمة في تعلية بعض المساكن على بعض، حتى إن الدار تكون من طبقتين إلى أربع طبقات بعضها على بعض، في كل طبقة مساكن كاملة بمنافعها ومرافقها، واسطحة مقطعة بأعلاها بهندسة محكمة وصناعة عجيبة». أما الأسكندرية فيقول المؤلف في وصفها «وهي الآن بالنسبة إلى ما تشهد به التواريخ من بنائها القديم جزء من كل، وهي مع ذلك مدينة رائقة المنظر، حسنة الترصيف، مبنية بالحجر والكلس مبيضة البيوت ظاهراً وباطناً كأنها حمامة بيضاء، ذات شوارع مشرعة، كل خط قائم بذاته كأنها رقعة الشطرنج. يستدير بها سوران منيعان، يدور عليهما من خارجهما خندق في جوانب البلد المتصلة بالبر، ويتصل البحر بظاهرها من الجانب الغربي مما يلي الشمال إلى المشرق... وبهما أبراج حصينة عليها الستائر المستترة والمجانيق المنصوبة». وبمثل هذا الأسلوب الظريف يصف المؤلف مراكز النيابات والولايات والموانىء التجارية على البحر الأحمر وغيره. وإن كنا نأسف لشيء، فنحن نأسف لأنه لم يذكر عدد السكان في هذه المدن، أو في مصر كلها.

ومع أن القلقشندي لم يكتب فصلاً خاصاً في موارد الثروة المصرية، فإننا نستطيع أن نعثر على الذي نريد تحت أبحاث المال الخراجي وواردات بيت المال وما شابه ذلك. فالمصدر الأصلي لثروة المصريين في ذلك الوقت الزراعة والتجارة. فهو يعدد أنواع الأرض فيصل إلى ثلاثة عشر نوعاً أحسنها الباق وهو أغلاها سعراً لأنه يصلح لزراعة القمح والكتان، وأردؤها السباخ وهو الأرض التي يغلب عليها الملح حتى لم ينتفع بها في زراعة الحبوب. وهو عند ذكر كل نوع يبين غلاته وعلاقة ذلك بالماء والري. وهو إلى ذلك يجعل في بدء مقاله عن مصر ما تنتجه البلاد وما يجود فيها وحاجته إلى الماء وأساليب الري. ويذكرنا بأن مصر لا يوجد فيها الجوز والفستق والبندق والإجاص إلا مجلوباً بعد جفافه. وإن زرع بأرضها شيء من ذلك لم يفلح. والزيتون فيها بقلة، ولا يستخرج منه زيت البتة وإنما يؤكل ملحاً».

ويتناول التجارة عند ذكره المكوس، فيعطينا صورة واضحة للنشاط التجاري إذ يصف عيذاب والقصير والطور والسويس والإسكندرية ودمياط وقطيا.

ولم يغفل المؤلف معادن مصر. فيستخرج الزمرد بالقرب من قوص، والشب في بلاد الصعيد والواحات، وقد بيع منه في الإسكندرية وحدها ثلاثة عشر الف قنطار وثمنه يقرب من سبعين ألف دينار، والنطرون موجود فيها بكثرة، ومعدن النفط يجمع على ساحل بحر القلزم.

والقواعد التي يذكرها القلقشندي هي بابل ونينوى الأشورية والمدائن الفارسية قبل الإسلام والكوفة وواسط حتى يصل إلى بغداد وسامراء. وتنال المدن من عناية المؤلف الشيء الكثير. فهو بالإضافة إلى تعيين موقعها الجغرافي يذكر متنزهاتها وما اشتهرت به. فقد قال عن حصن كيفا مثلاً «والذي أخبرني به بعض قصاد صاحبها في سنة تسع وتسعين وسبعمائة أن الملك القائم بها يومئذ اسمه سليمان بن داود... وذكر أنه يقول الشعر فنظمت له أبياتاً وبعثت بها اليه صحبة قاصده أولها:

سليمان الزمان بحصن كيفا ... له في الملك آثار كرام
زكا أصلا، فطاب الفرع منه ... وطاب الغصن إذ طاب الكمام
بنو أيوب أبقوا منه ذخرا ... ونعم الذخر والقيل الهمام

وكانت حرّان مدينة عظيمة أما اليوم فخراب، وشمشاط بلدة الأشجار، خصوصاً شجر البندق. ونصيبين «مخصوصة بالورد الأبيض لا يوجد فيها وردة حمراء. وفي شماليها جبل عظيم يقال إنه الجودي الذي استقرت عليه سفينة نوح عليه السلام، منه ينزل نهرها حتى يمر على سورها وعليه بساتينها... وبها عقارب قتالة». «وليس بالجزيرة نخل إلا في سنجار». ويذكّرنا أن عانة واقعة على جزيرة في وسط الفرات، مثل الحديثة، وأنها (أي عانة) تشتهر بالخمر المذكور في الأشعار. «وسعرت» كثيرة الأشجار من «التين والرمان والكروم جميع ذلك عذي لا يسقى». ومن المدن الأخرى التي في الجزيرة: آمد وتكريت، البلدة التي ولد فيها صلاح الدين، وبرقعيد والعمادية وحاني. ويلفت المؤلف إلى أن بعض البلاد الواقعة في الجزيرة طبيعياً هي تابعة لحلب من الناحية السياسية، أي إنها في ملك المماليك، مثل الرها وقلعة جعبر وما والاهما.

وتحتل بغداد مكاناً كبيراً في نفس الكاتب، فيقص تاريخها منذ أن بناها المنصور إلى أن دخلها هولاكو، ويشير إلى ما أضافه خلفاء العباسيين من القصور أو الأسواق أو الأسوار أو الأبواب. وينقل من مسالك الأبصار أنه كان بين جانبي المدينة، القائمين على ضفتي دجلة «جسران منصوبان على النهر شرقاً بغرب على سفن وزوارق اوقفت في الماء، ومدت بينها السلاسل الحديدية المكعبة بالمكعبات الثقال، وفوقها الخشب الممدود وعليها التراب يمر عليها أهل كل جانب إلى الآخر بالحمر والجمال والحمول. وعلى ضفتي دجلة قصور الخلافة والمدارس والأبنية العلية بالشبابيك والطاقات المطلة على دجلة، وبناؤها بالآجر».

«ومن بيوتها ما هو مفروش بالآجر أيضاً ملصق بالقير وهو الزفت ولهم الصنائع العصيبة في التزويق بالآجر، وبها وجوه الخير من الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والربط والبيمارستان والصدقات الجارية ووجوه المعونة، وناهيك أنها كانت دار الخلافة ومقر ملوك الأرض. ومنها قلائد الأعناق، وترابها لمى القبل وأثمد الأحداق». والظاهر من رواية صاحب المسالك «أن أوقافها ظلت جارية في مجاريها لم تعترضها أيدي العدوان في دولة هولاكو ولا فيما بعدها بل كل وقف مستمر بيد متوليه،

(٢) وكانت مقسمة إلى ثمانية عشر عملاً تدار إدارة مدنية، هذا فضلاً عن العربان الذين كانت لهم نظمهم الخاصة.

(٣) إننا إذا عرضنا لوظائف أرباب السيوف وجدناها خمساً وعشرين في الحضرة السلطانية وإحدى وعشرين خارج الحضرة السلطانية.

(٤) إنه كانت هناك خمس وظائف دينية رئيسة أهمها قضاء القضاة. وكانت الوظائف الدينية الخارجة عن الحضرة السلطانية لا حصر لها.

(٥) كانت الوزارة في مقدمة الوظائف الديوانية، لكنه كان بالإضافة إليها ما يزيد على عشرين من الوظائف الهامة. هذا وحده يرينا دقة الإدارة الحكومية. فإذا أردنا ان نعدّ هذه الوظائف طال بنا الحديث، لكن إجمال الأعمال التي كانت تقوم بها الدولة مجتمعة تكفينا. فقد كانت تشمل النيابة عن السلطان وتنظيم شؤون الجند والإشراف على ديوان الرسائل والحجابة وشد الدواوين المالية وولاية الحسبة والشرطة والقضاء والنظر في الأملاك السلطانية والعناية بخزائن السلاح وقضاء العسكر وإفتاء دار العدل. ولنذكر نوعين من الأعمال لهما علاقة خاصة بالحياة الاجتماعية: أولهما تولي شؤون الأطباء والكحالين ومن شاكلهم، وثانيهما الإشراف على التداريس المختلفة من الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة وغير ذلك مما ليس له ناظر خاص به.

وتتمثل الحضارة المصرية بقدر ما يصورها لنا صاحب الصبح، وهو ليس مؤرخ حضارة بالمعنى الفني الدقيق، تتمثل في حديثه عن الجسور ووصف حواصل السلطان والمدارس والمواكب والأسمطة التي يعطينا عنها الشيء الكثير. وإنما ذكرنا الجسور لعلاقتها بالري، فالجسور توزع المياه على الأرض. وهي على نوعين السلطانية والبلدية: والأولى جارية مجرى سور المدينة فيجب على السلطان الاهتمام بعمارتها والنظر في مصلحتها وكفاية العامة أمر الفكرة فيها. وأما البلدية فجارية مجرى الآدر والمساكن التي داخل السور. وينكر القلقشندي على الناس إهمال الجسور البلدية والسلطانية. وفي هذا الإنكار ما يدل على ترك الدولة شأن الزراع مع أنها كانت تعنى بالتاجر.

أما حواصل السلطان، فإن دلتنا على شيء، دلتنا على درجة الحضارة المادية التي نعم بها المماليك في قصورهم، والتي نرى صورها معكوسة في قصص الف ليلة وليلة. فمن هذه الحواصل أو البيوت بيت الشراب المشتمل على أنواع الأشربة وأوانيها النفيسة مما تساوي الآنية الواحدة منها ألف درهم، ومنها بيت الطشت حيث تغسل الأيدي، وبيت القماش ويحفظ فيه ما يلبسه السلطان، ومنها بيت الفراش وفيه الفرش والبسط والخيام، ومنها بيت السلاح أو بيت الزرد وفيه تحفظ السيوف والقسي والنشاب والرماح والدروع الزردية وغير ذلك؛ هذا إلى المطبخ وبيت الطبل وغيرهما.

وعناية المماليك بالمدارس معروفة، فقد اتخذوها وسائل للتقرب إلى الناس وللتكفير عن أخطائهم. وقد بنى برقوق مدرسته الظاهرية أيام القلقشندي، فجاءت في

أنه يستعمل اليوم الطويل.

ولم يذكر القلقشندي نفائس عن العراق، إلا أنه أشار إلى مغاص اللؤلؤ ببحر فارس وقال عنه إنه من أحسن المغاصات وأشرفها وأعلاها قدراً. ونقل عن مسالك الأبصار أن الماردیني الأبيض من أفخر أنواع القماش.

وثمة وصف عام لما كانت عليه مملكة إيران قبيل أيام تيمور جاء فيه «ثم هم (ي بنو جنكيزخان) في دهماء مظلمة، وعمياء مقتمة، لا يفضي ليلهم إلى صباح، ولا فرقتهم إلى اجتماع، ولا فسادهم إلى صلاح. في كل ناحية هاتف يدعى باسمه، وخائف أخذ جانباً إلى قسمه، وكل طائفة تتغلب وتقيم قائماً تقول هو من أبناء القان، ثم يضمحل أمره عن قريب، ولا تلحق دعوته حتى يدعى فلا يجيب».

وأمراء مملكة إيران التي كانت العراق جزءاً منها، على أربع طبقات أعلاها النوين وهو أمير عشرة آلاف، ثم أمير الألف، فأمير المائة فأمير العشرة، ويحيط بالسلطان أربعة أمراء يعرفون بأمراء الألوس وهؤلاء لا يفصل أمر إلا بهم، ولا يمضون أمراً إلا بالوزير. أما الوزير فيمضي الأمر دونهم. والوزير هذا هو حقيقة السلطان وهو المنفرد بالحديث في المال والولاية والعزل حتى في جلائل الأمور. فمتحصلات البلاد ودخلها وخرجها إلى الوزير، وإليه يرجع أمر كل ذي قلم، ومنصب شرعي، وله العطاء والمنع. ولا يشاور السلطان إلا فيما جل من المهمات، وقل من الأمور. أما السيف فيقطع فيها كبير أمراء الألوس. وقد كان الجيش الاحتياطي لمملكة إيران مائتي الف جندي، لكنهم كانوا يستطيعون تجنيد عدد أكبر من هذا بكثير.

أما القضاة في هذه المملكة فيعينهم قاضي قضاء الممالك الذي يكون في صحبة السلطان. أما بغداد فقد كان لها قاضي قضاء مستقل بها يولي فيها وفي بلادها، من جميع عراق العرب.

ومن هذه الملاحظات ومن غيرها نستنتج أمرين رئيسين عن إدارة المملكة: الأول أن إدارتها كانت من النوع اللامركزي، أي إننا نجد في أنحاء مختلفة عدة ملوك يحكمون بالنيابة عن القان الأكبر، وهم له كالعبيد منقادون إليه وداخلون تحت طاعته. والثاني أن إدارة هذه المملكة كانت إدارة عسكرية فيها شيء من النظام الإقطاعي. ومن ثمة نلاحظ أن العراق قلت غلاته، رغم اتساع سواده، تحت إدارة لم تعن بغير الجيش والضريبة.

ويؤكد لنا صحة هذا الاستنتاج المرتبات الكبيرة التي كانت تصرف لقواد الجيش. فلكل نوين أي أمير العشرة الآلاف، ستون ألف درهم وقد يصل ثلاثة ملايين درهم. والجندي الواحد كان له ستمائة درهم. وأضف إلى ذلك «أنه كان لكل طائفة أرض لنزولهم توارثها الخلف عن السلف منذ ملك هولاكو البلاد، فيها منازلهم ولهم بها مزدرع لأقواتهم لكنهم لا يعيشون بالحرث والزرع». ويقول في مكان آخر: «والذي للأمراء والعسكرية لا يكتب به مرسوم لأن كل طائفة ورثت مالها من ذلك عن آبائها

القلعة.

هذا قليل من كثير مما في صبح الأعشى عن مصر، وقراءته فيها متعة ولذة، فضلاً عن المعلومات، وإنني أرجو من القراء أن يستمتعوا به متى قرأوه.

٣. العراق

في السنة ٨٠٣ للهجرة (١٤٠٠ للميلاد) غزا تيمورلنك سورية واحتل شمالها ودمر مدنه ونهب سكانه. وكانت مملكة تيمور واسعة النطاق تشمل العراق وإيران وأواسط آسية (تركستان) فضلاً عن بلاد أخرى كانت له عليها سلطة. وبعد موت تيمور بدأت الدسائس تلعب دوراً كبيراً في الوراثة فقتل أحد خلفائه وسجن الآخر حتى وصل الدور إلى ابنه شاه رخ، الذي وجه همه إلى الإصلاح وتقرير الأمن، وعني برفاهية شعبه في مدة الثماني والثلاثين سنة التي حكم فيها. وعادت بعده الفوضى وأخذت الدولة في الضعف حتى تغلب عليها الصفويون في السنة ٩٠٥هـ (١٤٩٩).

الصورة التي يرسمها القلقشندي للعراق ترجع إلى القرن الثامن للهجرة أو قبل ذلك. ذلك أن المؤلف لم يعرف العراق معرفة شخصية، فاضطر إلى نقل معلوماته عن المصادر التي وصلت إليه: مثل مسالك الأبصار للتاريخ، وياقوت وأبي الفدا للوصف الجغرافي. لكنه يورد بين آن وآخر بعض أخبار سمعها من التجار وغيرهم. وعندها تكون أخباره حديثة العهد.

يعتبر الكاتب العراق جزءاً من إحدى ممالك بني جنكيز خان، أي مملكة إيران، التي يقسمها قسمين: الجنوبي والشمالي. والجنوبي منها فيه ستة أقاليم: الجزيرة الفراتية والعراق وخوزستان والأهواز وفارس وكرمان وسجستان والرخج. والذي نعني به الآن الإقليمان الأول والثاني - أي الجزيرة الفراتية والعراق - اللذان يكوّنان العراق كما نفهمه اليوم.

يتناول صاحب صبح الأعشى كل أقليم فيتحدث عن مدنه وقواعده ثم يشير إلى الأنهار المشهورة ويبحث في الطرق الموصلة إلى قواعده ويذكر بعض المسافات ويعنى بالنفائس العلية القدر والعجائب الغريبة الذكر والمتنزهات المرتفعة الصيت. ثم يورد أخبار من ملكه في الجاهلية والإسلام مشيراً إلى العمال. ويختم فصوله بالمعاملات والأسعار ورزق أصحاب المناصب والجند وترتيب أمور السلطان وديوان الأنشاء.

فالجزيرة يحيط بها الفرات من حدود بلاد الروم، وهو طرف الحد الغربي الجنوبي، حتى الأنبار ثم يعطف الحد إلى تكريت على دجلة ثم إلى الموصل فجزيرة ابن عمر فآمد فحدود أرمينية. أما العراق فيقع جنوبي الجزيرة إلى بحر فارس ويحده من الغرب البادية ومن الشرق بلاد الجبال الفارسية. ووصف المؤلف لنهري العراق الكبيرين - دجلة والفرات - وما يصب فيهما من الروافد، هذا الوصف دقيق للغاية، يلاحظ فيه اتجاه الأنهار وانحدارها والاستفادة منها في الري والمواصلات.

الرمال والإحساء جمع حسي وهو الرمل الذي يغوص فيه الماء «حتى إذا صار إلى صلابة الأرض أمسكته فتحفر عنه العرب وتستخرجه».

والحجاز له فضله وخواصه وعجائبه. يروي القلقشندي عنه حديثاً نقله عن مسلم هو «غلظ القلوب والجفاء في المشرق والإيمان في أهل الحجاز» ثم يضيف: وفي ذلك دليل صريح لفضل الحجاز نفسه، ذلك أن هواء كل بلد يؤثر في أهله بحسب ما يقتضيه الهواء.. وناهيك بفضل الحجاز وشرفه ان به مهبط الوحي ومنبع الرسالة». وبعد تعديد عجائبه يتناول زرعه وفواكهه ورياحينه ومواشيه. فالبر والشعير والذرة والبطيخ والرطب هي بعض غلاته الزراعية، وخيله يفوق الوصف حسنها ويعجز البرق إدراكها. واليمن ينتج مثل الحجاز أو يزيد. وعمان كثيرة النخل والفواكه. واليمامة كثيرة الحنطة والشعير.

ويحدثنا المؤلف عن الوضع السياسي في جزيرة العرب. فالحجاز من مضافات المملكة المصرية، ولمكة أمراء علويون وصاحب الأمر منهم عندئذ حسن بن أحمد، وللمدينة مثلهم وأمرتها متداولة بين عطية وبني جمّاز. وإمرة مكة إمرة أعرابية يمشي أميرها فيها على قاعدة أمراء العرب دون عادة الملوك في المواكب وغيرها. وأتباعه عرب، وأكثرهم من بني الحسن أشراف مكة، وربمااستخدم المماليك الترك.

أما اليمن فمقسوم بين بني رسول حكام التهائم وبين أئمة الزيدية حكام النجود، وإمارة الزيدية أعرابية وأئمتهم على مسكة من التقوى، وترد بشعار الزهد، يجلس أحدهم في ندي قومه كواحد منهم. وهو (أي الإمام) يعتقد في نفسه ويعتقد أشياعه فيه أنه إمام معصوم، مفترض الطاعة تنعقد به عندهم الجمعة والجماعة.

وأما اليمامة فقد غلب عليها قيس عيلان كما غلب عرب بني قحطان على البحرين.

تغلب على المؤلف، كما أشرنا قبلاً، العناية بالمدن وأرباضها. وذلك لأن الحياة في جزيرة العرب تتركز في هذه الواحات التي تنشأ حولها المدن والقرى، فإذا أردنا أن نرسم لأنفسنا صورة واضحة لجغرافية بلاد العرب في أي وقت كان يتحتم علينا أن نعرف مواقع مدنها معرفة دقيقة. على أنا لا نستطيع أن نفعل ذلك الساعة، فنكتفي ببعض المدن التي عرض لها لعلنا نظفر ببعض الذي نريد.

ليس الغريب ان تشغل مكة والمدينة جزءاً كبيراً من الفصول الخاصة بجزيرة العرب. فالمؤلف يصف البيت الحرام ومشاعر الحج والمسجد النبوي وصفاً دقيقاً يعتمد على أصح المصادر وأوثق الرواة. فمعاملات مكة تقوم على أساس الدنانير والدراهم النقرة، ونوع آخر من الدراهم المربعة الشكل. وأسعارها في الغالب مرتفعة عن أسعار الشام. وأكثر متحصل أموالها مما يؤخذ من التجار الواردين من الهند واليمن وغيرهما. و«أما تجهيز ركب الحجيج إليها ففي كل سنة يجهز إليها المحمل من الديار المصرية بكسوة البيت مع أمير الركب، ويكسى البيت بالكسوة الجديدة (المجهزة مع المحمل)... ويأخذ سدنة البيت الكسوة القديمة (التي كانت على البيت)

ومن له الولاية عليه». وإنما نقصت الأوقاف من سوء ولاة أمورها لا من سواها. ويجدر بنا في هذا المقام أن نذكر أن ابن بطوطة الذي زار بغداد بعد هولاكو بنحو مائة عام وصف المدرسة المستنصرية مما يدل على أنها سلمت من أيدي التخريب.

وتحيط ببغداد «البساتين المونقة والحدائق المحدقة وبها تمر النخل المفضلة على سواها من الرطب والتمر. وبها أنواع الرياحين والخضروات والغلال». وسعرها متوسط في الغالب لا يكاد يرخص. ولا يفوت القلقشندي أن يلاحظ أن بغداد «وإن كانت أم الممالك ودار الخلافة، فقد أغفل ملوك التتر الالتفات إليها وصرفوا عنايتهم إلى تبريز والسلطانية وغيرهما».

وأما سر من رأى (سمرّاء) فقد خربت عن قريب من عمارتها ولم يبق فيها عامر سوى مقدار يسير كالقرية.

ويروي أخبار الكوفة والبصرة عمن سبقه من الجغرافيين، ويشير إلى المربد ـ مربد البصرة ـ نقلاً عن ياقوت: «والأبلة، في الجنوب، مدينة في فوهتها نهر طوله أربعة فراسخ (نحو عشرة كيلومترات) شقه زياد بينها وبين البصرة، على جانبيه قصور وبساتين ومدن على خط واحد كأنها بستان واحد. وهو أحد متنزهات الدنيا الأربعة وهي نهر الأبلة وشعب بوان وصغد وسمرقند وغوطة دمشق... ونهر الأبلة يتسلسل مجراه، وتتهلل بكره وعشاياه، ويظله الشجر وتغني به زمر الطير، وفيه يقول القاضي التنوخي:

وإذا نظرت إلى الأبلة خلتها ... من جنة الفردوس حين تخيل
كم منزل في نهرها آلى السرو ... ر بأنه في غيرها لا ينزل
وكأنما تلك القصور عرائس ... والروض حلي، وهي فيه ترفل»

وعبادان بلدة من العراق... وتقع على بحر فارس، وهو محيط بها لا يبقى منها في البر إلا القليل. وعندها مصب دجلة... وفي جنوبها وشرقيها علامات للمراكب ببحر فارس لا تتجاوزها المراكب، وهي خشب منصوبة عند حد الجزر. «وعبادان في طريق العراق من الجنوب مثل الأبلة كما أن حلوان من الشرق وهيت والقادسية من الغرب».

وإهتمام القلقشندي بالطرق والمسافات لا يقل عن اهتمامه بالمدن. أما الطرق فينقلها عن ابن خرداذبه، متخذاً حلب مبدأ لها. وإنما اتخذ حلب لأنها آخر المملكة المضافة إلى الديار المصرية من جهة الشرق. فالطريق من حلب إلى الموصل تمر بمنبج ورأس عين ونصيبين. وتتصل بعد الموصل بالطريق المؤدية إلى تبريز والسلطانية. ومن حلب إلى السلطانية ثلاثون يوماً. ومن الموصل إلى بغداد عن طريق الحديثة وسر من رأى (سمراء) القادسية. وقد كانت ثمة طريق أخرى تتجه من ماردين إلى بغداد. وتستمر هذه الطريق إلى البصرة مجتازة واسط والبطائح.

ويعيّن صاحب الصبح المسافات على أساس الفراسخ والمراحل والأيام. وقد يستعمل مرحلة خفيفة أي أقصر من المرحلة العادية، على نحو ما نعرف عن الإدريسي

والمدن في بقية أنحاء بلاد العرب لا يعنى بها المؤلف عناية خاصة، فلا نحصل منه على معلومات مثل التي نقلناها عن عدن. فعمان «كثيرة النخيل والفواكه ولكنها حارة جداً»، والقطيف «على شط بحر فارس وبها مغاص لؤلؤ وبها نخيل الإحساء... ولها خور في البحر تدخل فيه المراكب الكبار الموسقة في حالة المد والجزر، وبينها وبين البصرة ستة أيام، وبينها وبين عمان مسيرة شهر».

وفي صبح الأعشى فصول متفرقة عن الطرق الموصلة بين أجزاء بلاد العرب ينقلها عن ابن خرداذبة ومسالك الأبصار، لكننا لا ننوي التعرض لها الآن.

وفي بعض ما رواه القلقشندي عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في اليمن، يجد فيه القارىء متعة ولذة وفائدة. فقد عرض لواردات الدولة ونظام المجتمع فأعطانا صوراً حرية بالنقل فهو يقول:

«لليمن ارتفاع صالح من الأموال غالبه من موجبات التجار الواصلين من الهند ومصر والحبشة. وتجتمع لهم الأموال لقلة الكلف على الدولة. فيبنون بذلك القصور المتعددة حتى إن صاحب اليمن لا ينزل في أسفاره إلا في قصور مبنية له في منازل معروفة في بلاده. على أنه ليس باليمن أسواق مرضية دائمة. وإنما يقام لها سوق يوم الجمعة. تجلب فيه الأجلاب ويخرج فيه أرباب الصنائع والبضائع بضائعهم وصنائعهم. فيبيع من يبيع ويشتري من يشتري. ومن أعوزه شيء في وسط الجمعة يكاد لا يجده إلا المأكل.

«على أن لأهل اليمن سيادات بينهم محفوظة، وسعادات عندهم ملحوظة. ولأكابرها حظ من رفاهية العيش والتنعم والتفنن في المأكل. يطبخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان، ويعمل فيه السكر والقلوب، وتطيب أوانيها بالعطر والبخور. ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية وفي بيته العدد الصالح من الاماء، وعلى بابه جملة من الخدم والعبيد. ولهم الديارات الجليلة والمباني الأنيقة، إلا الرخام ودهان الذهب واللازورد فإنه من خواص السلطان لا يشاركه فيه أحد».

وصاحب التهائم من اليمن أي سلطان بني رسول قليل التصدي لإقامة رسوم المواكب والخدمة، والاجتماع بولاة الأمور ببابه. فإذا احتاج أحد من أمرائه أو جنده إلى مراجعته في أمر، كتب إليه قصة يستأمره فيها فيكتب عليها بخطه ما يراه. وكذلك إذا رفعت إليه قصص المظالم فهو الذي يكتب عليها بخطه بما فيه إنصاف المظلوم. وأرباب الوظائف القائمون على خدمته منهم النائب والوزير والحاجب وكاتب الجيش وديوان المال وكتّاب الإنشاء. وصاحب اليمن هذا لا عدو له لأنه محجوب ببحر زاخر، وبر منقطع من كل جهة وللمسالمة بينه وبينهم، فهو لهذا قرير العين خالي البأس.

ولباس السلطان وعامة الجند باليمن أقبية إسلامية، ضيقة الأكمام، مزندة على الأيدي، وفي أوساطهم مناطق مشدودة، وعلى رؤوسهم تخافيف قلانس وفي أرجلهم الدلاكسات وهي أخفاف من القماش الحرير الأطلس والعتابي. وشعار السلطان وردة

وهم على الجهات التي قررها لهم هولاكو لم تتغير بزيادة ولا نقص. وفي هذه المملكة ما لا يحصى من الإدارات والرسومات... وهذه تبقى لصاحبها كالملك يتصرف فيه كيف شاء من بيع وهبة ووقف لمن أراد».

تناول صاحب الصبح المغول كشعب فذكر ما كانت عليه شرائعهم، وما اتصفوا به من تسامح، وعاداتهم في المؤاكلة وطاعتهم لملكهم «فهم من أعظم الأمم طاعة لسلاطينهم، لا لمال ولا لجاه بل ذلك دأب لهم، حتى إنه إذا كان أمير في غاية من القوة والعظمة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق والمغرب، من أذنب ذنباً يوجب عقوبة، وبعث السلطان إليه من أخس أصحابه من يأخذه بما يجب عليه ألقى نفسه بين يدي الرسول ليأخذه بموجب ذنبه، ولو كان فيه القتل... ورعاياهم قائمون بما يلزمون به من جهة السلطان طيبة به نفوسهم. وإن غاب أحد من الرجال قام النساء بما عليهم».

نرى من هذه الصورة أن العراق الذي كان قلب العالم العربي الخفاق قروناً طويلة، قد أخذته في هذه الفترة سنة من الكرى. فقد أصبح تابعاً لدولة غريبة عنه، غريبة الوجه واليد واللسان، على نحو ما قال المتنبي في شعب بوان. لكن الذي بقي في العراق على حاله ولم يتغير هو عروبة الأدب وعروبة اللغة وعروبة الشعور. وهذا لن يتغير أبداً.

٤. الجزيرة العربية

«يحدّ جزيرة العرب من جهة الغرب بحر القلزم (البحر الأحمر)، ومن جهة الجنوب بحر الهند ومن جهة الشرق بحر فارس ومن جهة الشمال الفرات. فهي تحتوي الحجاز ونجداً وتهامة واليمن واليمامة والبحرين وقطعة من بادية الشام وقطعة من بادية العراق». هذه الجزيرة العربية على ما حددها القلقشندي وقسّمها.

وقد نال الحجاز الحظ الأوفى من عناية المؤلف وذلك لسببين: أما الأول فوجود مكة المكرمة والمدينة المنورة فيه، وأما الثاني فإن الحجاز كان عندها من مضافات المملكة المصرية. ويلي الحجاز اليمن. أما ما تبقى من أجزاء الجزيرة فيعرض له عرضاً بسيطاً مقتضباً. يلاحظ الكاتب أن جميع أرض الحجاز جبال وأودية ليس فيها من بسيط الأرض، وجباله أكثر من أن تدخل تحت العد ويأخذها الحصر، وأشهرها جبال مكة والمدينة والينبع. وليس بالحجاز، بل بجزيرة العرب جملة، نهر يجري فيه مركب. وإنما فيه العيون الكثيرة المتفجرة من الجبال المعتضدة بالسيول والأمطار، الممتدة من واد إلى واد، وعليهم قراهم وحدائقهم وبساتينهم مما لا يحصى. واليمن كثير الأمطار وأكثر مطره في أخريات الربيع إلى وسط الصيف. وهو إلى الحر أميل. وبه الأنهار الجارية والمروج الفيح والأشجار المتكاثفة في بعض الأمكنة. أما الأجزاء الباقية من جزيرة العرب فلا يعطينا القلقشندي وصفاً عاماً لها، لكنه إذ يعرض لمدينة خاصة أو منطقة معينة يذكر شيئاً عن جوها. فعمان شديدة الحرارة واليمامة نجاد من

تشد إليها الرحال». ثم يعود فينقل حديثاً آخر هو «ان الله بارك فيها بين العريش إلى الفرات وخص فلسطين بالتقديس».

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى ذكر خواص الشام وعجائبه. فأما خواصه فإن به الأماكن التي تعظمها الأمم على اختلاف عقائدهم كالأقصى والصخرة وكنيسة القيامة وطور نابلس وكنيسة صور. وأما عجائبه فكثيرة يذكر منها الكاتب حمة طبرية ووادي الفرات وحصن الأكراد وقبة العقارب في حمص «وهي قبة بالقرب من مسجدها الجامع، إذا أخذ شيء من تراب حمص وجبل بالماء وألصق بداخل القبة وترك حتى يجف ويسقط بنفسه، من غير أن يلقيه أحد، ثم أخذ ووضع شيء منه في بيت، لم يدخله عقرب، أو في قماش لم يقربه»... ومن عجائب الشام حمّام القدموس، وهي قلعة من عمل طرابلس، يخرج منها أنواع كثيرة من الحيات تظهر من أنابيب مائها وتدخل في ثياب داخلها. ولم يشتهر أنها أضرت أحداً قط على ممر الدهور وتطاول الأزمنة. وفي سور قلعة الخوابي «صدع إذا لدغ أحد بحية فأتى إلى ذلك الموضع فشاهده بعينه، أو أرسل رسوله فشاهده، سلم من تلك اللدغة، ولم يضره السم». وينقل صاحب الصبح عن ابن الأثير ان بقرى حلب قرية تسمى براق يقال إن بها معبدا يقصده أصحاب الأمراض ويبيتون به. فإما أن يرى المريض في منامه من يقول له استعمل كذا وكذا فيبرأ، أو يمسح عليه بيده فيبرأ.

ويعرض المؤلف لما بين الكتّاب من خلاف حول حدود الشام وتسميته وبدء عمارته. ولكن القلقشندي كاتب في ديوان الإنشاء فهو يعنى بالوضع الذي كان في عصره أكثر مما يعنى بالتاريخ، وتهمه الأحوال السياسية الإدارية أكثر مما تهمه خلافات المؤرخين. فيترك ذلك عاجلاً وينتقل إلى أنهار الشام العظيمة وبحيراته وجباله المشهورة وزروعه وفواكهه ورياحينه ومواشيه ووحوشه وطيوره، فيشير إليها إشارة مختصرة لكنها دقيقة. والمؤلف حريص على أن يقابل زروع الشام بمثلها في مصر. فالشام تنبت فيه حبوب مصر كلها، ولكن لا يوجد فيه الكتان ولا البرسيم. ويزرع قصب السكر في أغواره، إلا أنه لا يبلغ في الكثرة حد مصر. وفواكه الشام أكثر أنواعاً وأبهج منظراً من فواكه مصر، وتزيد عليها في الجوز والبندق والأجاص والعناب والزعرور. والزيتون في الشام في غابات كثيرة، ومنه يعتصر الزيت وينقل إلى أكثر البلدان. أما البلح والرطب فمعدومان في الشام أصلاً. ورياحينه تزيد عن رياحين مصر، خصوصاً في الورد، حتى إنه يستقطر منه ماء الورد وينقل منه إلى سائر البلدان. وأما من المواشي فالشام فيه جميع مواشي مصر من الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير. إلا أن أبقاره لا تبلغ في العظم مبلغ أبقار مصر، وأغنامه لا تبلغ في اللحم مبلغ أغنامها، وحميره لم تبلغ في الفراهة مبلغ حميرها. وبعد أن عدد طيوره نقل عن مسالك الأبصار أن الفراريج لا تكون في الشام إلاّ بحضانة ولا تنجح فيها المعامل التي تعمل لإخراج الفراريج في مصر. ويذكر أن رجلاً من أهل مصر عمل في الشام معملاً فصعد له

فيها دون الملوك وأشراف الناس... ومن عادة أمير مكة أنه إذا وصل المحمل إلى ظاهر مكة خرج لملاقاته. فإذا وافاه ترجل عن فرسه خدمة لصاحب مصر».

أما المدينة فتقع في مستو من الأرض والغالب على أرضها السباخ. وفي شماليها جبل أحد وفي جنوبها جبل عير. ونقودها مثل نقود مكة، لكن مقاييسها الذراع الشامي. أما أسعارها فنحو أسعارمكة، بل ربما كانت مكة أرخى سعراً منها لقربها من ساحل البحر بجدة.

وجدة فرضة مكة على ساحل بحر القلزم. وهي «ميناء عظيمة» محل حط وإقلاع، إليها تنتهي المراكب. ونخل هي قرى مجتمعة ذات عيون وحدائق ومزدرع، وغالب فواكه مكة وقطانيها وبقولها منها. والطائف بلد خصيب كثير الفواكه المختلفة مما يشابه فواكه الشام وغيرها، وهي طيبة الهواء إلا أنها شديدة البرد حتى إنه ربما جمد بها الماء لشدة بردها.

ومدن اليمن التي يتحدث عنها كثيرة، فتعز حصن في الجبال مطل على التهائم، أي المنخفض من بلاد اليمن، وفوقها متنزه يقال له مهلة قد ساق له صاحب اليمن المياه من الجبال التي فوقها، وبنى فيها أبنية عظيمة في غاية الحسن وسط بستان هناك. منها قبة ملوكية ومقعد سلطاني فرشهما وأزرهما من الرخام الملون. أما البستان ففيه أشجار نقلت إليه من كل مكان تجمع بين فواكه الشام والهند «لا يقف ناظر على بستان أحسن منه جمعاء ولا أجمع منه حسناً، ولا أتم صورة ولا معنى». وعدن على ساحل البحر «ذات حط وإقلاع وهي أعظم المراسي باليمن... وبها قلعة حصينة، وهي خزانة مال ملوك اليمن إلا أنه ليس بها زرع ولا ضرع، وهي فرضة اليمن ومحط رحال التجار، ولم تزل بلد تجارة من زمن التبابعة وإلى زماننا. عليها ترد المراكب من الحجاز والسند والهند والصين والحبشة. ويمتار أهل كل أقليم منها ما يحتاجون إليه من البضائع... ولا يخلو أسبوع من عدة سفن وتجار واردين عليها وبضائع شتى ومتاجر متنوعة. والمقيم بها في مكاسب وافرة وتجاثر مربحة. ولحط المراكب عليها وإقلاعها مواسم مشهورة. فإذا أراد ناخوذة (أي وكيل السفينة) السفر بمركب إلى جهة من الجهات، أقام فيها علماً برنك خاص به، فيعلم التجار بسفره، ويتسامع الناس. فيبقى كذلك أياماً، ويقع الاهتمام بالرحيل وتسارع التجار في نقل امتعتهم، وحولهم العبيد بالقماش السري والأسلحة النافعة. وتنصب على شاطىء البحر الأسواق ويخرج أهل عدن للتفرج هناك... والمقيم في عدن يحتاج إلى كلفة في النفقات لارتفاع الأسعار بها في المآكل والمشارب. ويحتاج المقيم بها إلى ما يتبرد به في اليوم مرات في زمن قوة الحر... لكن أهلها لا يبالون بكثرة الكلف، ولا بسوء المقام لكثرة الأموال النامية».

وتشبه صنعاء دمشق بكثرة مياهها وأشجارها، واعتدال هوائها. تتقارب فيها ساعات الشتاء والصيف ويقع بها الأمطار والبرد، وعمارتها متصلة. وليس في بلاد اليمن أقدم منها عمارة ولا أوسع منها قطراً.

وكذلك عين سلوان: «وكانت المدينة كلها قد غلب عليها الخراب ثم تراجع أمرها للعمارة، وصارت في نهاية الحسن، بها المدارس والربط والحمامات والأسواق وغيرها». ونابلس مدينة يحتاج إليها ولا تحتاج إلى غيرها. وليس بفلسطين بلدة فيها ماء جار سواها. وبيسان مدينة صغيرة بلا سور ذات بساتين وأشجار وأنهار وأعين، كثيرة الخصب واسعة الرزق ولها عين تشق المدينة. وصرخد بلدة صغيرة ذات بساتين وكروم وليس بها ماء سوى ما يجتمع من ماء المطر في الصهاريج والبرك، وليس وراء عملها من جهة الجنوب وإلى الشرق إلا البرية. و«منها تسلك طريق تعرف بالرصيف إلى العراق يصل المسافرون منها إلى بغداد في عشرة أيام». وبها قلعة محدثة البناء بدئت قبل نور الدين الشهيد بقليل. ولما وصلت عساكر هولاكو ملك التتار إلى الشام هدموا شرفاتها وبعض جدرها فجددها الظاهر بيبرس وهي على ذلك إلى الآن. وبعلبك مختصرة من دمشق في كمال محاسنها وحسن بنائها وترتيبها... وفيها يعمل الدهان الفائق (من الماعون وغيره)، ويحمل منها إلى غالب البلدان مع كونها واسعة الرزق رخيصة السعر. وكانت دار ملك قديم. وحمص من أصح بلاد الشام هواء، وبوسطها بحيرة صافية الماء ينقل السمك اليها من الفرات حتى يتولد فيها والطير مبثوث في نواحيها. وقماشها يقارب قماش الإسكندرية في الجودة والحسن وإن لم يبلغ شأوه في ذلك. وبيروت مدينة جليلة على شاطىء البحر الرومي. وبها جبل فيه معدن حديد، ولها غيضة من أشجار الصنوبر سعتها أثنا عشر ميلاً تصل إلى تحت لبنان. وهي فرضة دمشق، ولها ميناء جليلة. وحماة على ضفة العاصي مكينة البناء، بها القصور المملوكية والدور الأنيقة والجوامع والمساجد والمدارس والربط والزوايا والأسواق التي لا تعدم نوعاً من الأنواع. وكان الصيت لحمص دونها، فلما آلت إلى بني أيوب مصروها بالأبنية العظيمة، وعظموا أسواقها وجلبوا إليها من أرباب الصنائع كل من فاق في فنه إلى أن كملت محاسنها. وهي في غاية من رفاهة العيش. وحولها مروج فيح ممتدة، يكثر فيها مصايد الطير والوحش. وطرابلس، أو أطرابلس كما يوردها القلقشندي، مدينة متمدنة كثيرة الزحام وبها مساجد ومدارس وزوايا وبيمارستان وأسواق جليلة وحمامات حسان، وجميع بنائها بالحجر والكلس مبيضاً ظاهراً وباطناً. وغوطتها محيطة بها وتحيط بغوطتها مزدرعاتها. وميناها جليلة تهوي إليها وفود البحر الرومي وترسو بها مراكبهم وتباع بها بضائعهم. وهي بلدة متجر ومزرع.

حلب مدينة عظيمة من قواعد الشام القديمة وهي في وطأة حمراء ممتدة. مبنية بالحجر الأصفر أنيقة المنازل، واسعة الأسواق، حسنة القياسر، بهجة الحمامات، كثيرة الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والزوايا وغير ذلك من سائر وجوه البر. وبها بيمارستان حسن لعلاج المرضى. وبها عسكر كثيف وأمم من طوائف العرب والأكراد والتركمان. وعينتاب مدينة حسنة واسعة الأرجاء كثيرة المياه والبساتين ذات أسواق جليلة مقصورة للتجار والمسافرين. وأنطاكية قاعدة بلاد العواصم، ومينؤها السويدية.

حمراء في أرض بيضاء. والسنجق اليمني الذي رفع في عرفات سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة كان أبيض فيه وردات حمر كثيرة.

وملوك اليمن مقصودون من آفاق الأرض، فكل مجيد في صنعة من الصنائع يصنع للملك شيئاً ثم يجهزه إليه، فيقبله منه ويحسن نزله ويسني جائزته. فإن أقام ببابه أقام مكرماً محترماً أو عاد محبواً محبوراً. ولا يسمحون لغريب بالعودة مع أمواله إلا إذا قدّم القول بأنه أتاهم راحلاً لا مقيماً. وإلا جردوه مما استفاد عندهم، وخرج عنهم على أسوأ حال. ولكثرة من يقصدهم من مهرة الصناع، اشتهرت اليمن بجودة الصناعة.

أما النجود من اليمن، وهي بلاد أئمة الزيدية الشرفاء، فهي جبال شامخة ذات عيون دافقة، ومياه جارية، على قرى متصلة الواحدة إلى جانب الأخرى. وليس لواحدة تعلق بالأخرى، بل لكل واحدة أهل يرجع أمرهم إلى كبيرهم ولا يضمهم ملك ولا يجمعهم حكم سلطان. وإمامها يجلس في ندي قومه كواحد منهم، ويتحدث فيهم ويحكم بينهم، سواء عنده الشريف والمشروف والقوي والضعيف. وربما اشترى سلعته بيده ومشى بها في أسواق بلده لايغلظ الحجاب ولا يكل الأمور إلى الوزراء والحجاب، يأخذ من بيت المال قدر بلغته من غير توسع ولا تكثر. هكذا هو وكل من سلف قبله مع عدل شامل، وفضل كامل. والأئمة في هذا البيت أهل علم يتوارثونه إماماً عن إمام، وقائماً عن قائم.

وأهل النجود أهل سلامة وخير وتمسك بالشريعة ووقوف معها، ويعضون على الدين بالنواجذ، ويقرون كل من يمر بهم ويضيفونه مدة مقامه حتى يفارقهم. وإذا ذبحوا لضيفهم شاة قدموا له جميع لحمها ورأسها وأكارعها وكبدها وقلبها وكرشها فيأكل ويحمل معه ما يحمل. ولا يسافر أحد منهم من قرية إلى أخرى إلا برفيق يسترفقه منها فيخفره.

وإن كنا نأسف فلأن صاحب الصبح لم يحدثنا عن المجتمع العربي في نجد وغيرها من بلاد الجزيرة. وكم كان بودنا لو أنه فعل.

٥. الشام

يتحدث القلقشندي عن ديار الشام باعتبارها المملكة الشامية ومضافاتها من بلاد الأرمن والروم وبلاد الجزيرة بين الفرات ودجلة. وهذه المضافات، إلا الأخيرة منها، قليلة. لذلك فالمملكة الشامية، على ما يحددها صاحب الصبح، تتفق مع ما قبله جغرافيو العرب عامة من أن الشام يمتد من الفرات شرقاً إلى بحر الروم غرباً ومن جبال طوروس شمالاً إلى صحراء سيناء جنوباً، وحدوده السياسية هنا عمل العرش.

يبدأ القلقشندي حديثه بذكر فضل الشام. فيروي حديثاً خلاصته أنه «طوبى لأهل الشام لأن الملائكة باسطة أجنحتها عليه». ثم يضيف «هذا وقد بعث به الكثير من الأنبياء، وفيه ضرائحهم، وفيه المسجد الأقصى الذي هو أحد المساجد الثلاثة التي

الأعشى، نود أن نعود فنذكر القراء الكرام بأن القلقشندي كتب موسوعته الكبرى لمنفعة المشتغلين بديوان الإنشاء، وعني بالإدارة والنيابات وما يترتب على معرفتها من استعمال الصيغ الصحيحة في مخاطبة أربابها. وأما معلوماته الوصفية فقد أخذ منها الكثير من الثقات من الجغرافيين، ونقل عن الرحالين، وروى عمن اجتمع بهم. وكلما بعد القطر من مصر نقص اهتمامه به نسبيّاً، وفقد سبيل الاتصال المباشر به أو أهله. وهذا سبب ما نرى من اقتضاب في أنباء الأجزاء النائية من العالم العربي.

وقد قبل القلقشندي كثيراً من الأساطير في تسمية البلدان كالذي نقله من أن راهباً اسمه عجلون كان يقيم في مكان، فلما بنيت مدينة هناك سميت باسمه، أو أن سليمان بن عبد الملك وفد على امرأة أكرمت نزله، ولما سألها عن اسمها قالت رملة، فلما بنى مدينته هناك سماها الرملة باسمها. وغير ذاك مما مر بنا.

لكن الذي نأسف له أكثر من كل شيء هو أن صاحب الصبح إذ يعرض لمدينة من المدن يذكر سعتها وبيوتها وجوامعها ومدارسها وزواياها في عبارات عامة بحيث تتشابه الأماكن كلها، دون أن يعطينا ولو مرة واحدة، أعداداً تبيّن السكان والمدارس أو غيرها مثلاً.

على أن هذه الهفوات أمر يسير بالنسبة إلى ما في الكتاب من علم وأدب وتاريخ. إنه كتاب من خير ما ترك لنا السلف الصالح.

العمل في الصيف دون الخريف.

وإذ يتناول القلقشندي تقسيم الشام السياسي يعرض للتقسيم القديم الذي كانت عليه البلاد بعيد الفتح الإسلامي، أيام كانت خمسة أجناد هي من الجنوب إلى الشمال: فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين. ثم ينتقل إلى تقسيم البلاد في عهده، أي في زمن المماليك. وقد كانت البلاد عندها ست قواعد، كما يسميها، هي: دمشق وحلب وحماة وطرابلس وصفد والكرك. وكانت قاعدة حلب تشمل أقصى شمال سورية فتدخل فيها إنطاكية غرباً، والثغور والعواصم شمالاً، وما كان المماليك قد احتلوه من ارمينية، وبعض أجزاء الجزيرة الفراتية مما كان تحت سلطانهم. وقاعدة حماة تقتصر على المدينة نفسها والمعرة والقرى التابعة للمدينتين بين البادية السورية وجبال النصيرية. وكانت قاعدة طرابلس تمتد من جهات إنطاكية شمالاً إلى شمال بيروت جنوباً وتشمل سفوح لبنان الغربية والقلاع الرئيسة في لبنان وجبال النصيرية، فتتبعها اللاذقية وجبلة والمرقب وحصن الأكراد والقدموس. أما قاعدة صفد فكان يدخل فيها صور والشقيف وطبرية والناصرة وجنين وعكاء، فهي تشمل شمال فلسطين وجنوب لبنان الحاليين. والكرك كانت تتبعها الشوبك ومعان وزغر. وما تبقى من ديار الشام كان يدخل في قاعدة دمشق رأساً.

ويحدثنا المؤلف عن الأعمال التابعة لكل من هذه القواعد، وعندها يعرض للمدن بوصف مجمل. فدمشق «مدينة حسنة الترتيب، جليلة الأبنية... وغوطتها أحد مستنزهات الدنيا العجيبة.. وبها الجوامع والمدارس والخوانق والربط والزوايا، والأسواق المرتبة والديار الجليلة المذهبة السقف المفروشة بالرخام المنوع، ذات الماء الجاري. وربما جرى الماء في الدار الواحدة في أماكن منها.... وغالب بنائها بالحجر، ودورها أصغر مقادير من دور مصر لكنها أكثر زخرفة منها. ويستعمل في عمارتها خشب الحور بدلاً من خشب النخل. وجانب المدينة الشمالي يسمى العقيبة وهو مدينة مستقلة بذاتها... يسكنها كثير من الأمراء والجند. وبإزاء المدينة في سفح جبل قاسيون مدينة الصالحية. وهي مدينة ممتدة في سفح الجبل بإزاء المدينة في طول مدى يشرف على دمشق وغوطتها. ذات مساجد ومدارس وربط وأسواق وبيوت جليلة». وغزة «على طرف الرمل بين مصر والشام، آخذة بين البر والبحر بجانبيها، مبنية على نشز عال على نحو ميل من البحر، متوسطة في العظم، ذات جوامع ومدارس وزوايا وبيمارستان وأسواق. والرملة قصبة فلسطين وميناها مدينة يافا، وهي مدينة صغيرة بالساحل. وقد كانت اللد قصبة فلسطين في الزمن الأول حتى بنى سليمان بن عبد الملك الرملة فتحول الناس إليها وتركوا اللد». وقاقون هي مدينة غيرمسورة، بها جامعة وحمام وقلعة لطيفة. أما اليوم فقاقون قرية صغيرة.

والقدس مبنية على جبل مستدير، وعرة المسالك، بناؤها بالحجر والكلس، وشرب أهلها من ماء المطر المجتمع بصهاريج المسجد الأقصى، وعين تجري اليها عن بعد

القرن العشرين، إذ عملت فيها المعاول بانتظام، ونظّفت شوارعها أيدٍ مدربة، فخرجت تعلن للعالم أن الحضارة وصلت تلك الجهات في ما غبر من القرون وفات.

من مدينة مولاي إدريس تلقي النظرة إلى وليلي، فترى أمامك التاريخ يعرض نفسه فصلاً فصلاً وصفحة صفحة. فيحدثك عن هذه المنطقة، فيما يحدث أن المولى أدريس الأكبر وصل تلك المنطقة في السنة ٧٨٨ للميلاد، واستقر به المقام بين أهليها وهم من قبيلة أوربة. وكان بينهم المسيحي والوثني واليهودي فعكف المولى أدريس عليهم يعلمهم الإسلام، فقبلوا ذلك منه، وملّكوه عليهم فكان مؤسس الأسرة الأدريسية. وقد دفن أدريس الأكبر في هذه المدينة التي تحمل اسمه. ومن هنا أصبحت تعتبر مدينة مقدسة يشرّفها هذا الضريح. «وهي معروفة ببركاتها وخيارة سكانها وكرمهم ونبلهم».

ولد للمولى الأكبر بعد وفاته غلام سمي باسمه تيمناً، وتولى أموره مستشار الوالد النصوح راشد، فلما بلغ مولاي أدريس الأصغر من العمر عشراً بويع بالأمر. وهو الذي نقل العاصمة من مولاي أدريس إلى فاس بعد أن بناها وعمّرها وجعلها مكاناً يليق بالدين والدولة والحضارة التي كانت على وشك أن تينع بالمغرب.

وهكذا ونحن نطل من مولاي أدريس القابعة في حمى جبال زرهون، والمتمتعة بالهدوء والطمأنينة في ربوع الجمال الذي لا يحد، والمتنعمة بشرف إيواء الضريح الكريم - نعم، ونحن نطل منها إلى وليلي نشرف في الواقع على تاريخ طويل ينتهي منه فصل ليبدأ فصل. في هذه الرقعة انتهت حضارة الرومان، لتبدأ حضارة العرب. وانتهت الوثنية والنصرانية، ليبدأ الإسلام. ولكن ظل من كل ذلك الماضي شيء في الذي تلاه، لا في الآثار فحسب، ولكن في الحياة. فالتاريخ لا يقف فجأة ليبدأ فجأة. والحضارات أمور تتلو فيها الأجزاء بعضها البعض ليتم منها كلّ او ما يشبه الكل. ومن هنا كان هذا الإعجاب الذي شاهدناه بأنفسنا ونحن نرقب إخواننا المغاربة وهم يتجولون بين أنقاض ولوبلس، ويدركون أن شيئاً من أولئك الذين رفعوا تلك العمد وأقاموا تلك الأسوار وبنوا تلك القاعات وشيّدوا تلك الهياكل لا يزال يسري في دمائهم ويقيم في نفوسهم.

وهذه الرقعة الصغيرة من الأرض التي اندفع منها الإسلام إلى كثير من أصقاع المغرب إنما هي جزء من رقعة أوسع تمتد إلى مكناس وفاس، وهما من عواصم المغرب الملكية. ففاس فيها جامع القرويين الذي مرت عليه القرون الطويلة وهو يدفع بالعشرات من أهل العلم سنوياً لينتشروا في الأرض معلمين ومبشرين ومنذرين. ومكناس عاصمة المولى إسمعيل، أحد أفذاذ الأسرة العلوية الكريمة، وهو أحد بناة المغرب الحديث في الفترة التي حكم فيها البلاد والتي امتدت من ١٦٧٢ - ١٧٢٧. هذا الرجل الذي كان حاكماً وقائداً وسياسيّاً وعالماً وملجأ للخير وموئلاً للصلاح.

فكرت، وأنا واقف في ظلال مولاي أدريس، بكل هذا، وقلت في نفسي، الشعب المجدّ النشيط والقائد الحكيم يجتمعان اليوم في المغرب ليقوداه من جديد في طريق

وإذا نحن عدنا إلى الأجزاء الجنوبية من الشام وجدنا القلقشندي يحدثنا عن صفد بقوله «هي بلدة متوسطة بين الكبر والصغر وربضها منتشر العمارة على ثلاثة أجبل، وأكثر ما يدخل أهلها حمامات الوادي لقلة الماء بها وسوء بناء حماماتها، وكل ما يوجد في دمشق يوجد فيها: إما من بلادها، وإما مجلوب إليها من دمشق. ونيابتها نيابة جليلة ونائبها من أكبر المقدمين». أما عكاء فهي خراب الآن، لأن المماليك خربوها لما فتحوها سنة ٦٩٠هـ خوفاً أن يتحصن بها العدو.

الكرك ذات قلعة حصينة وأسواق عابرة وبساتين كثيرة وفواكه، وبواديها حمام. والشوبك أُقطعها المعظم عيسى فاعتنى بأمرها وجلب إليها غرائب الأشجار حتى تركها تضاهي دمشق في بساتينها وتدفق أنهارها وتزيد عنها بطيب مائها. ومعان كانت مدينة صغيرة وكان يسكنها بنو أمية ومواليهم لكنها خربت هي وعملها ولم يبق بها أحد.

ويظهر من كلام صاحب الصبح أن النقود كان موحدة الأساس (إلى درجة كبيرة) بين الشام ومصر. فالدنانير والدراهم النقرة كانت شائعة في عواصم القواعد الست. أما الوزن والكيل فكانا مختلفين، فدمشق وطرابلس كانتا تستعملان رطلاً وزنه ستمائة درهم، بينما كان الرطل الحلبي يزن سبعمائة وعشرين من الدراهم. وبينما كان كيل دمشق الغرارة كانت حلب وطرابلس تستعملان المكوك للكيل. والغرارة تساوي مكوكين ونصف المكوك.

والجيوش الشامية كانت على ما كانت عليه جيوش مصر في اجتماعها من الترك والجركس والروس والروم والتركمان. وهؤلاء كانوا يقطنون أماكن متعددة في شمال البلاد.

الوظائف في القواعد الشامية، مثل الوظائف السلطانية في مصر، إما وظائف أرباب السيوف أو وظائف ديوانية أو وظائف دينية. وتنتظم الأولى نيابة السلطنة في قواعد كل من الأقسام الستة، يضاف إليها نيابتان منفردتان لكل من قلعتي دمشق وحلب. ويدخل فيها الحجوبية ونقابة الجيش وولاية المدينة وتقدمة البريد. وتشمل الوظائف الديوانية عشر وظائف: منها الوزارة وكتابة السر ونظر الخاص والجامع الأموي والأسواق. وأما الوظائف الدينية فأهمها قضاء القضاة، وافتاء دار العدل وقضاء العسكر ونقابة الأشراف والحسبة والتداريس. على أن القلقشندي يعطينا أنواعاً أخرى من الوظائف؛ ففي دمشق وحلب نجد رياسة الطب والكحالين والجرائحية. ويذكر وظائف زعماء أهل الذمة بدمشق مثل بطرك النصارى اليعاقبة، وبطرك الملكانية. وفي حلب يوجد بيمارستانان: أحدهما يعرف بالعتيق، والآخر بالجديد. ولكل منهما ناظر يخصه، وهذه وظيفة خاصة. كما أن طرابلس بها شاد للميناء بسبب كثرة السفن التي ترسو فيها.

ونحن وقد انتهينا من استعراضنا للصور التي حصلنا عليها للشرق العربي من صبح

بتلافيه».

ويصف التجاني ميناء طرابلس بقوله: «ويخارج باب البحر منها منظر من أنزه المناظر مشرف على الساحل حيث مرسى المدينة، وهو مرسى حسن متسع تقرب المراكب فيه من البر وتصطف هنالك اصطفاف الجياد في أواريها».

ويتحدث عن مدارس طرابلس فيقول: «وبداخل البلد مدارس كثيرة وأحسنها المدرسة المنتصرية التي كان بناؤها على يد الفقيه أبي محمد عبد الحميد ابن أبي البركان بن أبي الدنيا رحمه الله تعالى وذلك فيما بين سنة خمس وخمسين إلى سنة ثمان وخمسين. وهذه المدرسة من أحسن المدارس وضعاً وأظرفها صنعاً».

ويذكر علماء طرابلس ويخص كبيرهم فتراه يقول عنه: «والقائم برسم العلم في هذه البلدة في وقتنا هذا شيخنا الإمام الحافظ أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبد السلام بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبيد، وهو رجل ليس من عمرو ولا زيد، ناهيك من رجل قد نال من المعارف ما اشتهى، وحاز فيما حاز من العلوم الأصولية والفرعية الغاية والمنتهى. حضرت درسه بمسجد مجاور لداره فرأيت رجلاً متضلعاً من العلم ذاكراً بالمذهب ذكراً لا يجاريه فيه أحد ولا تكاد مسألة من مسائله تشذ عنه، حسن العبارة مشاركاً في علوم جمة وله اعتناء بحفظ كلام القرويين في المذهب من تعليل أو تفسير أو تفريق أو تخريج واعتماده في الأصول الدينية والفقهية على كلام الإمام أبي المعالي، وكلام الشيخ أبي حامد الغزالي».

وإجماله لموارد الرزق في مدينة طرابلس وأرباضها حري بالنقل لما فيه من دقة التعبير ومهارة التصوير. فقد قال في ذلك: «واعتماد كل واحد منهم في طعامه، وما يدخره من قوت عامه، إنما هو على ما يجلب إليها في البحر. ومن عادتهم أن لا يتركوا أحداً يخرج شيئاً مما حصل ببلدهم من الطعام إلى خارجه ويعاقبون على إخراجه. وليس البلد بلد احتراث وهو بالجملة بحري لا بري إلا ان أرضهم معدومة المثال في إصابة الزرع إذا أصابت وليس يدري مثلها في ذلك».

٣. اليوسي المغربي

في أواسط القرن السابع عشر للميلاد عمت المغرب فوضى سياسية عصفت به، وكادت أن تهد أركانه. ذلك أن السعديين، الذين كان السلطان فيهم إلى حول ذلك الوقت، ضعف أمرهم واضطرب حبل الأمن في البلاد على أيديهم. لكن قيض الله للمغرب الأسرة العلوية، التي لا تزال قائمة في المغرب إلى اليوم، فانتشلت البلاد من وهدة الفوضى، وأعادت، في النصف الثاني من القرن السابع عشر، إلى القطر المغربي وحدته السياسية على أيدي سيدي محمد والمولى الرشيد والمولى اسمعيل.

في هذه الفترة العصيبة في تاريخ المغرب عاش اليوسي الذي نتحدث عنه. فقد ولد أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي سنة ١٦٣١ في ملوية في الأطلس الأوسط،

مغربيات

١ . في قلب المغرب

نحن في المغرب، في قلبه الخفّاق.

إننا نقف على ارتفاع من ٧٥٠ متراً، في مدينة صغيرة لعل عدد سكانها لا يتجاوز العشرة آلاف. إن بيوتها تتوج هامة هذا الجبل الأشم، وتنحدر على جوانبه بحيث تلفه كأنها تحاول أن تقيه من عوامل الطبيعة. فإذا وقفت البيوت عند هذا الحد قامت أشجار الزيتون القوية بالمهمة نيابة عنها، حتى تبلغ الوادي الذي يدور بالقرية وجبلها في جهات ثلاث. ومهمته أن يدرأ عنها عوادي الزمن. لكن الوادي نفسه تحميه من مثل هذه العوادي جبال تحيط به وترتفع في أجواء الفضاء. والمدينة نفسها يتوسطها جامع وضريح. وليست العبرة في أن يكون في المدينة جامع وضريح، ولكن أن يكونا هذين بالذات. إنه ضريح مولاي أدريس الأكبر وجامعه. وأنت إذ تلقي نظرة إلى الجهة التي تخلى عنها الوادي، وقع طرفك على سهل جليل عامر. فيه خصب وفيه ماء وفيه تاريخ. أما الماء والخصب فهما اللذان صنعا التاريخ إلى حد ما. فقد تحلّق الناس حول الماء، فلما كثر عددهم حفروا للماء سبلاً وصل بها إلى رقعة أوسع أوى إليها من الناس عدد كبير. وكان أن تعددت ألوان السهل والجبال المحيطة به، فاخضرار الشجر والزرع تجاوره التربة الحمراء حتى لكأنها قلب تفتح الحب فيه فجرى أثره في الوجنات. وإلى جانب هذين تقف الصخور الدكناء والمغبرة والبيضاء، وهي صخور ما كانت لتقول الكثير لو أنها بقيت في أمكنتها. أما وقد عملت بها أيدي الناس فاقتلعتها من مكانها، وسوّت أطرافها وهذبت حواشيها ورفعتها حجراً جنب حجر، وصفاً فوق صف، فبدت بنياناً مرصوفاً. فكانت معبداً وسوقاً وحماماً وقصراً وقوس نصر وسوراً وشارعاً تحيط به الأروقة. هذه هي وليلي، وتسمى ولوبلس، وهي فينيقية الأصل. ولكنها من الناحية التاريخية أهم مدينة أنشأها الرومان في المغرب. فقد نالت مدينة الزيت والزيتون عناية أباطرة رومة في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد، فأغدق عليها أنطونيوس بيوس وسفيروس ومرقص أوريلوس وكركلا المال الكثير لإقامة مبان أنيقة جميلة فخمة. وقد استمرت المدينة مركزاً للحياة الرومانية الوثنية والمسيحية مدة طويلة. لكن الزمن عفا عليها، فاختفت معالمها تحت التراب وسماها الناس قرص فرعون. ولم يتعرف العالم الحديث إليها ثانية حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل

اليوسي فعل أكثر من ذلك في فهرسته فقد أرّخ لنفسه ولتطور تفكيره وحياته الروحية. ويكاد من هذه الناحية يكون فريداً بين العلماء الذين ترجموا لأنفسهم. فهو، عندما يعرض للشيخ عبد القادر الفاسي يقول إنه جالسه وحادثه في مسائل هامة وانعقدت بينهما أواصر الصداقة والأخوة بالله. فاليوسي، في هذه الحالة، تعلم وتحدث وناقش فوجد صلة خاصة مع الشيخ الفاسي، فسجل ذلك في فهرسته.

وقد جاء في فهرسة اليوسي عن أحد شيوخه، ابن ناصر قوله: «كان الشيخ رضي الله عنه مشاركاً في فنون من العلم كالفقه والعربية والكلام والتفسير والحديث والتصوف، عابداً ناسكاً ورعاً زاهداً، عارفاً قائماً بالطريقة، شارباً من عين الحقيقة. وكان رضي الله عنه مع اكبابه على علوم القوم وانتهاجه منهج الطريقة، لا يخل بعلم الظاهر تدريساً وتأليفاً وتقييداً وضبطاً، فنفع الله به الفريقين، وصحبه الناس شرقاً وغرباً. فانتفع به الخلق، قائماً بالتعليم والتربية للمريدين بقوله وفعله، والترقية بهمته، عن همة عالية وحالة مرضية، وعلم صحيح وبصيرة ونورانية مع التمكن والرسوخ. فكان إذا تكلم انتعش كلامه في القلب، وإذا وعظ وضع الهناء مواضع النقب».

على أن من أطرف ما جاء في الفهرسة وصف اليوسي لنفسه. فقد قال: «كانت قراءتي كلها أو جلها فتحاً ربانيّاً، ورزقت ولله الحمد قريحة وقادة فكنت بأدنى سماع ينفعني الله، فقد أسمع بعض الكتاب فيفتح الله علي في جميعه فتحاً ظاهراً، وأبلغ فيه ما لم يبلغه من سمعته منه، ورب كتاب لم أسمعه أصلاً غير أن سماع البعض في كل فن صار مبدأ للفتح وتتميماً لحكمة الله في سنة الأخذ عن المشايخ، ولا تستوحش مما ذكرناه ظناً منك أن الربح أبداً يكون على قدر رأس المال، كلا، فقد يبلغ الدرهم الواحد ألف مثقال وما ذلك على الله بعزيز».

أما كتابه الثالث الكبير فهو «المحاضرات». وهو تأملات اليوسي وضعه في شتاء سنة ١٦٨٤، وكان يقضي ذلك الوقت في زيارة لمصموده. والكتاب لم يظفر بتنقيح على ما يبدو، لذلك احتفظ بطابعه الأصلي. والذي يمكن أن يقال عن المحاضرات هو أنه كتاب يمثل هذا الاتصال العقلي والروحي بين عالم كبير وعالمه، بين اليوسي والمغرب في القرن السابع عشر.

وبعد فإن الرجل علم من الأعلام، نرجع إليه لنتعرف إلى ما عرفه المغرب في ذلك الوقت من نشاط في حياته الفكرية والدينية والسياسية. ذلك بأن اليوسي لم يعش في برجه العاجي، بل ساهم في الحياة العامة، على ما يظهر من رسائله إلى السلطان اسمعيل، حول شؤون الدولة على اختلاف أنواعها.

٤. الشيخ محمود قبادو

بين عامي ١٨٣٧ و١٨٥٥ كان يحكم تونس الباي أحمد باشا. وكانت البلاد قد

صنع التاريخ.

٢. التجاني في طرابلس الغرب

بين كبار الرحّالين الأدباء الذين زاروا طرابلس الغرب وتركوا لها وصفاً دقيقاً جميلاً، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني التونسي، في أوائل القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد). وقد نشأ هذا الأديب العالم في بيئة علم وأسرة ضربت في المعرفة بسهم وافر. فقد كان ابوه وجده وأبناء عمومته من قبله أهل علم وأدب، وأصحاب قلم وقضاء. تلقى العلم عن أبيه وعن كبار شيوخ عصره في تونس. وكانت لديه مكتبة غنية، كما كان في متناول يده المئات من الكتب التي أغنيت بها مكتبة الزيتونة وغيرها.

وقد عمل عبد الله التجاني كاتباً في ديوان الإنشاء بتونس في عهد شيخ الموحدين أبي يحيى زكريا بن اللحياني. وأراد هذا أن يتفقد شؤون دولته، فاستصحب التجاني و«فوّض إليه الإشراف على رسائله». فكان من ذلك هذه الرحلة الماتعة في وصف البلاد التونسية والأجزاء الغربية من ليبيا. وكنا نحب أن ننقل عنه الكثير مما وصف به تلك البلاد، لكننا نجتزىء الآن ببعض ما قاله عن مدينة طرابلس الغرب.

قال التجاني «ولما توجهنا إلى طرابلس وأشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يغشى الأبصار فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء. وخرج جميع أهلها مظهرين للاستبشار رافعين أصواتهم بالدعاء، وتخلى والي البلد إذ ذاك عن موضع سكناه وهو قصبة البلد فنزلنا بها ورأيت آثار الضخامة بادية على هذه القبة غير أن الخراب قد تمكن منها. وقد باع الولاة أكثرها. فما حولها من الدور التي تكتنفها الآن إنما استخرجت منها. ولها رحبتان متسعتان. وفي الخارج منها المسجد المعروف في القديم بمسجد العشرة لأن عشرة من أشياخ البلد كانوا يجتمعون فيه للمشورة فيدبرون أمر البلد وذلك قبل تملك الموحدين لها فلما رأوها ارتفع ذلك الرسم، وزال عن المسجد ذلك الاسم.

«ودخلت حمام البلد وهو المجاور للقصبة فرأيت حماماً صغير الساحة، إلا أنه قد بلغ من الحسن غايته، وتجاوز من الظرف نهايته. وكان هذا الحمام من منافع القصبة فبيع من جملة ما بيع منها. وهو الآن محبس على بعض المساجد. وبالبلد حمامان آخران غيره إلا أنهما في الحسن دونه، ورأيت شوارعها فلم أر أكثر منها نظافة ولا أحسن اتساعاً واستقامة، وذلك أن أكثرها تخترق المدينة طولاً وعرضاً من أولها إلى آخرها على هيئة شطرنجية ورأيت بسورها من الاعتناء، واحتفال البناء، ما لم أره لمدينة سواها، وسبب ذلك أن لأهلها حظاً من مجباها يصرفونه في رم سورها، وما تحتاج إليه من مهم أمورها، فهم لا يزالون أبداً يجدون البناء فيه، ويتداركون تلاشيه

من علماء جامع الزيتونة كان صلة الوصل بين هؤلاء الأفراد من أساتذة الغرب وبين الحياة العلمية الإسلامية بتونس. وقد أحدث ذلك كله احتكاكاً بين العقلية الغربية والعقلية الإسلامية. فما الذي نشأ عن ذلك كله؟

يقول الأستاذ محمد الفاضل ابن عاشور: «هذه العبقرية العجيبة (عبقرية الشيخ قبادو) تتبعت التعاليم التي هي سر النهضة الأوروبية فظهر لها أن العلوم الحكمية والرياضية، التي كان علماء الإسلام عنها بمعزل، والتي عرفها هو وعانى في تحصيلها ما عانى... إنما هي مدار التفوق الذي نالته أوروبا على بلاد الإسلام فربط بين هذا وبين ما تشكوه بلاد الإسلام... ربطاً ولّد له فلسفة في النهضة الإسلامية... أساسها أن لا سبيل إلى أخذ الإسلام بحظه من السعادة والنهضة إلا باستعادة نهضة هذه العلوم التي أضاعها؛ ولا سبيل إلى ذلك إلا باقتباسها عن الأوروبيين بالنقل والتعليم».

هذا الرأي الذي وصل إليه الشيخ محمود قبادو وجد سَبيله إلى مركزين هامين: المكتب الحربي وجامع الزيتونة. وقد تأثر به في وسط المكتب الحربي المدير خير الدين واثنان من طلابه هما حسين ورستم. وقد اتيح لهؤلاء فيما بعد ان يتولوا مناصب الوزارة فكانوا بين الذين حملوا راية الإصلاح السياسي في تونس. أما جامع الزيتونة فقد لقيت فيه دعوة الشيخ قبادو آذاناً صاغية وصدوراً رحبة، فتكونت بذلك عصابة من الشباب الزيتوني تعلقت بقبادو وآمنت بمذهبه ودعت إليه.

ومن هنا، نجد أن العمل في الحقول العلمية والاجتماعية والسياسية والإدارية الذي تميزت به الحياة في تونس في أواسط القرن الماضي كان أساسه هذه الشرارة التي انطلقت من هذا الاحتكاك الذي تم، إذ اتصلت العقلية الغربية بالعقلية الإسلامية. والذي يلاحظ في هذه الفترة أن «عم الشغف بتلقف الأحاديث عن أوروبا وأخبارها من أفواه الذين كانت سمحت لهم الفرص النادرة بالسفر إليها من العلماء أو المحنكين.. كما شاع الإقبال على مطالعة ما ظهر من آثار كتب الشرقيين، الذين سبقوا إلى التعرف إلى الحياة الغربية ودونوا وصفها وجهروا بالدعوة إلى الاقتداء بمحاسنها.

ونحن عندما نذكر تاريخ ما حدث في تونس في الفترة التي مرت بين إنشاء المكتب الحربي وبين وفاة الشيخ محمود قبادو سنة ١٨٧١، من تطور النثر والشعر وتبدل في النظر إلى العلم التقليدي وتغير في موقف الناس من الحضارة الأوروبية، واهتمام واع بالتعرف إلى الشخصية التونسية، لا يسعنا إلا أن نذكر بالخير الشيخ محمود قبادو والجماعة التي قبلت برأيه وتتلمذت عليه، في المكتب الحربي وجامع الزيتونة.

٥ . بين السعودية والمغرب

في سنة ١٢١٨هـ (١٨٠٣) استشهد المغفور له الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود على يد رجل دخيل في جماعة الوهابيين. وخلفه في الإمارة ابنه سعود الكبير

وتوفي بعد ستين سنة في فاس. وهو من قبيلة ايت يوسي، إحدى القبائل الثلاث الكبرى في الأطلس الأوسط.

ونحن عندما نتحدث عن اليوسي، فإننا نتحدث عن رجل فريد في ذلك الوقت. فقد كان فقيهاً لغويّاً أديباً مؤرخاً صوفيّاً شاعراً. وقد خلّف في كل من هذه النواحي كتباً ودراسات هي في الطليعة بالنسبة لعصره، وهي، من جهة أخرى، تاريخ للحياة الفكرية في المغرب.

واليوسي قضى طفولته في بلده ملوية، وصرف حياة في تفيلالت والزاوية الدلائية ومراكش، حيث تلقى العلم واتصل بأهل التصوف؛ فلما انتقل إلى فاس، وهي مركز العلم يومها بجامعها الكبير - جامع القرويين - كان قد بلغ السابعة والثلاثين من عمره، وقد بلغ في العلم شأواً بعيداً، فجاء المدينة وعنده ما يعطي، ولم يأت للأخذ فقط. ولما بويع المولى اسمعيل بالسلطان في فاس سنة ١٦٧٢ كان اليوسي أحد العلماء الذين وافقوا على بيعته، مع أنه لم يكن له في المدينة إلا أربع سنوات.

غاب اليوسي عن فاس إحدى عشرة سنة قضاها في مدينة مراكش، ثم عاد إلى فاس وإلى القرويين، ليتابع عمله في الإقراء والكتابة والدرس. ثم خرج إلى الحج في أواخر عمره، وعاد إلى فاس حيث قضى نحبه. ودفن في صفرو ولا يزال الضريح قائماً إلى الآن، وقد أتيحت لنا زيارته قبل مدة قصيرة.

وقد قال صاحب كتاب الاستقصا عن اليوسي: «وفي سنة اثنتين ومائة وألف توفي الشيخ الإمام، علم الأعلام آخر علماء المغرب على الإطلاق، الذي وقع على علمه وصلاحه الاتفاق، أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي... كان رضي الله عنه غزالي وقته علماً وتحقيقاً وزهداً وورعاً». وناهيك بهذا القول شهادة بالرجل.

لليوسي عدد من الكتب والرسائل كثير، وقد حصر الأستاذ جاك برك، من الكولج دو فرانس، المعروف من هذه وتلك في سبعة وعشرين. ولسنا نطمع في التحدث عن كل هذا في هذا الفصل، لذلك فإننا نسمح لأنفسنا بأن نكتفي بالأهم من هذه الكتب. وفي طليعة هذه كتابه «القانون»، وهو موسوعة مغربية للقرن السابع عشر. والباحثون يجمعون على أن اليوسي وضع القانون في أخريات أيامه، وضمنه معرفته. فأول قسم فيه يخصه المؤلف بمعنى «العلم» وقيمته. ثم يأخذ هذه النواحي من المعرفة فيتحدث عنها علم أيام وأخبار وقصص وتاريخ ومنطق وشريعة. وهو يقدم كتابه هذا إلى السلطان المولى إسمعيل.

ومن كتبه الهامة الفهرسة، وهي ترجمة علمية شخصية للمؤلف نفسه. فقد كان من عادة العلماء في تلك العصور أن يعددوا شيوخهم، ويذكروا الكبار ممن تلقوا العلم عنهم وأجازوهم. واليوسي فعل ذلك. وبسبب أن الرجل تلقى العلم في جنوب المغرب، فقيمة الفهرسة، على التخصيص، تعود إلى أن المؤلف حفظ لنا الكثير عن هؤلاء العلماء. لكن

المستلزم لجسمية المستوى، فقال لهم، معاذ الله إنما نقول كما قال مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة، فهل في هذا من مخالفة، قالوا لا وبمثل هذا نقول نحن أيضاً. ثم قال له القاضي: وبلغنا عنكم أنكم تقولون بعدم حياة النبي صلى الله عليه وسلم وحياة أخوانه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في قبورهم فلما سمع ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ارتعد ورفع صوته بالصلاة عليه وقال: معاذ الله إنما نقول إنه صلى الله عليه وسلم حي في قبره، وكذا غيره من الأنبياء، حياة فوق حياة الشهداء، ثم قال له القاضي: وبلغنا أنكم تمنعون من زيارته صلى الله عليه وسلم وزيارة سائر الأموات مع ثبوتها في الصحاح التي لا يمكن إنكارها فقال: معاذ الله ان ننكر ما ثبت في شرعنا وهل منعناكم أنتم لما عرفنا أنكم تعرفون كيفيتها وآدابها، وإنما نمنع منها العامة الذين يشركون العبودية بالألوهية، ويطلبون من الأموات ان تقضي لهم أغراضهم التي لا تقضيها إلا الربوبية. وإنما سبيل الزيارة الاعتبار بحال الموتى، وتذكر مصير الزائر إلى ما صار إليه المزور، ثم يدعو له بالمغفرة ويستشفع به إلى الله تعالى ويسأل الله تعالى المنفرد بالإعطاء والمنع بجاه ذلك الميت إن كان ممن يليق أن يستشفع به. هذا قول إمامنا أحمد بن حنبل رضي الله عنه. ولما كان العوام في غاية البعد عن إدراك هذا المعنى منعناهم سدا للذريعة، فأي مخالفة للسنة في هذا القدر.

وقد علّق صاحب كتاب الاستقصا على هذا الخبر بقوله: ان السلطان المولى سليمان رحمه الله كان يرى شيئاً من ذلك ولأجله كتب رسالته المشهورة التي تكلم فيها على حال متفقرة الوقت وحذر فيها رضي الله عنه من الخروج عن السنة والتغالي في البدعة، وبيّن فيها بعض آداب زيارة الأولياء، وحذّر من تغالي العوام في ذلك وأغلظ فيها مبالغة في النصح للمسلمين جزاه الله خيراً.

٦. انطباعات تونسية

زرت تونس من قبل، وزرتها ثانية مؤخراً.

كانت زيارتي الأولى وتونس تختنق منها الأنفاس، وأهلها يتجرعون الغصص، وثراها يسيطر عليه الغير، وشؤونها يدبرها الغريب. وجاءت زيارتي الثانية وقد انطلقت الأنفاس حرة، وزالت الغصة من النفوس، وعاد الثرى إلى أهله، وامتدت أيدي أهل الوطن إلى شؤونه تدبرها.

هذا الفرق كبير. ولكن أن يحس به شيء، وأن يتحدث عنه شيء آخر، وأكبر من هذا وذاك أن يحياه أبناء البلاد أنفسهم. وأنت تشعر وأنت تتحدث إلى التونسي أنه يحيا هذا. إنه يعيش قصة جهاده، ويعيش تاريخ كفاحه، ويحيا استقلاله، ويشد عليه بالنواجذ، ويبذل ما في وسعه في سبيل الحفاظ عليه.

كان أول ما فعلته في تونس، بعد وصولي إليها بقليل، أن خرجت إلى الشوارع

تعرضت إلى اتصالات كثيرة مع أوروبة ولفحتها رياح الإصلاح التي كانت قد هبت على أجزاء كثيرة من الإمبراطورية العثمانية. ولذلك اهتم أحمد باشا بإدخال إصلاحات كثيرة في بلاده، منها إصلاح البحرية والجيش. فقد زاد عدد الجنود واهتم بتنظيم الجيش. لكن المشكلة الرئيسة التي جابهته كانت إعداد الضباط التونسيين لتولي شؤون الفرق المختلفة والوحدات المتعددة من الجيش الكبير، فرأى ان خير حل لهذه المشكلة هو إنشاء مكتب للعلوم الحربية في مدينة تونس. وتم ذلك في سنة ١٨٤٠.

عهد أحمد باشا إلى خير الدين، وهو شاب شركسي الأصل عارف بالفرنسية ملم بالعربية بإدارة المكتب. فتولى الأمر بما عرف عنه من همة ونشاط. أما أساتذة المكتب فقد كانوا جماعة من الإيطاليين والإنكليز والفرنسيين، ومدير الدراسات فيها الأميرالاي كاليكاريس الإيطالي. أما الدروس التي كانت تعطى في هذا المكتب فتشمل التاريخ والجغرافية والرياضيات والتعبئة الحربية وفن التحصينات والمدفعية. يضاف إليها اللغة الفرنسية واللغة الإيطالية. وكان ممن ضمه هذا المكتب العلاّمة التونسي الكبير الشيخ محمود قبادو. وقد عهد إليه بتدريس اللغة العربية والتربية الدينية. على أن الشيخ قبادو قام بعمل آخر جليل إذ اشترك مع المدير الإيطالي وجماعة من نوابغ طلبة المكتب في وضع خلاصات لدروس الأساتذة الأجانب، كما قامت هذه الفئة نفسها بترجمة كتب أوروبية في الفنون العسكرية والهندسية والرياضية.

وأجداد الشيخ محمود قبادو من مدينة صفاقس، أما هو فقد ولد في تونس سنة ١٨١٢ وبها نشأ وترعرع. وقد نال حظاً وافراً من علوم اللغة والبلاغة والشعر كما كان طويل الباع في علوم الدين. وقد اهتم في شبابه بالتصوف وكان مرشده في هذه الناحية الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي. وعرف الكثيرون للشيخ محمود منزلته العلمية فأقبلوا عليه يغترفون من معرفته لما تصدر للإقراء. إلا أن الشيخ رغب في أن يتعرف إلى مناطق أخرى من العالم الإسلامي فهجر وطنه سائحاً ودخل مدينة طرابلس ثم ذهب إلى استنبول حيث أقام سنوات طويلة، وكان ممن يغشى مجلسه فيها عارف بك حكمت شيخ الإسلام. وحدث أن زار استنبول ابن ابي الضياف وكان وزيراً للأمير أحمد باشا في تونس، فلقي هناك الشيخ قبادو، فاهتم به وأقنعه بالعودة إلى وطنه فرجع إلى تونس سنة ١٨٤١. وكان أحمد باشا قد أنشأ المكتب الحربي فضم الشيخ قبادو إلى أساتذته كما ذكرنا. على أن الشيخ قبادو لم يقتصر عمله على التدريس في المكتب الحربي، وإنما عمل مدرساً بجامع الزيتونة ثم ولي الفتوى على المذهب المالكي. وكان في حياته الطويلة يرجع إليه في أمور اللغة والمسائل الحسابية العويصة في فنّي الجبر والمقابلة. أما محاضراته فكانت مورداً عذباً كثير الزحام. وله شعر رائق جميل فيه كثير من الحكم والأغراض النافعة.

والذي يهمنا أن نؤكد عليه في هذه المناسبة أن الشيخ قبادو وهو الأستاذ العظيم

ذلك مسؤولية الجيل الصاعد، ويحاول أن يخترق بثاقب بصره حجب الغد البعيد ليخطط لهذا الجيل الجديد ما يمكنه من تحمل مسؤوليته بكاملها. وفي مقدمة المشاكل التعليمية بالنسبة للتعليم العالي هي مشكلة الأستاذ الذي يدرس بالعربية. لا يمكن إنكار الواقع. إن هذا النوع من الأستاذ نادر، وإعداده يتطلب الوقت، ولذلك يجب أن نرضى بالأستاذ الذي يدرس بالفرنسية ريثما نعد الأستاذ الذي نحتاج. ولكن مع ذلك فالتعريب في التعليم يسير. ثمة مواد كانت تعلم بالعربية على مستوى الثانوي، فلماذا لا تعلم بالعربية في دار المعلمين العليا؟ وإذاً فالتعريب هنا يسير على أساس التعميق بدل التوسيع. وهذا هو جزء من التخطيط الحكيم.

وتحدثت مع آخرين عن الجامعة المقبلة. وجامعة تونس على وشك الظهور. فوجدت حماسة واندفاعاً، لكنهما لم يبلغا حد الضرب بالتعقل عرض الحائط. إن المشاكل والقضايا معروفة مفهومة مدروسة. وهنا الفرق. لقد كانت من قبل كل هذه الأمور يدرسها غريب عن البلاد، ويقرر أمرها من لا يرتبط بالبلاد لا عقلاً ولا قلباً، أما الآن فيدرسها ويحلها ابن الوطن. يستعين بالأجنبي على أنه للاستشارة لا على أنه صاحب الأمر!

ودار الكتب الوطنية في تونس! إنها إحدى واجهات الاستقلال في البلد! هذه الدار التي كانت فيها مجلدات قليلة باللغة العربية يوم انشئت، والتي كان رئيس القسم العربي فيها ينتزع المخصصات من الإدارة انتزاعاً لكي يبتاع الكتب اللازمة لقسمه، أصبحت اليوم تضم نيفاً ومئة وخمسين ألفاً من المجلدات. وكم يسرك، وأنت تتبع مديرها الأستاذ عثمان الكعاك في أروقتها، أن ترى القاعات تحمل أسماء أناس بذلوا عصارة عقولهم وقلوبهم ودمائهم في سبيل البلاد بدءاً من القرون الخوالي وامتداداً إلى الحاضر.

والجهود التي بذلت خلال عقود من السنين في سبيل السير بجامع الزيتونة ليقوم بواجبه، وكانت دوماً تعرقل، قد أتت أكلها، لأن جامعة الزيتونة ومن عليها وما إليها حرة اليوم تقرر وتفصل في شؤونها. وهكذا فالمسجد الذي كان في تونس في سنوات جهادها نادياً سياسياً، يتوج اليوم عمله بأن يلقي مقاليد أموره إلى الجامعة الزيتونية.

وهكذا فقد شعرت وأنا أتنقل في تونس وأتحدث إلى أصدقائي وأتطلع إلى الأماكن المختلفة وأركب السيارة أن الاستقلال والحرية شيئان حقيقيان، وأن مسؤولية الاستقلال والحرية يدركها أخواني هناك إدراكاً خاصاً. فالتونسيون ذوو نضج سياسي اجتماعي خاص بهم. وهذا النضج يمكنهم من تحمل المسؤولية وإدراك الواجب.

ابن عبد العزيز، الذي ظل أميراً إلى ان توفاه الله سنة ١٢٢٩ (١٨١٤). وفي أيام سعود الكبير اتسعت منطقة نفوذه في الجزيرة العربية اتساعاً كبيراً. وكان من المناطق التي رأى ان يضمها أو يتم ضمها الحجاز، ضناً بالأماكن المقدسة من أن يستمر فيها ما كانت تعانيه من أوصاب وما إلى ذلك على يد غالب أمير مكة ومن جاراه. وقد تم له ذلك بعد قليل من توليه الإمارة.

ولما أتم إحتلال الحجاز وأقام فيه الشعائر على ما يرضي ضميره، كتب إلى سلاطين المسلمين وأمرائهم، يخبرهم بذلك؛ ويدعو الناس إلى اتباع مذهبه والتمسك بالدعوة الإسلامية تمسكاً صحيحاً. وكان أن وصل كتاب منه إلى سلطان المغرب يومها المولى سليمان بن محمد ١٢٠٦ ـ ١٢٣٨ (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢) ينبئه بما حدث، ويدعوه كما دعا غيره. وقد أهتم المولى سليمان برسالة سعود الكبير فعهد إلى الشيخ أبي الفيض، وهو من كبار علماء عصره، بالرد على الرسالة الكريمة.

لكنه لم يكتف بذلك، بل حمّل ابنه ابراهيم الرسالة، وكان ينوي الحج، إكراماً للأمير السعودي. وصحب الحج النبوي المغربي في تلك السنة ١٢٢٦ (١٨١١) جماعة من أعيان المغرب وفقهائه مثل القاضي ابن الفضل العباس بن كيران والشريف الأمين بن جعفر والفقيه محمد العربي الساحلي. وقد أهتم المؤرخون المغاربة لهذه الرحلة فرووا أخبارها بتفصيل. ولما كانت ذات قيمة في تاريخ العلاقات بين الجزيرة العربية والمغرب، فإننا رأينا أن ننقل شيئاً من تلك الأخبار إلى القراء، خاصة ما يتعلق بالمقابلة التي تمت للأمير سعود الكبير مع إبراهيم ابن السلطان وأعيان الوفد. ويمكن إجمال ذلك فيما يلي، نقلاً عن مؤرخي المغرب.

إن المولى إبراهيم ذهب إلى الحج واستصحب معه جواب السلطان، فكان سبباً لتسهيل الأمور عليهم وعلى كل من تعلق بهم من الحجاج شرقاً وغرباً، حتى قضوا مناسكهم وزيارتهم على الأمن والأمان، والبر والإحسان. حدثنا جماعة وافرة ممن حج مع المولى إبراهيم في تلك السنة، أنهم ما رأوا من ذلك السلطان، يعني ابن سعود ما يخالف ما عرفوه من ظاهر الشريعة، وإنما شاهدوا منه ومن أتباعه غاية الاستقامة والقيام بشعائر الإسلام، من صلاة وطهارة وصيام، ونهي عن المنكر الحرام، وتنقية الحرمين الشريفين من القاذورات والآثام التي كانت تفعل بهما جهاراً من غير نكير، وذكروا أن حاله كحال آحاد الناس لا يتميز عن غيره بزي ولا مركوب ولا لباس، وإنه لما اجتمع بالشريف المولى إبراهيم أظهر له التعظيم الواجب لأهل البيت الكريم، وجلس معه كجلوس أحد أصحابه وحاشيته. وكان الذي تولى الكلام معه هو الفقيه القاضي أبو أسحق ابراهيم الزداغي، فكان من جملة ما قال ابن سعود لهم: ان الناس يزعمون أننا مخالفون للسنة المحمدية، فأي شيء رأيتمونا خالفنا من السنة، وأي شيء سمعتموه عنا قبل اجتماعكم بنا؟ فقال له القاضي: بلغنا أنكم تقولون بالاستواء الذاتي

إن هو أقدم.

ولم يكن عبد الرحمن يفكر بأمر مثل هذا. فلم يثره كتاب ثيوفيلوس، لكنه رأى من الحكمة أن يرد على سفارة القيصر بما يليق بها. فاختار يحيى الغزال كاتبه ومشيره رئيساً للوفد، وكان الغزال قد تجاوز الخمسين لكنه ما زال نشيطاً. وكانت ثقافته وحنكته وكياسته تؤهله لمثل هذه المهمة، فضلاً عن ثقة الأمير به. وغادر قرطبة برفقة السفير البزنطي يحمل إلى القيصر كتاب أميره وهديته. والظاهر أن رحلته كانت شاقة جداً، تخللتها العواصف وتعرض فيها لأمواج البحر. وقد واتته شاعريته في وصف الموج إذ قال:

قال لي يحيى، وصرنا ... بين موج كالجبال
وتولتنا رياح ... من دبور وشمال
شقت القلعين وأنبتت ... عرى تلك الحبال
وتمطى ملك الموت ... إلينا عن حيال
فرأينا الموت رأي ... العين حالاً بعد حال

وقدم يحيى الغزال كتاب الأمير عبد الرحمن إلى قيصر بزنطية وفيه رد الأمير اللطيف على كل ما أشار إليه القيصر. فصداقته مقبولة، وسخطه على العباسيين مشاطر فيه، أما استرداد الملك بالمشرق فأمر مرغوب فيه لكن الأحوال لا تسمح به، فإذا ما جهز الأسطول وقوي قام الأمير بواجبه نحو صديقه وسليل أصدقاء آبائه.

وسحر الغزال لب البلاط البزنطي. فقد كان ذلق اللسان ظريفاً أنيس المعشر لطيفه، فأعجب به الجميع وفي مقدمتهم القيصر. وخف حديث يحيى على قلبه فطلب منه أن ينادمه لكنه اعتذر بتحريم الخمر. وكان يوماً جالساً عنده فدخلت الأمبراطورة ثيودورا وعليها زينتها فجعل الغزال لا يميل طرفه عنها وجعل الملك يحدثه وهو لاه عن حديثه. فأنكر ذلك عليه وسأله عن السبب فلم يكتمه بل ذكر له أن صورتها الحسنة ومنظرها الأنيق وطلعتها البهية شغلته عن حديث الملك. فأعجب هذا الكلام الملكين، وخصته ثيودورا بعطفها وروي أنها أهدته بعضاً من اللآلىء النادرة ليجهز بناته.

عاد الغزال إلى قرطبة بعد رحلة دامت عدة أشهر، وقد نجح في توطيد العلاقات الودية بين قرطبة وبزنطية وأوجد جواً مشبعاً بالثقة والعطف.

أما الوفادة الثانية فقد كانت في زمن عبد الرحمن الناصر، الذي يمثل ملكه العصر الذهبي في الأندلس. فقد وفدت عليه في السنة ٣٣٨ هجرية (٩٤٩ميلادية) رسل قسطنطين ملك بزنطية. وأراد الناصر أن يظهر للرسل أبهة ملكه وعظمة دولته فأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه، وأحسن قبول وأكرمه.

فلما وصلوا بجاية أخرج إلى لقائهم من يعتمد عليه لخدمة أسباب الطريق. فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة خرج إلى لقائهم القواد في العدد والعدة والتعبئة

استجلي معالمها وأستعيد ذكرياتها. فوجدت أول ما وجدت، تغييراً في الأسماء. فالشارع الكبير الذي كان يسمى جول فري أصبح شارع الحبيب بو رقيبة. وما معنى هذا؟ إن الاسم الذي يدل على الأخذ زال، وحل محله الاسم الذي يعني العطاء والحق ـ العطاء والحق لتونس.

وذهبت في اليوم التالي إلى دار البريد والمصرف، فسمعت العربية يتحدث بها الموظفون والمشرفون، ولم أذكر أنني سمعتها من قبل إذ كنت في مثل تلك الأماكن. ودرت بالمدينة اتزود منها فراعني وراقني أمر هام. إن السور الذي كان يحيط بالمدينة فيفصلها عن العالم الخارجي قد زال. راعني ذلك أول الأمر لأنني أرى في آثار التاريخ شيئاً من القداسة، لكنني لم ألبث أن راقني ذلك إذ أدركت معنى إزالته ـ في أجزاء منه. ذلك أن هذه المدينة وسكانها ليس ثمة ما يفصل بينهم وبين العالم. لقد كان عالمهم ينتهي من قبل داخل بوابة المدينة، وكان عالم غيرهم يبدأ خارج هذه البوابة. أما الآن فقد أصبح لهم الحق في أن يمتدوا قلباً وعقلاً وروحاً وجسماً إلى المدى الذي تطيقه أجسامهم وتقوى على تحمله نفوسهم. إنهم أصبحوا أحراراً ـ وهذا هو الذي راقني ـ حريتهم.

وتطلعت يمنة ويسرة، وحدقت أمامي، وتلفت خلفي، فرأيت العلم التونسي يرفرف في كل مكان وفوق كل بناء حري به. ولم يكن هذا العلم هناك من قبل. وأهم من رفرفة العلم تعلق أرواح الناس به، حتى لكأنك ترى في رأس كل علم روحاً مستعدة لتدرأ عنه الخطر.

دخلت المكتبات افتش عن الكتب، فهالني كثرة الكتب العربية التي تصل تونس من الأصقاع العربية المختلفة، وقد كان هذا من قبل مما لا يجوز. ولكن أمراً آخر لفتني: كتب مدرسية باللغة العربية يضعها الأساتذة التونسيون للطلاب التونسيين. كانت هذه الكتب، أو أكثرها على الأقل، من قبل فرنسية. إذاً فقد أخذت المدرسة التونسية تستعمل اللغة الوطنية في التدريس، وأصبح للطالب التونسي الحق في أن يقرأ بلغته ويكتب بلغته ويحسب بلغته. وهذه حرية جديرة بالاهتمام، حرية الصغير التي تنمو معه قوة واتساعاً وعمقاً فتكون حرية الجيل الصاعد اقوى بكثير من حرية الجيل الحالي، فحرية الجيل الحالي: هي حرية اقتلاع للأوضاع التي كانت قائمة وتهديم لها، أما حرية الجيل الصاعد فهي حرية النمو المتأصل الجذور المتين.

وتفضل علي مدير دار المعلمين العليا بساعة قضيتها معه نتحدث عن معهده، وهو إلى يومها قمة التعليم العالي في تونس، وسيظل كذلك إلى أن تتوج الجامعة هامة الحاضرة، وما ذلك ببعيد. تحدث المدير بحماسة وتؤدة تلفتان النظر. قال بأنه ليس المهم فقط أن نعرف الذي قمنا به وأديناه، ولكن الأهم هو أن نعرف أين قصّرنا وأين فشلنا لنتجنب ذلك في المستقبل. المدير الشاب يدرك مسؤوليته، ولكنه يدرك فوق

أحوالها؟... فلانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها.. وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم.. فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه، واسألوه المزيد من نعمائه، فقد أصبحتم في خلافة أمير المؤمنين، أحسن الناس حالاً وأنعمهم بالاً وأعزّهم قراراً وأمنعهم داراً».

بمثل هذا الاحتفال المهيب استقبل الناصر وفد القسطنطينية، وهو كما رأينا، أفخم من احتفال سلفه الأمير عبد الرحمن الأوسط. وقد كان هذا طبيعياً، فزمن الناصر أفخم جاهاً، وأكثر ثروة، وأنضج حضارة، من أي زمن آخر في تاريخ الأندلس العربية.

سرح الناصر الوفد بمثل الحفاوة التي استقبل بها، ورافقه حجاب الخليفة حتى خرج من بلاده.

والذي نستطيع أن نتبينه من دراسة هذه السفارات وغيرها أن الاتصال الدبلوماسي الذي يلجأ إليه أهل العصور الحديثة لحل بعض مشاكلهم وعرض وجهات نظرهم في المسائل المعلقة بين الدول، كان معروفاً في تلك العصور البعيدة. وقد ساهم أجدادنا فيه، مثلما فعلوا في نواحي التطور الأخرى، السياسية منها والفكرية.

٣. في مجالس الأنس

احتل العرب الأندلس وعمَّروها واختلطوا بأهلها، فتأثروا بالبلاد، واعتنى الملوك والخلفاء بثروة القطر فتيسر لهم من ذلك ما تحتاجه حياة الترف والبذخ. فنشأت في ديار الأندلس العربية حضارة قوامها العلم الأصيل والأدب الراقي والحياة المدنية الرفيعة.

وقد تجلت هذه النواحي كلها في مجالس الأنس التي كان أهل البلاد يعقدونها ويروِّحون بها عن نفوسهم. ولم تقتصر هذه المجالس على جماعة دون أخرى، بل شملت طبقات الشعب كلها، ولم تكن مجالس اللهو تعتبر سبة يتجنبها النابهون وأولو الشأن في الأندلس. فمجالس الغناء غصت بها المحافل وشغلت الشعراء في أوقاتهم الكثيرة، وفتحت على المتأدبين أبواباً من التفنن الشعري لم تكن معروفة قبلاً، حتى عزا بعض المشتغلين بتاريخ الأدب نشوء الموشحات إلى هذه المجالس. واشترك حتى في الغناء كثير من كبار القوم مثل عبد الوهاب بن حسين الحاجب.

وقد كان أثر المرأة في حياة الأندلس الأدبية والفنية كبيراً. فالشواعر والراقصات والمغنيات كن زينة هذه المجالس. فقد كان يؤتى بهنَّ من أصقاع العالم المختلفة. ومقام المرأة كان محترماً. ومن ثم كان أثرها الكبير في تنشئة الذوق الفني في الأدباء والشعراء. فاحترموها وأشادوا بذكرها. فقد كان لعبد الرحمن الناصر جارية حسنة

الأهلية للنشر والتوزيع